كلمات في
حب الوطن

كلمات في حب الوطن

إعداد وتقديم

د. خالد الخاجة

قنديل | Qindeel

BEAUTIFUL WORDS ABOUT THE. HOMELAND

Dr. Khalid al-Khagah

كلمات في حب الوطن

إعداد: د. خالد الخاجة

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-9314082 تاريخ 2018/7/22

ISBN: 978 - 9948 - 24 - 791 - 3

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2018

الطبعة الأولى: آب / أغسطس 2018 م – 1439 هـ

المحتويات

مقدمة 13
مِن صمْتكِ تعلمت 15
بين الإدارة والقيادة.......... 19
وللتّوطين وجوه كثيرة.......... 23
قيم تحيي.......... 27
نحو ثقافة إدارة الأزمات.......... 31
خطورة رفقاء السوء.......... 35
حقوق الطفل خط أحمر.......... 39
الشباب يصنع منبره.......... 43
اتحاد بلغ أشُدّه.......... 47
للاقتصاد الإسلامي عاصمة.......... 51
القيادة بين غرس الأمل وتكريس الإحباط.......... 55
طريق التميز يبدأ بفكرة.......... 59
القمة الحكومية.. دروس مستفادة.......... 63
حياة بلا قيم.. حياة بلا قيمة.......... 67

من دفتر أحوال المتميزين.................................. 71
تكريم من لأجلها نكرم.................................. 75
رؤية دبي السياحية 2020.................................. 79
الاتصال المؤسسي فن وتطبيق.................................. 83
الحكومة الذكية.. دروس مستفادة.................................. 87
التنافسية العالمية ودولة البنائين.................................. 91
التفكير الإيجابي.................................. 95
رمضان الإمارات واحة للخيرات.................................. 99
علمك يا وطن.................................. 103
مجتمعي مكان للجميع.................................. 107
عبقرية الاتحاد.................................. 111
القيادة.. صناعة الأمل.................................. 115
أوائل الإمارات وترسيخ قيم الوفاء.................................. 119
من أرواحهم تجسدت روح الاتحاد.................................. 123
في البدء كانت رؤية.................................. 127
من التميز إلى الابتكار.................................. 131
الخدمة الوطنية عندما يتحول الانتماءُ ولاءً.................................. 135
عندما يكون الإعلام شريكاً في التنمية.................................. 139
بث حي من الإمارات.................................. 143
سقيا الخير من عاصمة الخير.................................. 147
لن أنساك.. وكيف أنساك!.................................. 151
الإمارات والتنافسية العالمية.. مصطلحات لها دلالات.................................. 155
لماذا الإمارات؟.................................. 159
دبي وجهٌ آخر للتميّز.................................. 163
رائد التميز والسائرون على الدرب.................................. 167
الفن والقوة الناعمة للدولة.................................. 171

عندما يصبح الخيال واقعاً.. 175
الاتصال المؤسسي وإدارة السمعة.. 179
قمة الإبداع وعبقرية التجربة.. 183
الخدمة الوطنية.. ميدان العزة والشرف.. 187
الإمارات وصناعة الفضاء.. 191
خير الناس أنفعهم للناس.. 195
جائزة محمد بن راشد للمعرفة وقصب السبق.. 199
بلادي لك روحي ودمي.. 203
مجلس ذكي لقائد الحكومة الذكية.. 207
حتى تكتمل الصورة.. 211
مواقف كاشفة في المشهد الوطني.. 215
قائد القرن 21.. 219
لاءات الإمارات.. 223
وطن لا تحميه لا تستحق أن تعيش فيه.. 227
زايد والقيادة بالعطاء.. 231
يا مبادرات الخير هبي.. 235
عندما يكون إسعاد الناس سياسة حكومية.. 239
التمكين للعربية حفاظ على الهوية.. 243
الإمارات حلم الشباب العربي.. 247
بعد إعمار الأرض الإمارات تعمر الفضاء.. 251
قمة الابتكار.. والاستثمار في الإنسان.. 255
رسالة استثنائية من قائد استثنائي.. 259
عند الملمات تكون الإمارات.. 263
نستدعي ونصنع.. 267
عيشي بلادي.. 271
بناء الوعي السياسي لشباب الجامعات.. 275

من الاستثمار في الإنسان إلى صناعة العلماء........ 279
مسرعات حكومية لآفاق عالمية........ 283
للتسامح دولة........ 287
الأجندة الوطنية للشباب........ 291
تطوير المدرسة الإماراتية ضرورة حتمية........ 295
مدارسنا تصنع مستقبلنا........ 299
الابتكارفي العمل الحكومي مساق يدرس........ 303
رهين الصدمتين........ 307
معاً في البناء والانتماء........ 311
نفحات رمضانية........ 315
بالعلم نرتقي........ 319
هويتنا في ذاكرة تاريخنا وتراثنا........ 323
الإمارات هي الأكثر........ 327
بصمات خالدة........ 331
الإمارات صانعة السعادة........ 335
الإعلام الجديد ودوره في التعليم والبحث العلمي........ 339
تحية لرجال الدفاع المدني في يومهم........ 343
المستقبل في فكر محمد بن راشد........ 347
شباب اليوم قادة اليوم........ 351
بناء الثقة قبل بناء الأوطان........ 355
خلوة الإبداع وصناعة المستقبل........ 359
القمة الحكومية وتكريس المؤسساتية........ 363
محمد بن راشد والقيادة بغرس الأمل........ 367
اصنع فرقاً........ 371

إهداء

والدتي قصة عمري ونبع الحكمة الذي تعلمت منه أن الفضيلة كل لايتجزأ وأن حب الوطن أول أبوابها والموت دونه ذروة سنامها.

والدي الذي رأيت وتعلمت في مدرسته أن قيمة الرجال في صدق كلمتهم وشرفهم في الالتزام بوعودهم، وأن محبة الخلق من علامات رضا الخالق.

زوجتي رفيقة دربي وقصة عمري بأتراحها وأفراحها، ما أقسى الحياة لو خلت ممن هم مثلك، وما أجمل رحلتنا فيها معاً، دمت عزيزة نقية.

دنياي بإشراقها وجمالها ومصدر البهجة، حمدة ابنتي وعلي ابني من جعلا للحياة معنى ولمسيرتي غاية.

مقدمة

يسرني كثيراً، أن أقدم للقارئ هذا الكتاب القيم «كلمات في حب الوطن»، الذي يجمع فيه الأخ الدكتور خالد الخاجه، مقالاته التي ينشرها في جريدة البيان، في عموده الشائق، الذي نتابعه دائماً باهتمام كبير.

هذه المقالات تجسد أمامنا ما يتمتع به الدكتور خالد من قدرة فائقة على تناول الموضوعات الجارية المهمة، التي تمس مسيرة المجتمع والوطن والعالم، كما أنها أيضاً تذكرة بما يحظى به المؤلف من متابعة القراء له، وارتباطهم به، واهتمامهم الواضح بما يكتب.

يبدأ الكتاب بإهداء طيب من المؤلف لوالده ووالدته وزوجته وأبنائه، وهذا تقليد جميل يعبر عن الوفاء الصادق، والعواطف الجياشة للمؤلف لأهل بيته وعائلته.

المقالات في هذا الكتاب، وكنت قد قرأت كثيراً منها في جريدة البيان، تؤكد عندي، وعند كل من يعرف الدكتور خالد، من أنه أستاذ جامعي قدير، وكاتب ناجح، يأخذ قُرّاءَه في رحلة ذهنية ثرية وممتعة، بما يدفعهم دائماً إلى إعمال الفكر حول كافة القضايا المهمة في حياة الفرد والمجتمع.

إن نظرة سريعة على موضوعات المقالات الواردة في هذا الكتاب تطلعنا على بستان رحب من الأفكار والآراء، تتناول موضوعات عن القيادة، فنون الإدارة،

التوطين، الأخلاق والقيم الإنسانية وآداب التربية، الأطفال وقضايا الشباب، قضايا المرأة، الاعتزاز باتحاد الإمارات، الاقتصاد الإسلامي، أفكار وطرق التميز، رؤية دبي، القمة الحكومية، الحكومة الذكية، التعامل مع الأزمات، والاتصال والإعلام، وغير ذلك كثير ووفير من الموضوعات التي تتراوح بين ما هو مجتمعي ووطني، وما هو سياسي، وما هو اقتصادي، وما هو تربوي، وما هو إداري، وكلها يتمّ عَرضُه بشكلٍ مُشَوِّق، يحفز القارئ دائماً إلى أن يُعمل عقله وفكره، ويستخرج لنفسه كل ما هو صالح ومفيد - المؤلف بلا شك لديه قدرة واضحة على الغوص بجدٍ واجتهاد حول كل تحديات الحياة في الدولة والعالم.

إنني أعبر عن إعجابي بالعناوين المتنوعة، التي لا ملل فيها ولا رتابة، آملاً أن يكون حافزاً لقارئ الكتاب إلى حب القراءة، وأن يكون طريقاً لحب الوطن والتعرف إلى القضايا المختلفة التي تواجهه، ومساعدة القارئ على أن يكون أكثر إسهاماً وإيجابية في مسيرة وطنه ومجتمعه.

أنتهز هذه المناسبة، كي أعبر عن شكري الجزيل للمؤلف الدكتور خالد الخاجه، راجياً له دوام النجاح، ليضيف إلى المكتبة العربية كُتباً أخرى تعكس عظمة الإمارات، وتقدم نموذجاً لتناول الموضوعات المختلفة، التي تتصل بحياة البشر، بأسلوب علمي يَسهُل فهمه أمام الجميع.

لقد استمتعت بقراءة هذا الكتاب، وأهنئ المؤلف النابه الدكتور خالد الخاجه على هذا العمل الطيب - كما أتمنى كذلك للقراء الأعزاء كل متعة وإفادة من قراءة هذا الكتاب.

والله الموفق

نهيان بن مبارك آل نهيان

وزير التسامح - دولة الإمارات العربية المتحدة

مِن صمْتكِ تعلمت

أمي، يا نسيم الصبح ويا رائحة الياسمين، فقدتك وفقدت معك نور الشمس الساطع في ابتسامة ثغرك.. يا قصة عمري وهيامي.. يا كل نساء الدنيا.. يا نبع الماء العذب عند القحط.. يا ظلاً وارفاً عند هجير الصيف.. يا سندي بعد الله وعوني.. يا قصة صبر على الألم.. يا إنكار الذات عند طلوع الفجر.. يا فيض عطاء في زمن الشح.. يا درة تاج زينت به رأسي.. يا أجمل حبات العقد.. يا جبل الصبر.. يا فرحتي وبكائي.. يا زادي حين يطول السفر.. يا أنشودة حب وسلام في زمن الكره.. يا دوائي من دائي.. يا نوري حين يظلم دربي.. يا نبع الحكمة عند شداد الأمر.

أمي فقدتك وأنت من أنت.. من لي بعد الله سواك.. حين يشتد بي أمري.. ولمن تكون شكواي ودموعي! يا أنسي ويا ونسي عند فراق الأهل.. أمي يا أغلى اسم وأصعب حزن.. كل الكلمات عجزت.. كل الدموع جفت.. دونك.. آه من وحشة دربي.. آه من عمر جن عليه الليل وغاب القمر.. آه من غربة نفس بين الأهل.. آه من وجع القلب عند مشيب الرأس.. آه من وحشة نفسي.. آه من يُتم الكبر، آه من يُتم الكبر.

يا نجوة روحي ويا سلوة نفسي.. كان لقاؤك دوماً عند الفجر وبعد غروب الشمس.. عند الفجر حين تكون إطلالة وجهك فرحة يومي.. وعند غروب الشمس حين تزيحين عن نفسي كل شقاء بمسحة يدك.

يا أنشودة حب عزفت أجمل لحن؛ تعلمت، وأنا الطفل الصغير في محرابك، أن السلام مع النفس أفضل الخصال، وأن الخطأ جزء من طبيعة البشر فلا نقسو على الغير حين يرتكبون خطأ، ومن أراد أصحاباً بلا عيب صار بلا أصحاب.

تعلمت منك أن الفضيلة ليست في ألا نفكر في أمر خاطئ، فذاك شأن الملائكة المجبولين على الطاعة، ولكن الفضيلة في القدرة على مقاومة التفكير والسلوك الخاطئ والانتصار عليه.

علمتني أن رحمة الله وغفرانه وسعا كل شيء، وإذا كان ارتكاب الخطأ فعلاً مرفوضاً فالاستمرار فيه هو عين العيب، وأن الرجل هو من يملك شجاعة الاعتذار، وأن محبة خلق الله من علامات رضا الله، وأن زينة الدنيا لا تحقق السعادة، ولكن السعادة وسعة النفس تأتي من داخلنا، وأن ضيق النفس أشد على الناس من أغلال السجون وأسوارها العالية.

وعندما حملت حقائبي مغادراً الأهل والوطن لطلب العلم، أتذكر يوم قلتِ لي إن ما تفعله الآن هو ما ستكتبه في دفتر أحوالك عند خريف العمر، حين تقص على أبنائك في جلسات السمر وبث القيم، أنك كنت وكنت وكنت، ما أصعب ألا يجد المرء في دفتر أحواله علامات الشرف وروح الفخر.

وحين يزيد الهم ويفيض الكيل وتفت الغربة في عضدي، أجدك أمامي تقولين لي: كن كما أحب أن أراك ولا تخيب لي فيك رجاء.

علمتني في حياتي أن أفعل كما يفعل الطفل حين يتعلم المشي الأول؛ أن يخطو خطوة إلى الأمام، وأن من كان يومه مثل أمسه وغده مثل يومه، فهو ميت وإن كان بين الأحياء.

علمتني أن الحياة يومان؛ يوم لك فلا تفرح به كثيراً، وكن متواضعاً لا تختال ولا تغتر، ويوم عليك فلا تحزن وكن صبوراً ولا تجزع لأن كليهما سيزول وينحسر، ولرب نازلة يضيق بها صدرك، يجعل الله فيها المخرج والنجاة.

علمتني كيف يكون سخاء النفس ولين الطبع، وكيف يعيش المرء لغيره.. كنت أراك حين تقومين في جوف الليل، أنصت إلى دندنة دعائك في السحر بخشوع الصوت المرتجف، يستمطر رحمات الله لتكون سهام القدر.

علمتني أن القناعة هي أثمن ما يملك الإنسان، وأن الرزق ينادي المرء كما يناديه ملك الموت، وأن رزقك لن يأخذه غيرك فليطمئن قلبك، وأن قيمة الرجال لا تقدر بما يملكون من أرصدة مالية، ولكن بمقدار ما تحمله رؤوسهم من حكمة، وأن سيرتهم تمتد بسير من قدموا لهم صنيع الخير، وحياتهم تمتد في حياتهم، ورب حي من الأموات، ورب ميت تبقى آثاره شاهدة خير.

تعلمت منك أن الإصرار هو أساس النجاح، وأن مدمن الطرق لا بد أن تفتح له الأبواب يوماً ما، وأن الإخفاق في أمر ما لا يعني الفشل، ولكن الفشل عندما نكف عن المحاولة، فلا فشل مع استمرار المحاولة، وأن ما يخطه المرء اليوم هو ما يرسم به خريطة حياته غداً، فكن كما أنت ولا تطِلِ النظر إلى غيرك، وأن الفرق بين الإنسان الناجح وغير الناجح ليس نقص المال وإنما نقص الهمة، وأن كل حقيقة تبدأ بحلم، وأن القيمة الحقيقية للنجاح تكون بمقدار السعادة التي يدخلها على الآخرين، وأن فراغ الجيوب من المال لا يعيب صاحبها، ولكن ما يعيبه هو فراغ عقله ورعونة تفكيره.

تعلمت منك أن السوط الذي لا يقصم الظهر يقويه، وأن التعلم من التجارب الفاشلة هو أساس النجاح، وأن المحاولات الفاشلة هي التي تجعلنا نحدد محطات النجاح، وأن النجاح ابن الإقدام، وعلى المرء أن يفكر ساعات قبل أن يعمل لدقائق.

تعلمت منك ألا نتسرع في الحكم على الآخرين، وأن معادن الرجال تظهر عند

الشدائد، ومن تمام المروءة التماس الأعذار للآخرين قبل إدانتهم، وأن الكمال لله وحده، وأن أنشغل بعيوبي قبل ترصد عيوب الآخرين.

وعندما اجتمع عليك المرض وتعطلت لغة الكلام، كنت واحة الراحة التي ألقي على أعتابها كل هموم الدنيا، وقلبك الضعيف ينبض بالحب، ونظرات عينيك أبلغ من أجمل أبيات الشعر، وأحن من عذب الكلمات.. حتى مِن صمتك تعلمت.

بين الإدارة والقيادة

لا يستطيع منصفٌ إلا أن يؤكد أن دولتنا قد جعلت من التنمية البشرية هدفاً أسمى، بوضوح رؤية وإيمان ودأب تحدث عنها القاصي قبل الداني، ومن هنا تعددت وجهات النظر حول القيادة والمهارات التي يجب أن تتوافر في من يضطلع بدور قيادي في أي مؤسسة.

ورغم أنني من الذين يؤمنون بأن المهارات القيادية يمكن تعلمها، ومن الجائز أن يطور الإنسان مهارته التي وهبه الله إياها، في الاتجاه الصحيح، ليتمكن من توجيه فريق من الناس لتحقيق هدف معين، إلا أنني في الوقت ذاته من المؤمنين بأن القادة المؤثرين في أي مؤسسة أو دائرة، هم عملة نادرة أو هم هبة من الله يمنحها لبعض من الناس لتحمل تبعات قد لا يقدر عليها غيرهم، سواء من الناحية النفسية أو الطاقة البدنية، والاختلاف والتمايز بين البشر هو قانون كوني، واختلاف القدرات بين الناس هو كذلك نظام؛ أراد الله به أن تتوزع أدوار الناس لينضبط الكون، فكل ميسر لما خلق له، كل على قدر طاقته، وإلا لو أن كل البشر أصبحوا قادة فمن سيقودون إذاً؟

وإذا نظرت حولك لتقرأ سير الناس وميولهم، ستجد أن القيادة الحقيقية قد يجد الفرد فيها نفسه، وقد تكون دون إرادة منه أو رغبة فيها، وهي ليست وليدة المصادفة

ولكنّ جانباً كبيراً منها جاء معه إلى الدنيا، تجده بين إخوانه وأخواته في أسرته الصغيرة، هو المركز وهو من يستشيره باقي أفراد أسرته في شؤونهم، ويلجؤون إليه في الملمات ووقت الكرب والشدة وعند الرغبة في اتخاذ القرار. وهو من يبادر قبل أن يطلب منه، كما أنه المهموم دوماً بشؤون الآخرين، المندفع إليهم للمساعدة دون تطفل، كما أنك تجده القادر على العطاء بنفسية عالية دون مَنٍّ أو انتظار رد.

انظر حولك سوف تجد أن الله سبحانه وتعالى قد حبا كل أسرة بنفر قليل من هؤلاء دون باقي الأفراد، في حين تجد غيرهم يستهلكهم الشأن الشخصي، ويستمتعون بقيادة غيرهم لهم، وينزعجون غاية الانزعاج إذا طلب منهم أن يتصدروا لأخذ قرارات مصيرية. هؤلاء النبت الطيب بهذه الصفات القدرية ـ في جانب كبير منها في أغلبهم ـ هم الذين يتولون القيادة في المؤسسات التي ينتسبون إليها، أو ما يديرونه من مشروعات وما يحملونه من مهام، ويتميزون فيها كذلك.

ولا شك أن الإدارة تختلف عن القيادة، فالمدير الناجح يكتفي بتنفيذ التعليمات بدقة وحذق، ويرضى كل الرضى بذلك، ويمكن الاعتماد عليه دائماً في ذلك، أما القائد فهو صاحب رؤية ومقتحم، ولديه حس يستطيع أن يرى به ما لا يراه الآخرون، وقد يتنبأ بفرص للنجاح يعجز عنها الآخرون، كما أنه قادر على اتخاذ قرارات تتطلب قدراً من المغامرة المحسوبة، يتراجع عنها غيره.

ورغم أنه بشر يصيب ويخطئ، إلا أن ندمه دائماً ندم إيجابي وليس ندماً سلبياً. فالندم الإيجابي هو الذي يحدث عندما يقدم الفرد على اتخاذ قرار قد يكون خاطئاً، أما الندم السلبي فهو الندم على عدم اتخاذ قرار بعينه أو ترك فرصة للنجاح لم يتم اقتناصها، وفرق كبير بين الاثنين.

لذا، فإن القائد هو من يملك شجاعة تحمل مسؤولية اتخاذ قرارات مصيرية، قد تؤثر في مستقبل المؤسسة في حال فشلها، وقد تكون نقلة غير مسبوقة وتحدث تطوراً

يجعلها في المقدمة إذا نجحت. وهذا ما يبتعد عنه الكثيرون، إيثاراً للسلامة وخوفاً من القادم وخنوعاً لما هم فيه؛ فالمغامرة المحسوبة جزء أصيل من شخصية القائد.

القائد الحق لأي مؤسسة، هو من يبحث دائماً عن التحدي لتحقيق أهداف قد يرى آخرون أنها ضرب من الخيال، بينما يرى هو أنها ممكنة التحقيق، وهو لا يرضى بمجرد تحقيق الهدف وفقط، بل يسعى لتحقيق الأهداف بكثير من التميز.

القائد عندي هو من لا يتحدث كثيراً عن إنجازاته السابقة وفقط، ولكنه فور أن ينتهي من تحقيق هدف أو مرحلة من النجاح يتطلع لتحقيق غيرها، يعيش في معركة نجاح مستمرة، وهو في هذا لا يقيس نفسه وإنجازاته بما يحيط به من مؤسسات أخرى، ولكنه في تحدٍّ مع ذاته أولاً.

القائد الحقيقي هو من يوقن بأن لدى العاملين معه ـ وليس لديه ـ طاقات يمكن تفجيرها إذا أحسن استخدام مفاتيح شخصياتهم، ويوقن كذلك بأن كل عمل يوكل لأي فرد من المحيطين به، هو عمل كبير في قيمته مهما كان بسيطاً، وأن لدى الأفراد مهما كانت درجاتهم الوظيفية، أفكاراً يجب تقديرها والاستفادة منها.

لذا، فإن القائد هو من يستمع أكثر مما يتحدث، ولا يتحدث إلا بعد أن ينصت لكافة وجهات النظر دون تمييز، ويعلي مصلحة المؤسسة مهما كانت قبل أن يتحيز لرأي معين، ولا يتخذ قرارات قبل أن يستشير المحيطين به، وقراراته لا تكون بالضرورة اختياراً من بدائل مطروحة أمامه، بل قد تكون مخالفة لما هو مطروح ما دامت تدعمها الحجة وقوة المنطق، وفي الوقت ذاته يملك شجاعة التراجع عن رأي أخذه ليست فيه مصلحة أو سيؤدي إلى نتائج غير طيبة للمؤسسة.

القائد الحقيقي يملك شجاعة الاعتذار إن أخطأ، فهو ليس معصوماً، وإنما هو في النهاية إنسان يخطئ ويصيب. وهذا الاعتراف عند الخطأ، من أهم مؤهلات النجاح، وهو جدار الثقة الذي يعلو يوماً بعد يوم بينه وبين فريق عمله.

القائد الحقيقي لا تقتصر علاقته بالعاملين معه على بيئة العمل، بما فيها من أوامر ونواهٍ، وليس في فمه غير كلمتي: افعل ولا تفعل.. ولكن هو من يدرك أن المحيطين به بشر يفرحون أحياناً ويحزنون أخرى، لذا فهو الحريص على مشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم، والبعد الإنساني حاضر في تعاملاته دائماً.

القائد الحقيقي لأي مؤسسة، هو من يقرب منه أصحاب الحكمة مهما كان اختلافه معهم، ولا يفضل أهل الثقة على أهل الخبرة، كما يدرك أن جزءاً أصيلاً من مهامه، هو صناعة قادة مؤهلين لتحمل المسؤولية من بعده، لتستمر مسيرة النجاح.

ورغم ذلك كله، أقول إن المهارات القيادية يمكن اكتسابها وتعلمها عبر تراكم الخبرات، فتلك المهارات ليست أمراً معجزاً.. فالكثير منا يستطيع أن يكتسب المهارات القيادية، ولكن قلةً يصلون فيها إلى مرحلة الإبداع.

وللتّوطين وجوه كثيرة

إن القيمة الحقيقية لوسائل الإعلام ودورها في المجتمع، تأتي من استشعار المواطن أن ما يراه يمثله هو بثقافته وتراثه وقيمه، وأن من يطلون عليه من الشاشات أو من يخط كلمات بيمينه يشعر بمشاعره ويتبنى قضاياه، وهنا يتكون ما يمكن أن نسميه توطين الإعلام، وهو ألا يشعر المشاهد أن ما يراه غريب عنه أو بعيد عن ثقافته أو عالم آخر لا يعرفه.

وإذا كنا نردد دائماً أن الإبداع ليس له وطن، ولكنه يسكن حين يأنس إلى المكان الذي يطلق له العنان ويفتح له الآفاق لينطلق، وأن استقطاب الكفاءات الإعلامية من كافة البلدان العربية هي من الشواهد التي تؤكد صحة البيئة العامة، فلا بد أن تتماشى مع ذلك تربية كوادر إعلامية مواطنة تؤمن بقضايا وطنها وتعرف دروبه وشعابه، كوادر تحمل ثقافة المجتمع وتراثه وتقدمه للعالم بالشكل الذي يليق به.

ومما أعلمه من العاملين في مجال الإعلام، سواء في الصحافة أو الإذاعة والتلفزيون وما أشاهده بحكم عملي، أن الكثير من طلبة الإعلام يتجنبون

تخصص الصحافة، ولا شك أن ذلك مرجعه أسباب كثيرة، منها ضعف مستوى خريج الثانوية العامة، وخاصة في اللغة العربية وهي من أهم أدوات الإعلامي، والتمكن منها من شروط نجاحه.

ولا شك أن الإعلامي الجيد يعني إجادة اللغة العربية بشكل سليم؛ فإذا توافرت فيه كل المهارات الشخصية والصوتية، واهتزت علاقته باللغة العربية فقد الكثير من بريقه؛ لأن إجادته اللغة العربية تعني قدرته على فهم ما يقدمه، وبالتالي فاعلية توصيله إلى الآخرين.

وهذا يتطلب منّا البحث في كيفية توثيق العلاقة بين أبنائنا ولغتهم الأم، كما يتطلب تطوير أدوات تقديمها والأقنية الخاصة بذلك، كما يتطلب انتقاء مدرسي اللغة العربية والاهتمام بتدريبهم بالشكل الذي يجعل أصحاب اللغة مقبلين عليها غير مدبرين عنها. ولا شك أن ما أطلقه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد من مبادرة التمكين للغة العربية، هو القاعدة التي يجب البناء عليها.

وفي هذا الإطار ينبغي البحث عن حلول غير تقليدية، وهنا أذكر ما اقترحه عليّ الأخ الفاضل الأستاذ/ ظاعن شاهين رئيس تحرير جريدة «البيان»، ونحن نتحدث عن هموم الإعلام الوطني وشجونه، من أن الصحيفة على استعداد لتوفير قاعات تدريس للعاملين في مقر الصحيفة، وفتح آفاق التدريب لطلبة الإعلام في الوقت نفسه، وانتقاء العناصر المتميزة منهم للعمل برواتب مجزية، وهناك أمثلة كثيرة وإن كانت أقل من الطموح المطلوب.

كما ينبغي تشجيع أبنائنا على الالتحاق بالتخصصات المطلوبة، عبر دراسة الاحتياجات المطلوبة على وجه الخصوص، ليصبح التعليم لسد حاجة، وليس التعليم لحمل شهادة ترفع من الراتب أو الدرجة الوظيفية.

إن التوطين في وجهه الثقافي، يعني أن تفتح الصحف صفحاتها وساعات البث

للطاقات الثقافية من المواطنين جنباً إلى جنب مع غيرهم، إذ كيف لها أن ترتقي دون أن نفتح لها أبواب الفعل الحقيقي، وكيف يتم التجويد دون المحاولة مرات ومرات، وهذا أهم ما يميز كل ما يتعلق بالفكر والإبداع، وإلا فلماذا يحصد الكاتب جائزة على مقال من بين مئات المقالات، ويحصل الروائي على نوبل لرواية واحدة من بين عشرات الروايات، وينال الممثل «كان» عن دور وقد قدم مئات الأدوار؟ إن تمام الإبداع لا يمكن الوصول إليه دون أن نملك شجاعة تقديم الأقلام الشابة والوجوه الجديدة، ومساندتها وتحمّل معاناة صقلها وتشجيعها، وهذا هو الدور المنتظر من وسائل الإعلام الوطنية.

إن التوطين الإعلامي يعني أن يتم تقديم الرسالة الإعلامية بنسيمها المحلي وبشكل جاذب مبهر، وأن نعرف الهدف الذي يجب الوصول إليه، دون البحث عن التقليد أو الاستنساخ أو ملء ساعات الإرسال بمضمون أجنبي غالباً.

توطين الرسالة الإعلامية يعني أن تكون أخبار الدار وقضايا الوطن لهما الطرح الأعظم، حتى لو تحدثنا كثيراً عن عولمة الإعلام، إلا أن المتتبع للإعلام الغربي يجد أن المواطن يهتم بصحيفته المحلية؛ لأن فيها ما يبحث عنه ويهمه، قبل أن يتصفح الجريدة القومية وهي قليلة.

توطين الرسالة الإعلامية يعني أن تكون منبراً لإبراز المواهب الوطنية في الفن والموسيقى والغناء والشعر والرسم والفنون كافة، وإلقاء الضوء على الإبداعات الشابة في القصة والرواية، وإقامة الندوات وعرضها؛ ليتم استفزاز ما لدى أبنائنا من قدرات كامنة لا تجد المجال المناسب لها، فضلاً عن الكفاءات الوطنية في الرياضة والابتكارات العلمية والطب الذي تعدى مجتمعنا المحلي إلى محيطنا العربي والإقليمي، والشاهد ما نشرته صحيفة «البيان» حول ما حصلت عليه المواطنة الإماراتية «عيدة المحيربي وشريكها المهندس وصفي الشديفات»، من براءة اختراع من مكتب الملكية الفكرية لجمهورية الصين الشعبية، عن

اختراعهما «غطاء أكورديون للمركبات»، وتعد هذه أول براءة اختراع تمنح لمواطنة إماراتية من مكتب الملكية الفكرية لجمهورية الصين الشعبية.

على الجانب الآخر، فإن توطين الرسالة الإعلامية يعني أن يربى أطفالنا على القصص والقيم النابعة من تراث بلدهم والصوت الذي يعلق في آذانهم، وأن تكون النماذج الشخصية التي يقتدون بها نابعة من عمق هذا الوطن؛ فكل منا يتذكر بعد بلوغه أشده ما ارتبط به من قصص يوم أن أبصرت عيناه النور، وعرف قيمة الكلمة وأثرها، في حين غابت القدوة إعلامياً، وإن كانت موجودة على أرض الواقع.

إن التوطين لا يعني أن يشغل أبناء الوطن الوظائف المختلفة في مختلف الدوائر وحسب، بل توطين الفكر؛ بمعنى أن الانطلاق من قاعدة وطنية خالصة وواثقة مع الانفتاح على كافة الثقافات، هو السبيل إلى بناء الشخصية الوطنية المؤهلة للحفاظ على مكتسبات الوطن ومكانته.

إن الوطن زاخر بالكفاءات الوطنية القادرة التي يجب تقديمها وإلقاء الضوء عليها، وإن ما حققته دولتنا في مسيرتها الظافرة التي تزداد توهجاً وجسارة يوماً بعد يوم، والتي باتت نموذجاً يسعى غيرنا إلى الاحتذاء به، يدل على أن لدينا الإرادة والقدرة على استكمال المسيرة بزخم وطني يعرف تاريخه ويستوعب عصره، متمكناً من أدواته، ومحدداً هدفه الذي لا نرضى عن الوصول إليه بديلاً.

قيم تحيي أمماً

في إحدى القاعات الدراسية وفي محاضرة للطلاب، إذا بشابين يافعين يطل من عينيهما وهج النجابة، وتظهر من سلوكهما سرعة الاستجابة والذكاء الذي لا تخطئه عين، يستأذنان في الدخول، قلت لهما: ما الأمر؟ هل تريدان حضور المحاضرة؟ أجابا: لا، ولكننا نريد أن نوزع الكتب الدراسية على الطلبة الراغبين في ذلك. ولأنها المرة الأولى التي أصادفهما، قلت لهما: هل أنتما تعملان في الجامعة؟ قال أولهما: أنا طالب في كلية الهندسة، وقال الآخر: وأنا طالب في كلية إدارة الأعمال، تتيح لنا الجامعة في بداية كل فصل دراسي فرصة الاشتراك في تقديم بعض الخدمات لزملائنا، مقابل مكافأة تعيننا على استكمال دراستنا.

وإذ بي - برد فعل عفوي - أطلب من جميع الطلاب الحضور أن يحيوا زميليهما اللذين يقومان بهذا العمل، ولم يخجلا من أداء تلك المهمة أمام نظرائهم وأقرانهم، وهما المنتسبان إلى كليات متميزة، فضجت القاعة بالتصفيق، وبدأ زملاؤهما في القاعة يساعدونهما في أخذ الكتب، والابتسامة تعلو وجوههم. وأردفت مخاطباً الطلبة الحضور، مؤكداً أنني على يقين أن هذين الطالبين سيكون لهما شأن كبير في دنيا الناس.

فبعد أن يتم الأول دراسته في كلية الهندسة سيكون من اللامعين في تخصصه، ولن أتعجب يوماً أن أرى الآخر مديراً لمؤسسة تجارية كبرى، أو مديراً نابهاً لأحد البنوك، بعد استكمال دراسته في كلية الإدارة؛ لأن البدايات الصحيحة تؤدي قطعاً إلى نتائج مبهجة ومفرحة، وهذه سنة الله في كونه، إنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً. واستوقفني بعض من الإضاءات التي أطلّت من هذا المشهد الصغير في دقائقه التي لم تتجاوز العشر، والكبير إلى أبعد مدى في معناه ورسالته.

توقفت عند مهمة الجامعة حين لا يتوقف دورها، ولا ينبغي له أن يتوقف، عند تلقين طلبتها الدروس العلمية في قاعات الدرس، بل يتجاوز ذلك إلى غرس القيم النبيلة في نفوس أبنائها حتى يشتد العود ويقوى الظهر، وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة «جامعة»؛ إنها كلّ متكامل، ثم أن تلم إدارة الجامعة بالظروف الصعبة لبعض الطلبة.

وتفتح لهم طاقة أمل لاستكمال دراستهم، وإشعارهم بأنهم يكسبون دراهم - ولو قليلة - من عرق جبينهم، لهو درس آخر في كتاب حياتهم الذي لم تزل صفحاته بيضاء، ولكن الصفحة الأولى منه تنمّ عن مسيرة خير وبركة.

وما علمته يقيناً، أن الجامعة في أحيان كثيرة، حين تعطي منحة دراسية للنابهين من أبناء الأقطار العربية المختلفة، لا تكتفي بذلك وحسب، بل تهيئ لبعضهم أحياناً وظيفة تتناسب مع طبيعة دراسته؛ لتعينه على أعباء المعيشة، دون أن تريق ماء وجهه عند سؤال الناس. وأنا على يقين أن من استعانت بهم الجامعة في هذه المهمة الصغيرة، التي من الممكن أن يؤديها العديد من أبسط العاملين في الجامعة - وهم كثر - سيكون لهم شأن بين زملائهم، وستستعين بهم الجامعة أيضاً، ولكن للتدريس لزملائهم كمعيدين، فضلاً عن إعطاء درس ماثل أمام الجميع في التربية بالقدوة، وهو من أكثر أشكال التربية تأثيراً.

ورجعت بي الذاكرة يوم كنت أتحسس الخطى في سنواتي الدراسية الأولى، عندما كنت أساعد والدي في تجارته، ويأتي الزبائن ويرونني؛ عيناً على المتجر، عيناً على الكتاب، وألمح في أعينهم المحبة والتقدير.

وهذه القيمة التي تأصلت جذورها في صدورنا، هي التي صنعت منّا رجالاً يوم أن التحقنا بالجامعة، وصاحبتنا يوم أن ابتعثنا لتحصيل العلم والمعرفة في الجامعات الغربية، على ما في ذلك من مشقة الغربة، ولأننا تربينا على أن قيمة الإنسان الحقيقية لا تقاس برصيده البنكي، ولكن القيمة الحقيقية بمقدار ما يقوم به من عمل يستحق به احترام الناس وتقديرهم، تغلبنا على آلام الغربة ومشقة الدراسة.

إن قيمة العمل أحيت أمماً من موات، أليست هي التي أنتجت تلك المعجزة الكورية؟ وهو ما جعل متوسط ساعات الإنتاج الحقيقي في كوريا، يزيد على ثمان وخمسين ساعة في الأسبوع - على حد ما ذكره لي أحد الأصدقاء المقيمين في كوريا - في حين يصل متوسط إنتاج الموظف في بعض الدول العربية، حسبما أعلنته إحصائياتهم الرسمية، إلى سبع وعشرين دقيقة في اليوم.

ولم أتعجب من ذلك؛ فالمتابع للمضمون الشائع في الإعلام العربي، يجده يكرس بين شبابنا ثقافة ضربة الحظ، حين نغرقهم في برامج المسابقات التي تختزل أحلامهم في اتصال «تليفوني»، أو كوبون عبر شراء سلعة، يحل الكثير من مشاكلهم.. حتى البرامج التي تقدم المواهب الشابة، صارت معلقة بالاتصال «التليفوني»، لا بمقاييس محددة تضمن لأصحاب التميز بلوغ النجاح، فضلاً عما يزيد على ثلاثمئة قناة تلفزيونية للترفيه والتسلية!

ولا أدري هل نحن بحاجة إلى هذا البحر الهادر من الترفيه؟ أم أننا بحاجة إلى كثير من الهمة التي تجعلنا قادرين على بناء أوطاننا، خاصة وأننا ما زلنا أمة تبحث لنفسها عن مكانة تليق بتاريخها وقدرها بين البشر؟

إنني أتوقف حين أجد شاباً يريد أن يحيا حياة رغدة، دون أن يوضح ما هو العمل الذي سيؤديه ليحصل على تلك الحياة! فضلاً عن ذلك، فإن قيمة العمل الحقيقية ليست في تأديته وحسب دون روح أو همة، لكن تمامه يأتي من إتقانه وتأديته على الوجه الأكمل، وأن الله سبحانه وتعالى يحب العبد المحترف، والله تعالى يقول: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره». هذه هي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

إن الإساءة التي حدثت من بعض الجهلاء في الغرب، أزعجتنا وقضّت مضاجعنا، ولكن منّا من يسيء كذلك للنبي صلّى الله عليه وسلّم؛ حين يتراخى في عمله أو لا يتقنه، أو لا يسعى للتخصص في علوم برع فيها غيرنا. وعندي أن الرد البليغ على الإساءة للرسول صلّى الله عليه وسلّم والذود عن حوضه لن يكون بالصراخ وحسب، ولكن حين نقدم الطبيب البارع، والمهندس الألمعي، والمفكر الفذ.. وعندما نكون قبلة لتحصيل العلم كما كنا، هذا هو الرد الصحيح. إن تعظيم قيمة العمل بين أبنائنا هو الخلاص لأمتنا؛ لأنه لا حياة دون عمل، فالعمل قيمة تحيي أمماً.

نحو ثقافة إدارة الأزمات

مليئة هي الحياة بالمتاعب والمصاعب، منها ما قد يستطيع الفرد أن يتغلب عليه، وينهض من عثراته، ويلملم نفسه ليقف على قدمين ثابتتين، ويواصل رحلته مع الحياة التي لم تكن ـ ولن تكون أبداًـ خالية من المنغصات والتحديات، وهي المحطات التي نتعلم منها أن قيمة الإنسان تكمن في قدرته على التغلب على ما يعترضه من أزمات، والخروج منها أقوى مما كان، وقديماً قال الشاعر: «على قدر أهل العزم تأتي العزائم».

ولأن الحياة كذلك «يوم لك فلا تفرح، ويوم عليك فلا تحزن، فكلاهما سينحسر»، ولأن قدر الناس قادة وشعوباً في ميزان التاريخ بقدر ما قدموه لغيرهم وبحجم التحديات التي واجهتهم، وتاريخ دولتنا المجيد، الماضي والحاضر، خير شاهد.

ولأن النصر لا يأتي لمن يدخل المعركة على غير إعداد لها وتخطيط، ويضع الخطط البديلة لكافة الاحتمالات، كما أنه من غير المنطقي مطالبة الجنود بتعلم فنون القتال أثناء المعركة، ولكن لا بد من التأهب وعمل التشكيلات العسكرية، وإجراء المناورات حتى ولو لم تكن الجيوش في حالة حرب.

ولكن تحسباً لقيام حرب تتطلب أن يكون الأفراد على أتم الاستعداد؛ لأن التهاون في ذلك عواقبه وخيمة، بل إن الاستعداد الدائم والجاهزية لدخول المعارك قد تكون أحد أهم أسباب عدم اشتعال فتيلها، وهو ما يسمى بـ «الردع النفسي».

وإذا كان هذا يجري على المستوى العسكري وبأدواته وآلياته وظروفه، فإنه ينبغي أن يتم كذلك على المستوى المدني بأدواته وآلياته، حتى لو اختلفت طبيعة التحديات، فضلاً عن تباين ميدان المعركة وجبهة القتال.

لقد كانت الأزمة أحد أشكال المواجهة ومصاحبة لمسيرة الرسل، ألم نعرف السبع العجاف التي وضع لها سيدنا يوسف خطة للمواجهة قبل حدوثها، وكان ذلك سببا في تجنيب البلاد أزمة اقتصادية كادت تهلك الحرث والنسل؟

إن كثيراً منا يخاف أن يتحدث عن أزمات قد تواجه مسيرتنا كأفراد، متعللين بأنه «لا يجب أن نقدر البلاء قبل وقوعه»، على الرغم من أنه من الحكمة أن نقدر البلاء ـ الأزمة ـ قبل وقوعه، فإذا وقع كنا مستعدين لمواجهته، وكانت الخسائر في أضيق حدودها، وإذا لم يقع فلن نخسر شيئاً.

من هنا فإن ثقافة إدارة الأزمة يجب أن تكون جزءاً أصيلاً من حياتنا، وأن ندرب أنفسنا وأبناءنا على مواجهة الأزمات، لأن ذلك يقوي البناء النفسي لنا ولأبنائنا، ويصنع منهم رجالاً بحق، لديهم الطاقة النفسية القادرة على تحمل المسؤولية، كما يكسبهم القدرة على تحليل معطيات الواقع ومهارة التحسب للمستقبل والاستعداد له، عبر التخطيط العلمي لا اعتماداً على ردود الأفعال.

والبعض منا عندما يستمع إلى كلمة أزمة، تستدعي ذاكرته القضايا السياسية دون غيرها، ويوكل مواجهتها إلى المسؤولين في الدولة أو المؤسسات الرسمية، على الرغم من أن الأزمات تشمل أشكالاً متنوعة مما يواجهه الفرد، ومواجهتها ليست قاصرة على المؤسسات الرسمية وحسب. وهنا أقول إن مواجهة الأزمات

«مسؤولية الجميع»؛ لأنه بغير تضافر جميع الطاقات البشرية وتوحدها بعد اقتناع، مهما كانت أدوارهم، فإنه من الصعب التغلب عليها أو الخروج منها.

كما أن الأزمات قد تختلف في أشكالها، بدءاً بما يحدث في منازلنا وعلاقاتنا بأولادنا وأزواجنا، «فمن الحماقة أن نشعل نيراناً لا نعرف كيف نطفئها»، كما أن قدرتنا كأفراد على إدارة الأزمات التي تعترض حياتنا، سوف تخفف أحمالاً كثيرة ملقاة على عاتق المؤسسات الرسمية للدولة؛ بدءاً من وزارة الداخلية، ومروراً بالمحاكم والدوائر القضائية.

إنني أتساءل كيف نعلم أبناءنا في الفصول الدراسية أن «الوقاية خير من العلاج»، وأن «درهم وقاية خير من قنطار علاج»، ثم لا تتحول هذه الكلمات المجردة إلى برامج عمل؟ ولماذا لا يتم تدريبهم على إدارة أزمات؟ ولتكن برامج بسيطة على مستوى مدرستهم، ويعرض كل تلميذ رؤيته لكيفية المواجهة.

وهي من العمليات التي تتيح لكل فرد فتح آفاق غير محدودة للعصف الذهني، الذي لا شك سيكشف لنا عن طاقات ذهنية تستحق الرعاية والاهتمام، كما أنها نفس المهارات التي سيستخدمها في حياته الخاصة عند مواجهة الأزمات، لتصبح ثقافة وجزءاً أصيلاً من سلوك نشأ وتربى عليه.

أما على مستوى المؤسسات فإنني أتوقف عند تغريدة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، القليلة في عدد كلماتها الكبيرة والعميقة في معناها ودلالتها، عندما أتى بنجار لخلع كل أبواب المديرين القابعين خلف مكاتبهم، فكيف بالجالس خلف الباب أن يشعر بإرهاصات الأزمة فضلاً عن سبل المواجهة؟

وأذهب إلى أبعد من ذلك، إلى أنه قد يكون هو أحد الأسباب الفاعلة في استمرار الأزمة، بتجاهلها أو ادعاء عدم وجودها أو التردد والبطء في أخذ القرارات الفعالة أو عدم امتلاك شجاعة الاعتذار وتحمل المسؤولية، بل الأخطر

من ذلك أن هناك من يعتقد أن كل الأزمات تحل بالصبر عليها، وبمرور الوقت تفقد زخمها وتأججها دون أن يقدم على سلوك إيجابي، وهو في ذلك كمن يخفي رأسه في الرمال.

إن للقيادة الإدارية صفات ومهارات يجب توافرها، وإذا كنا نهتم بالفحص الطبي للأفراد للاطمئنان على سلامة صحتهم البدنية، فلابد كذلك أن نتأكد من لياقتهم النفسية. ففي عالم تكسرت حدوده وانفتحت سماواته وتشابكت مصالح وأقدار الشعوب فيه مع بعضها، لم يعد أحد بمنأى عن تداعيات الأحداث في أي مكان مهما بعدت المسافات.

من هنا، فإن العمل تحت الضغط، واتخاذ القرارات الابتكارية بعيداً عن الحلول التقليدية، باتا صفتين لا غنى عنهما لمن يتصدى للعمل الإداري، مهما كان مستوى المسؤولية الموكلة إليه، فضلاً عن وسائل إعلام أصبحت متابعة للأزمات وهي الغذاء الذي تعيش عليه، مما يتطلب سرعة الحركة ودقتها، قبل أن تتحول الأزمة إلى كارثة.

وإذا كانت إدارة الأزمات تدرس في المرحلة الجامعية، فإنني أدعو إلى أن يتم تدريسها في المرحلة قبل الجامعية، كشكل من التدريب الذهني، فضلاً عن إشاعتها كأسلوب حياة. فمن لا يستطيع التغلب على الأزمات التي تواجهه في حياته الخاصة، فمن الصعوبة بمكان مواجهته لما هو أبعد من ذلك.

خطورة رفقاء السوء

كثيرة هي العوامل المؤثرة في تكوين شخصية الفرد ومعقدة، بحيث يصعب على أكثر الاختصاصيين في علم النفس والاجتماع تحديد طبيعتها أو فصلها عن بعضها البعض لدراسة كل منها على حدة، فالشخصية الإنسانية والمؤثرات الفاعلة فيها حيرت الكثيرين وأرهقتهم، والكلمة النهائية فيها، على وجه الخصوص وفي العلوم الإنسانية على وجه العموم، لم يتم قولها بعد، إلا أنه من المؤكد أن أكثر العوامل تأثيراً في مسار حياة الفرد، هم الصحبة من أخلاء ورفقاء الدرب، الأمر الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

ومفهوم دين خليله، أي يطبع بطبعه ويفكر كما يفكر، بل يُسيّر الكثير من سلوكياته في طريقة الملبس وشكله، بل إن قصة الشعر يتأثر فيها الفرد بقرنائه.

ويؤكد الكثير من الدراسات العلمية أنه في حالة تبني سلوك والانتقال من مرحلة الاقتناع إلى السلوك، لا يتم ذلك إلا عبر المحاكاة لأشخاص قريبين منا أو أشباهنا. وقد يفوق تأثير الرفيق أو الصاحب، وخاصة في مرحلة المراهقة،

تأثير الأب والأم للدرجة التي تجعلنا نقول بكل ثقة: «قل لي من تصاحب أقل لك من أنت»، فإن كان خيراً فهو خير، وإن كان غير ذلك فهذا يتطلب منا التوقف والتأني للدراسة والمتابعة.

ولأن الأمر جد لا هزل فيه، فقد تلقيت بسرور بالغ رسالة من الدكتور محمد مراد عبد الله، أمين السر العام لجمعية توعية ورعاية الأحداث التابعة لشرطة دبي، فحواها أن الجمعية على وشك إطلاق حملة توعوية للتعريف بخطورة «رفقاء السوء».

وتقديري لهذا الخطاب مرجعه إلى عدة أسباب؛ منها أن هذه الجمعية التابعة لشرطة دبي تعكس فلسفة وسياسة قيادتها التي تأخذ بمبدأ «الوقاية خير من العلاج»، وأن منع الجريمة أفضل بمراحل من السيطرة عليها وحل معضلاتها، فالأهم من الإجابة عن السؤال ماذا حدث؟ أن نعرف كيف حدث؟ والأهم من الاثنين أن نعرف لماذا حدث؟ وهو السؤال الأصعب والذي يحتاج إلى مجهود أكبر.

وفي تقديري أن هذه الحملة هي إحدى أهم الإجابات عن لماذا تحدث الجريمة؟ والتي أظهرت أن الرفقة السيئة هي أحد أهم الأسباب، فكان لا بد إذا أردنا شفاء حقيقياً، أن تكون مثل هذه الحملة هي البداية الصحيحة لمواجهة قطاع كبير من السلوك المنحرف، عبر تغييره من الجذور دون الاكتفاء بتطبيق بنود القانون على المخالف وإيداعه أحد السجون، وهو الطريق الأسهل، ولكن الأصعب هو البحث عن العلاج والحد من حدوث الجريمة، إعمالاً للحكمة «درهم وقاية خير من قنطار علاج».

وهنا أدركت أن لهذه الجمعية من اسمها نصيباً، حيث إنها ليست لرعاية الأحداث فحسب، رغم أهميتها، ولكنها معنية بتوعيتهم أيضاً، وهذا هو الأهم. فالرعاية كما أنها تعنى بتوفير البيئة المناسبة من ملبس ومسكن وعلاج، فإن

جانباً كبيراً من الرعاية للأحداث يتمثل في التوعية الفكرية وتصحيح الفكر وتقويم السلوك، عبر المناقشة والإقناع.

ومما استوقفني في هذا الحملة، أنها حملت في ثناياها بشريات نجاحها، ومنها أن الدكتور/ محمد مراد لم يرد أن تدشن هذه الحملة بقرارات فوقية، وما أسهل ذلك، ولكن سعى إلى مشاركة الشباب فيها، ليمثل حالة من الاشتباك المحمود بين المؤسسات وبين قطاع الشباب، فضلاً عن المؤسسات التعليمية في الدولة، حيث تضمنت مطلباً متعلقاً بالاستعانة بطلبة الإعلام في جامعة عجمان لتصميم شعار الحملة، كما تضمنت تشكيل فريق عمل من الطلبة للمشاركة في فعالياتها والتسويق لها من خلال وسائل التواصل والإعلام الجديد.

والاستعانة بالشباب في هذه الحملة لها دلالات مهمة، منها أنك إن أردت أن تقنع هذا القطاع العريض من أبناء الوطن بخطورة رفقاء السوء، فلا بد أن يكون لهم الدور الأكبر في المشاركة في التخطيط والتواصل مع قرنائهم في العمر وشركائهم في الاهتمام والأفكار.

وإذا كنا نردد أن رفيق السوء له تأثير كبير في صديقه، فكذلك الرفيق الناصح والمعين والأمين لا يقل تأثيره عن الأول، وهذا توجه يدل على وعي إدارة الجمعية باللغة الأكثر تأثيراً، كما أن استخدام وسائل الاتصال الجديد، من فيسبوك وتويتر وغيرهما، هي أدوات العصر التي فرضت علينا وعانينا كثيراً من بعض ممارسات مرتاديها الخاطئة، فلا بأس أن يتم تطويعها لخدمة مجتمعاتنا.

إن هذا الذي تقوم به جمعية توعية ورعاية الأحداث، هو جهد على الطريق الصحيح ومقدر، لكنه لن يؤتي أكله دون تضامن مؤسسات وهيئات مجتمعية أخرى، منها المؤسسات التعليمية، التي يجب ألا يقتصر دورها فقط على تلقين طلابها العلم في قاعات الدرس بعيداً عن معرفة الخريطة النفسية والاجتماعية،

ومـن الأهميـة بمـكان تفعيـل دور الأخصائـي الاجتماعـي، بعـد أن غابـت هـذه المهمـة عـن أغلـب مدارسـنا، وقيامـه بمهـام إداريـة أو أعبـاء تدريسـية، كذلـك لا بـد مـن التأكيـد علـى العلاقـة الإنسـانية بيـن المعلـم وتلاميـذه، التـي ضعفـت فـي ظـل تحميـل كاهلـه بأعبـاء تدريسـية أعجزتـه عـن القيـام بـأدوار أخـرى لا تقـل أهميـة عـن الـدور التعليمـي.

كذلـك فـإن غيـاب دور الأسـرة، وتقاعسـها عـن القيـام بدورهـا فـي التنشـئة الاجتماعيـة وغـرس القيمـة النبيلـة فـي نفـوس أبنائهـا، والاتكاليـة التـي تجعـل بعـض الأمهـات يكتفيـن بالمربيـات والخادمـات فـي متابعـة الأبنـاء، هـو أحـد أوجـه الخلـل التـي يجـب جبرهـا.

فلـو أن هنـاك إصـراراً مـن جانـب الأم علـى التنشـئة الصحيحـة لأبنائهـا، فسـوف يسـاعدهم لا شـك فـي اختيـار الصحبـة الطيبـة التـي تتفـق ومـا نشـأ عليـه، «فمـن شـب علـى شـيء شـاب عليـه».

كمـا أنـه مـن الأهميـة بمـكان أن تضطلـع البيـوت بدورهـا فـي التعـرف إلـى رفقـاء الأبنـاء وصحبتهـم، سـواء فـي محيطهـم أو علـى صفحـات التواصـل الاجتماعـي «الفيسـبوك»، ومـا يجـري بينهـم مـن حـوارات فـي واقـع افتراضـي، بـات تأثيرهـا لا يقـل عـن التواصـل فـي الواقـع الفعلـي، وخاصـة أنهـا أكثـر خصوصيـة.

إننـي أقـول إن جمعيـة توعيـة الأحـداث ورعايتهـم، بقيامهـا بهـذه الحملـة قـد وضعـت يدهـا علـى مكمـن الـداء، وأرادت أن تعالـج المـرض مـن جـذوره، دون أن تلقـي بعـبء عـلاج العـرض علـى أجهـزة الشـرطة، وهـذه هـي البدايـة الصحيحـة.

حقوق الطفل خط أحمر

لجميع الأطفال دون تمييز الحق في حياة آمنة، وبيئة مستقرة، ورعاية دائمة، وحماية من أي مخاطر أو انتهاكات، كما أن مصلحة الطفل لا بد أن تكون مقدمة على أي مصلحة، وحاجاته الأساسية وحقوقه هي واجب، علينا جميعاً التعاون لتحقيقها.. بهذه الملامح الجلية سطر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، صفحة جديدة في مسيرة الخير والشرف لهذا الوطن، خلال ترؤس سموه جلسة مجلس الوزراء التي تم خلالها اعتماد إصدار مشروع قانون اتحادي في شأن حقوق الطفل.

وأود أن أتوقف عند بعض ملامح هذا التصريح الذي صدر من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، لنكتشف ملامح المجتمع الإماراتي التي ربما لا يعرف حقيقتها الجالسون على مقاعد برلمان الاتحاد الأوروبي.

ماذا يعني أن تربي قيادة سياسية أبناءها وتنشئهم على أن لهم حقوقاً مصانة بقانون، وأن النيل منها أو انتقاصها خط أحمر؟ وكيف هو حال الطفل ـ وهو رجل المستقبل ـ الذي تمضي به سنوات عمره وقد تربى على أن له حقوقاً منذ

أن رأت عيناه نور الدنيا، هل يقبل بعد ذلك التنازل عنها؟ إن مجتمعاً ينشئ أجياله، منذ نعومة أظفارهم، على أن لهم حقوقاً غير مسموح تجاوزها، هو مجتمع يحترم الإنسان ويصون كرامته ويجعله حراً منذ صغره، ولا يمكن لمن تربى على أن يكون كريماً محمياً يسمو بإنسانيته التي كرمه الله بها، أن يقبل غير ذلك في كبره، فمن شب على شيء شاب عليه، بل إنه لن يقبل ذلك على الإنسان كونه إنساناً.

لذا فإن هذا الإعلان من جانب صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، يحمل، إلى جانب مضمونه القانوني، مضموناً تربوياً لا يقل في تأثيره عن فحواه.

لذا فإننا لا نستغرب أبداً حين يفتح غيرنا أفواههم من الدهشة، عندما ترسل القيادة السياسية في أعلى مستوياتها طائرة خاصة لمن تلم به ملمة، لحمله سالماً إلى وطنه عندما تضيق به السبل، أو تتابع حادث سير لمواطن خارج حدود وطنه أينما كان، لتطبيبه إلى أن يعود إلى وطنه فيلقى كل الرعاية والعناية.

ثم ماذا يعني أن يتم التوجيه بإعادة تسمية القانون المقترح باسم الطفلة «وديمة» ذات الثماني سنوات، والتي قتلت على يد والدها، ودفنها في الصحراء، فاهتز لها ضمير كل إنسان في الإمارات، واستنفرت القيادة كل الأجهزة الرسمية، وتبنت شقيقتها وكفلتها بالرعاية؟! ذلك يعني أن «وديمة» عنوان لحالة لم يعتد شعب الإمارات مثلها، في الوقت الذي تقع في بلاد أخرى شرقاً وغرباً جرائم أكثر بشاعة من تلك الجريمة، دون أن يهتز لأحد جفن لأنهم اعتادوها.

كما أن التوجيه بإصدار القانون باسم «وديمة» يخلد تلك الحالة في الضمير الإنساني، في الوقت الذي يطمس فيه غيرنا ذلك، وليتردد اسمها عند كل حادثة وفي ساحات القضاء، ويستشهد به المحامون، وليظل رمزاً للحرية والكرامة، والحفاظ على الطفل وصيانة حقوقه.

وفي تقديري أن صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، عندما قال: إن حقوق الأطفال خط أحمر لم يقصر ذلك على مجال بعينه، ولكنه توجيه رسمي لكافة المؤسسات، سواء التعليمية أو التربوية أو الاجتماعية وغيرها، كما أن إنشاء وحدات لحماية الطفل تتمتع بالضبطية القضائية وتمكن من التدخل الوقائي والعلاجي، يؤكد عدم التهاون في انتقاص حقوق الأطفال أو المساس بها.

ورغم أن حقوق الإنسان في أوطاننا، سواء كان رجلاً أو شاباً أو طفلاً، مصانة وموثقة قبل أن يعرفها الكثير من أرجاء الدنيا، بفعل ثقافتنا وحضارتنا وناموس حياتنا ومسلكنا وقيمنا وتربيتنا، وانطلاقاً من قيم الإسلام العظيمة، إلا أن تأطير تلك الحقوق في بنود قانونية من شأنه إرساء تكريس قيمة القانون ودولة القانون التي تهذب السلوك وتوضح لكل صاحب حق الطريق الصحيح الواجب اتباعه للحصول على حقه، وتلك قيمة كبيرة لتحقيق الأمن والعدالة المجتمعية.

لذلك فإن فوز الإمارات بعضوية مجلس حقوق الإنسان للسنوات الثلاث المقبلة، وحصولها على ١٨٤ صوتاً، والتي شكلت أعلى نسبة تصويت من تلك التي حصلت عليها مجموعة الدول الأربع الأخرى الآسيوية الفائزة بالعضوية، وأيضاً ثاني أعلى صوت على مجموعة الدول الثماني عشرة الفائزة بعضوية المجلس في دورته الجديدة التي ستبدأ اعتباراً من مطلع العام المقبل، لم يكن محض مصادفة، بل كان تعبيراً عن واقع معاش وحالة قائمة، وعن قناعة المجتمع الدولي بأن ما حدث من إنجازات في مجال حقوق الطفل والمرأة وتعزيز حقوق المواطن والعمال، تستحق به الإمارات أن يكون لها مقعد في هذا المجلس عن جدارة واستحقاق.

وفضلاً عن ذلك، فإن العلاقة بين المواطن والقيادة في دولتنا، هي نموذج من التواصل المباشر الذي تتم من خلاله معرفة الأوضاع التي يعيشونها،

وتلمس طموحاتهم إلى حياة كريمة، ومعرفة أوضاعهم المعيشية، ومشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم، وهو ما يمثل رداً بليغاً، ليس من أبناء الإمارات، وهم أصحاب الشأن فحسب، بل من المجتمع الدولي كله، على ادعاءات البرلمان الأوروبي بشأن انتهاكات حقوق الإنسان في الإمارات التي قطعت فيها دولتنا شوطاً يفوق الكثير من الدول التي تتشدق بهذه القضية.

ولذلك جاءت تلك الادعاءات صادمة لكل المنصفين من المحللين والخبراء بشأن حقوق الإنسان، سواء داخل الإمارات أو خارجها، كما جاءت منافية للكثير من المؤشرات الدقيقة والدارسات التي خرجت من معاهدهم ومراكز دراساتهم عن أحوال المواطن في دولتنا، والتي لا نحتاج فيها إلى شهادات من الغير، لأننا الأصدق أنباء وأحوالاً من التقارير وهوى الغير ومآربهم.

إن الإمارات، وهي تسير بخطى واثقة وثابته ومتلاحقة في مجال صيانة حقوق الإنسان بصفة عامة والطفل بصفة خاصة، لا تميز في ذلك بين وافد ومقيم، ولكن مظلتها تتسع ليحتمي بها الجميع مهما اختلفت اللغات والثقافات والأجناس، وهو ما أكدته الدراسات الموثقة الصادرة عن المعاهد العلمية التي أقرت بأن دولتنا هي الأكثر جذباً واستقطاباً لمختلف الشعوب التي لا تجد غير الاحترام والرعاية والحماية للإنسان كونه إنساناً، دون أي اعتبارات، وتؤكد أن حقوق الطفل خط أحمر.

الشباب يصنع منبره

عندما تتحدث عن الشباب فأنت لا شك تتحدث عن المستقبل، وإذا أردت أن تدرك حال أي أمة فيما هو آت، ما عليك إلا أن تستكشف كيف هو حال شبابها، وما يشغلهم، وطريقة التعامل معهم، والنظرة إليهم من المجتمع ومدى تقديرهم.

ولا يقتصر ذلك على المستقبل فحسب، بل ينطبق على الحاضر كذلك، فبعد أن كانت ثروات الأمم تقاس بما تملكه من موارد طبيعية، أصبحت تقاس بما تملكه من قدرات بشرية تستطيع أن تغير واقعها، وهو ما جعل اليابان الدولة الفقيرة بما تملكه من موارد، دولة غنية بالعنصر البشري، تحتل المركز الثاني كأكبر قوة اقتصادية في العالم.

ومن دون شك فإن نادي دبي للصحافة، منذ نشأته عام ١٩٩٩، أصبح مركزاً للتنوير والتفاعل والاشتباك المحمود مع قضايا المجتمع المحلي والإقليمي والدولي، بصدق وفاعلية، ومنصة إعلامية مهمة تجاوزت بأدائها حالة التناول الرسمي للقضايا المطروحة، بثقة كبيرة وقوة دفع من القيادة السياسية الرشيدة، التي آمنت بحق بحرية تناول القضايا مهما كانت حساسيتها، واستكشاف جوانبها برؤية وطنية أفضل مائة مرة من أن يتناولها غيرنا ويلبس علينا الحق بالباطل.

وهو ما جعل انعقاد منتدى دبي للإعلام العربي مناسبة ينتظرها الإعلاميون والأكاديميون والمهنيون والدارسون، من مختلف المدارس الإعلامية شرقاً وغرباً، لهذه الحالة الخاصة التي تطرح فيها القضايا وتناقش بموضوعية ومهنية، من خلال فتح آفاق واسعة للحوار والنقاش العميق، وتبادل الأفكار حول قضايا الإعلام في المنطقة والعالم.

لذا فقد استقطب هذا الحدث خلال مسيرته، نخبة من أبرز الشخصيات الصحافية والإعلامية والمسؤولين الحكوميين، من الدول العربية والعالم، عبر الحوار الثري والانفتاح على كافة الأفكار.

ولأن الأمر كذلك فقد أدرك نادي دبي للصحافة في منتداه السنوي، أهمية أن يكون للشباب دور مهم في إعداده وتنظيمه، وهو ما عبر عنه في الدورة السابقة ضيف المنتدى عالم الفضاء الدكتور فاروق الباز، حين أكد أن حيوية المنتدى تأتي من الوجوه الشابة التي تتحمل مسؤولية التنظيم. ولكن الأمر لم يتوقف عند إشراك الشباب في الإعداد والتنظيم فحسب، ولكن رؤاهم وقضاياهم كانت حاضرة كذلك، من خلال جلسة خاصة يقدمون خلالها أفكارهم ونظرتهم لوسائل الإعلام وموقعهم منها، بل ونظرة الإعلام إليهم وتناوله لقضاياهم.

جرى ذلك على مدار دورتين سابقتين، ولكن ما أسعدني في الإعداد للدورة الثانية عشرة، والتي لم تعقد بعد، أن الاهتمام بإشراك الشباب أصبح أكثر فاعلية، حين يقوم وفد من الشباب العاملين في نادي دبي للصحافة بزيارة لطلبة الإعلام في مختلف جامعات الدولة، والاستماع إليهم ودعوتهم للاشتراك في فعاليات المنتدى في جلسة بعنوان «الشباب يصنع منبره»، لحث الشباب على التقدم بأفكارهم ضمن مجموعات عمل تتنافس فيما بينها، لإعداد ورشة عمل رئيسة يتحدث فيها الشباب أمام كافة المشاركين، والتي تعد فرصة لإشراك الطلبة

ودمجهم في أكبر تجمع للإعلاميين في الوطن العربي، والاحتكاك بالواقع الإعلامي بشكل مباشر، بعيداً عن قاعات المحاضرات.

ولقد استوقفني ذلك العرض الرشيق والمقنع من وفد نادي دبي للصحافة في لقائهم مع طلبة الإعلام في جامعة عجمان، والذي أجابوا فيه على العديد من التساؤلات بصدق وموضوعية. ومصدر سعادتي بهذا اللقاء، هو أن القائمين على منتدى دبي حينما أرادوا أن يخاطبوا الشباب، جاؤوا بنظرائهم الذين يتحدثون بلغتهم وفي نفس أعمارهم، دون أن يتم اختيار الموضوعات بشكل فوقي وفرضها دون محاورة أصحاب الشأن المعنيين.

وهذا من أهم نجاحات أي حوار، فنحن دائماً أكثر تصديقاً واقتناعاً بمن يشبهوننا، وهو النهج الذي طالما نادت به القيادة السياسية من ضرورة صناعة الصف الثاني من القادة والمسؤولين، ولن يتم ذلك دون تدريبهم ودفعهم إلى تحمل المسؤولية ومنحهم الثقة، وهو يعكس في الوقت ذاته حرص دولتنا على أن يكون الشباب حاضراً في المشهد بقوة وفاعلية وبمشاركة فاعلة، وألا يتحدث أحد باسمهم، فهم وحدهم يصنعون منابرهم بأفكارهم التي تفاجئنا بالجديد دائماً، وبوسائلهم وأدواتهم الاتصالية التي صنعت منهم فاعلين في كثير من الأحداث وليسوا مجرد متلقين، وهذا يتطلب إيجاد القنوات الصحيحة لتفجير ذلك الإبداع دون الميل به عن جادة الصواب.

إن «الشباب يصنع منبره» هو عنوان كبير ومهم، يجب ألا أن نقصره على ما سيقوم به نادي دبي للصحافة في منتداه في دورته الثانية عشرة، ولكنها الدعوة التي يجب أن يتم تفعيلها في كافة مؤسساتنا، ومفادها أن نفتح المجال للطاقات الشابة لتعبر عن نفسها وأفكارها في كافة المجالات، وهو ما تحرص عليه قيادتنا وتنادي به وتدفع إليه دفعاً، ولكن هناك البعض من

المسؤولين، ممن تكلست أفكارهم وعجزت قدراتهم عن الوفاء بمتطلبات العصر، يخشون على أنفسهم من الطاقات الشابة ويحولون بينها وبين الجلوس في مقدمة المشهد.

وفي تقديري أن نادي دبي للصحافة بإشراكه للشباب، يضخ دماء جديدة في جسد المنتدى فيحافظ على حيويته ويبتعد به عن النمطية، أو أن يتحول إلى ساحة فلسفية قاصرة على فئة من نجوم الإعلام في العالم، إلى منصة لإطلاق طاقات الشباب وتسليط الضوء على أفكارهم وما بداخل أدمغتهم، وهي ذات الفرصة للكشف عن المبدعين وانتقاء القيادات الشابة وتأهيلها وصقل خبراتها، وبذلك يتعاظم الدور وتعم الفائدة.

وبدلاً من أن يصبح الشباب ضيوف المنتدى، أصبحوا فاعلين من خلال المشاركة في التنظيم، بما يعظم الانتماء للوطن والمشاركة بالفكر، بحيث يتحول الانتماء إلى ولاء، لأنهم جزء من صناعة الحدث شكلاً ومضموناً، من خلال طرح أفكار تغيب عن كثير من المحللين والخبراء.

وآية ذلك أن جائزة الصحافة العربية والتي أصبحت بمثابة أوسكار الصحافة العربية، تذهب في أغلبها للشباب الصحافيين بما يقدمون من أفكار جديدة فكراً ومعالجة.

إن هذا العنوان يجب أن يتحول إلى حالة نكرسها، وهي أن نطلق لأصحاب الأفكار من الشباب الفرصة للتعبير عن أفكارهم، وذلك في الفن والأدب والبحث العلمي، خاصة وأن الوطن غني بهؤلاء، ولكن يتطلب ذلك أن ننقب عنهم ونمد لهم يد العون، عبر ذات الطريقة التي لجأ إليها نادي دبي للصحافة.

اتحاد بلغ أشُدّه

تجاوزت تجربتنا الاتحادية الأربعين عاماً، وهي لم تزل المعين الذي ننهل من فيضه الدروس والعبر، التي تحكي مسيرة الكفاح وقصة النجاح، التي اختص الله لها رجالاً أخلصوا لشعوبهم بعيداً عن المجد الشخصي، فاجتمعت إرادتهم لتكون إرادة واحدة، هي إرادة الاتحاد، وتناسوا أمجادهم الشخصية، فذابت ذواتهم واجتمعت قلوبهم على قلب رجل واحد، والتأمت نفوسهم وتوافق هواهم مع واقع يتطلب منهم اتخاذ قرارات مصيرية تغير وجه الأرض.

كيف لا والاتحاد وهب لنا دولة لها مكان ومكانة بين الأمم؟ لذا ففي تقديري أن قصة الاتحاد هي مدرسة الحكمة التي نستلهم منها العبرة ونتعلم منها جسارة الرجال وكيف تكون القيادة، لنقصها على أبنائنا، سيرة رجال أحبوا شعبهم فبادلهم حباً بحب، وأخلصوا لوطنهم فوهب لهم قيادة حقيقية، وخلد ذكراهم بحروف من نور في مسيرته الظافرة، لذا فإنه بالنظر بإمعان في قصة الاتحاد نجد هناك ملامح أساسية لا يجب أن نمر عليها مرور الكرام.

أولاً: أن من الحكم الخالدة التي يجب أن ننظر إليها في اتحاد دولتنا، أنه

قام في النفوس قبل أن يتم على الأرض، بما يعني أنه لم يفرض بمنطق القوة ولكن بقوة المنطق التي أدركها المؤسسون، أي أنهم أقاموا دولة الاتحاد في نفوسهم ونفوس إخوانهم فكانت على أرضهم، وهذا البناء الذي تم في النفس قبل الأرض، هو الذي أعطى – وسيظل بإذن الله – أسباب الحياة التي سطرت حكمة خالدة. وأرجو أن يسمح لي القارئ العزيز، أن ألخص مفرداتها في هذه الجملة «أقيموا دولة الاتحاد في نفوسكم تكن على أرضكم»، لأن الاتحاد الذي يفتقر إلى قناعة من أبنائه تملأ العقل والقلب وتختلط بالعظم واللحم لا يمكن له أن يعيش طويلاً، والشواهد من حولنا كثيرة.

ثانياً: أن اتحاد دولتنا لم يفرض بقرارات فوقية بين حكام الإمارات، ولكن جاء تعبيراً عن رغبة متجذرة في نفوس أبناء الإمارات المتصالحة، وهذا هو سر قوة اتحادنا الذي لم يكن أكثر الناس تفاؤلاً يظن أنه سيصمد في ظل تحديات كبيرة يصعب حصرها. إن فشل كل التجارب الاتحادية في عالمنا العربي، كان مرجعه أنها كانت اتحادات بين حكومات ولم تكن بين شعوب، والفارق بينهما كبير؛ لأن الشعب الذي أراد الاتحاد هو الحارس والضامن له، وهو من يحافظ على مكتسباته ويتصدى لكل مغرض يود العبث بمقدراته.

ثالثاً: إن من ينظر إلى مسيرة الاتحاد الخالدة يدرك أنها قصة التحول من الحلم إلى الحقيقة، قصة الإرادة التي تستطيع أن ترى طاقة النور في أكثر الطرق ظلمة، وترى أسباب النجاح من بين ركام التراجع، وترى أسباب النهضة من بين أصعب التحديات، وترى مستقبلاً زاهراً من بين واقع قاسٍ وشحيح، قصة القيادة التي حلمت فاستطاعت أن تحول حلمها إلى واقع قوي، القيادة التي تمتلك رؤية تؤطرها الحكمة والبذل. هذه المسيرة، التي بدأها خير سلف وسار على دربها خير خلف، تؤكد كل يوم أن ليس هناك شيء مستحيل، وأن المستحيل يصنعه المرتجفون والمترددون ومن يرتضون الدنية لشعوبهم، ليبرروا لأنفسهم ولشعوبهم أسباب فشلهم.

رابعاً: أن الناظر بعين فاحصة منصفة إلى المسيرة الظافرة لاتحاد دولتنا، يرى أنها لم تتوقف عند قيام الاتحاد وفقط، انعكاساً لحالة وطنية اشتعلت جذوتها في فترة زمنية محددة لتخبو بمجرد أن تتم ويعلن عن قيام دولة الاتحاد، ولكن عظمة هذا الاتحاد تأتي من أنه لم يقم دولة وفقط، بل أراد دولة بمقاييس عصرية. لذا فما قاله: الأخلاء المغفور لهم بإذن الله زايد وصحبه، من أننا اليوم وضعنا الأساس ونستطيع أن نبني الجدار، تحقق بالفعل، لأن الأساس بني على المحبة والتجرد والإخلاص وحب الوطن، وكان البناء قوياً متيناً استطاع أن يقف في وجه التحديات والعواصف والتقلبات المحيطة.

لذا فإن مصدر فخرنا بتجربتنا، هو تلك الحالة من الاستنفار التي تشهدها بلادنا، والتي تخطو فيها كل يوم خطوات بل وثبات إلى الأمام في شتى مجالات التنمية، فاستطاعت أن تواكب عصرها، إلا أنها في ذات الوقت ما زالت محتفظة بتراثها وأصالتها العربية، بل إن تجربة بلادنا في مجال التنمية، سواء البشرية أو المادية، غيرت من ثوابت نظريات التنمية والمراحل التي يجب أن تمر بها الشعوب في سبيلها، لأنها بدأت من حيث انتهى الآخرون.

ولا شك أن ما حققته دولتنا بالقيادة الحكيمة، وارتقت به إلى مصاف الدول العصرية، وما تحقق من إنجازات في مختلف مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، أهلها لأن تحتل مكانة مرموقة على الصعيدين المحلي والدولي، لتؤكد أنه اتحاد بلغ أشده.

للاقتصاد الإسلامي عاصمة

إن القائد الحق يغتنم الفرصة عندما يراها، وإن لم تكن فإن عليه أن يكون مستعداً لصنعها، بهذا التوصيف والتحديد الدقيق يكون الدور الذي ينبغي أن تضطلع به القيادة في توجيه البوصلة وتحديد الهدف ثم تعبئة الطاقات وحفز الهمم للوصول إلى الغاية.

ومسيرة التاريخ تخبرنا أن نهضة الشعوب في العالم شرقه وغربه، قامت على أفكار قادة غيروا وجه الأرض.

ولأن دبي دائماً لا تقبل بغير التميز بديلاً وبغير المركز الأول مكاناً، لإيمان قيادتها بأن التاريخ لا يعرف غير أصحاب المراكز الأولى، متسائلة من يعرف اسم ثاني شخص هبط على القمر أو تسلق قمة إيفرست؟ والحصان الثاني لا يعرفه أحد، وعليه لا بد أن نكون في المقدمة، ثم نريد أن نحقق المهمة الأصعب ونظل في المقدمة.

لذا كان إعلان صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم «دبي عاصمة للاقتصاد الإسلامي»، تعبيراً عن قراءة جلية لواقع مفاده أن منتجات الاقتصاد الإسلامي تقدر بنحو 2.3 تريليون دولار، ومع وجود ما يقارب 1.6 مليار مسلم

حول العالم، بالتزامن مع تغيير خريطة التأثير الاقتصادي العالمي نحو الشرق ودول البريكس، فإن هذا الاقتصاد يمثل قطاعاً واعداً لا يمكن إغفاله للدول الرائدة اقتصادياً، كما تعتبر الخدمات المصرفية الإسلامية حالياً من أسرع القطاعات الاقتصادية نمواً في العالم، حيث من المتوقع أن يبلغ حجم هذا القطاع تريليون دولار في 2013، تديرها 300 مؤسسة مالية في أكثر من 75 دولة حول العالم، بميزانيات تبلغ قيمتها نحو 300 مليار دولار.

والشاهد أن لندن تعتبر مركزاً من مراكز البنوك الإسلامية، حيث توجد بنوك تلتزم بالضوابط الإسلامية في الاستثمارات، وزادت هذه البنوك في 2012 بأكثر من ٪30. والحق أن هذه المبادرة، التي أطلقها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم وما سبقها من مبادرات، تأتي في السياق الطبيعي لرؤيته، وتعبر بشكل جلي عن كيف أن الفكر الحي لا ينحسر بين دفتي كتاب، ولكن قيمته حين تتحول الرؤية إلى واقع، فرؤية لا تقبل التطبيق هي فلسفة عقلية قاصرة، وواقع لا يقوم على رؤية تتعامل مع الأحداث يوماً بيوم، غير جائز عند قيادة الشعوب وراسمي مستقبل الأوطان.

لذا كانت رؤية صاحب السمو واضحة جلية، حين قال: «إن القائد يرى في المستقبل ما لا يراه الآخرون، من التطلع إلى الأمام واستشعار الاتجاهات المستقبلية وتوقع الأحداث وإعداد الناس لها».

إننا عندما نتحدث عن الفكر الإبداعي الذي تنطلق منه رؤية الإمارات، فليس هذا محض دفقات وطنية، لكنه يستند إلى واقع له جذور ممتدة لسنوات خلت، والشاهد أن دبي كانت سباقة نحو الأخذ بالاقتصاد الإسلامي، بتأسيس أول مصرف وسوق مالي إسلامي على مستوى العالم في فترة مبكرة، وما قام به الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم في هذا المجال، يؤكد إدراكه المبكر لأهمية دور الاقتصاد الإسلامي في تجنيب العالم كثيراً من الأزمات التي سيتعرض لها.

وفي تقرير مصور عرضه التليفزيون الألماني، يقول «سيمون بولي»، وهو من أبرز رجال البنوك في بريطانيا: «لدي اعتقاد جازم بأن فكرة البنوك الإسلامية سيطبقها العالم قريباً لا محالة»، بل وفي قلب الفاتيكان أعلنت صحيفة «سرفاتورو رومانو»، الناطقة باسم البابا، أنه يجب أن تلتزم البنوك في المستقبل بالقوانين الإسلامية في المعاملات المالية.

كما أكدت خبيرة الاقتصاد «لوريتا نابوليني» من أمام بنك «هالي فاكس» في شارع هاي ستريت في لندن، والذي كاد أن يفلس من جراء الأزمة الاقتصادية، قالت: «إنه كان يمكن تفادي هذا كله لو التزمت البنوك ببعض المبادئ الأخلاقية التي تنادي بها الصيرفة الإسلامية»، كما أنها قارنت بين النظام الغربي المالي والنظام الإسلامي، وتوصلت إلى أن النظام المالي في البنوك الإسلامية خسائره محدودة، لأن هناك ضوابط تحكم طبيعة الاستثمار، وضوابط في حدود المخاطرة، كما أنه يقوم على وجود طرفين يدخلان معاً في شراكة ويتحملان معاً المخاطرة، وهو عكس النظام المصرفي الغربي.

وإذا كانت هناك مراكز متعددة للاقتصاد الإسلامي في العالم شرقاً وغرباً، فإن دبي عندما تبادر لن تقبل بغير أن تكون عاصمة له، ولم لا؟ وما تتمتع به إمارة دبي بوجه خاص من اقتصاد حر مرن ومفتوح، قادر على استيعاب المتغيرات وفتح آفاق جديدة ورحبة باستمرار، وتنوع اقتصادها وما تمتلكه من بنية تحتية وتقنية ولوجستية، يؤهلها لأن تستوعب إضافة قطاع الاقتصاد الإسلامي إلى باقة القطاعات الاقتصادية الفاعلة في الإمارة.

ولا شك أن ما أعلنه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد من متابعة للمبادرات السابقة، يعكس حرصاً شديداً على أن تؤتي ثمارها، وأنها ليست مبادرات احتفالية، بل هي فكر يطبق على أرض الواقع ويغيره، وهذه المتابعة من سموه سوف تكون المفتاح الذي يذلل أي عوائق تقف في طريق تحقيق أهدافها المرجوة.

وهنا تأتي القيمة التي تؤطر المبادرات، ليس فقط حين تتبناها وترعاها القيادة السياسية، فما بالك حين تكون هي مصدر هذه المبادرة وصاحبتها لتأخذ مصداقية كبيرة، كما أنها تعبر عن توجه وسياسة حكومة، وهنا تخرج المبادرة من إطارها المحلي لتنطلق إلى الإطار الإقليمي والعالمي.

وفي تقديري أن إعلان دبي عاصمة للاقتصاد الإسلامي، على ما به من فرص اقتصادية متعاظمة، مستندة إلى دلائل ومؤشرات اقتصادية خالصة، إلا أنها بجانب هذا تقوم بدور ثقافي تجاه أمتها، عبر تقديم نظرة الاقتصاد الإسلامي وقدرته على التحدي والإنجاز من بين مختلف المدارس الاقتصادية، عبر شهادات واقعية، والواقع دائماً خير شاهد، ولا شك أنها ستنجح في ذلك نجاحاً سيكون بمثابة انطلاقة جديدة للاقتصاد الإسلامي في مختلف بلدان العالم، كيف لا ودبي دائماً محط أنظار العالم، ومن لا يعرف عليه أن يرجع إلى الوراء أياماً قلائل، يوم أن كان ما يزيد على مليار من مختلف الأجناس والملل يتابعون إطلالة اليوم الأول من عام 2013 وأعينهم على برج خليفة في دبي، التي ترى قيادتها أننا لا بد أن نفتح الأبواب ونخرج إلى الشمس.

وإذا كان العالم مليئاً بالتحديات، فعلينا أن نستيقظ مبكرين وأن نعدو أسرع من غيرنا، ويكفينا أننا أول من سيجعل للاقتصاد الإسلامي عاصمة.

القيادة بين غرس الأمل وتكريس الإحباط

إن الإحباط يتسلل إلى نفوس الشعوب كما يتسلل فيروس مرض خبيث، يحمله الجسم ويظل يقاومه لفترة متشبثاً بالرغبة في الحياة ويقاوم من أجلها، وعندما تضعف قدرة المقاومة عند غياب الأمل، لا تجد لهذا الفيروس مثيلاً في التوحش وفي سرعة الانتشار وقوة الفتك وتأبّيه عن مغادرة الجسم دون تدمير خلاياه، والأهم من ذلك أنك لا تعرف وجهته المقبلة ولا أي أجهزة الجسم سيهاجم. ولأن المسكنات لا تصلح في مقاومته، فلا يترك الجسم إلا عندما ينهار ويوشك على الموت، والسبيل الوحيد للشفاء منه، هو البناء الداخلي والقوة النفسية والأمل في غد أفضل.

وفي تقديري أن جانباً كبيراً من أسباب هياج الشارع في البلدان التي سارت في طريق بدأته، ولكن لا تعرف كيف تنهيه، يعود إلى أن هذه الشعوب أدار ساستها الأوطان بتكريس الإحباط، وأنه ليس هناك أفضل مما هم عليه، وعليهم ألا ينظروا أكثر من مرمى حجر، والأفضل ألا يفعلوا لأنه لن يتغير شيء في واقعهم أو مجريات حياتهم، وأن الحفاظ على ما هم فيه رغم قسوته، يعد هو الإنجاز الأكبر.

إن إشاعة هذا المناخ من التيئيس والإحباط، أقسى على الشعوب من كل أدوات

القمع والقهر، بل هو إحدى أدوات القهر الناعمة التي تفقد الإنسان ثقته في نفسه وأمله في غده، وتجعله عاجزاً غير قادر على الفكر أو الحركة، فتتكلس أفكاره وتنعدم إرادته.

في يقيني أن الشعوب قد تتحمل شظف العيش وقسوة الحياة وشح الموارد، وتتعامل مع كل ذلك أملاً في غد أفضل من خلال قيادة تستطيع أن تحلم مع شعبها بيوم جديد تهب لهم فيه الحياة واقعاً مختلفاً، وهل واقع اليوم غير أحلام الأمس؟ والقيادة غير القادرة على الحلم، تفقد الكثير من قدرتها على تحقيق طموح شعبها وتميز وطنها.

الحق أن هذه الأفكار جالت في خاطري وأنا أشاهد هذا الارتباك والتناحر والتطاحن والتجاذب والتشابك والاستقطاب، وكل ما شئت من كل الكلمات الدالة على الصدام بين أبناء الوطن في بلاد ما يسمى الربيع العربي الواحد، ثم ذهبت إلى سيرة بناء اتحاد دولتنا ونهج قيادتها الذي يمكن تلخيصه في جملة واحدة وهي «التبشير بغد أفضل»، منذ أن كانت فكرة في خيال المؤسسين. ومن يراقب ويحلل ما تقوم به قيادتنا، يجد أن العنوان الأكبر لنهجه هو بث الثقة في نفوس أبناء الوطن، وقدرتهم على التصدي لأصعب التحديات واجتياز أصعب المحن.

وهنا أود أن أقول إن الدارس لتحليل مضمون أحاديث وتغريدات ومقابلات قيادتنا سيكتشف، دون أدنى شك، أن السمة الغالبة عليها هي الثقة الشديدة في قدرات أبناء الوطن، والدفع بهم لتحمل المسؤولية وإشاعة روح التفاؤل لتخطي الأزمات، وأن المستحيل لا يوجد إلا في خيال العجزة وعديمي الإرادة، وهو التكأة التي يركن إليها كل متردد، كما أن سفينة الوطن لا مكان فيها للمرتجفين والمترددين، وأنه على قدر أهل العزم تأتي العزائم، وأن أصحاب الهمم الكبيرة يرون الصعاب مهما تعاظمت، ميداناً لصقل همم الرجال وتمايزهم، كالنار التي تصهر الذهب فينقى من الشوائب ليصبح أنقى عنصراً وأعلى قيمة.

ورغم أن العالم تعرض لأزمات اقتصادية عنيفة هزت أركان أكبر الكيانات العالمية، وما زالت لم تتعاف من تبعاتها بعد، إلا أن دبي وقفت صامدة برباطة جأش قيادة استطاعت أن توجه دفة سفينتها بين أمواج متلاطمة دون أن يفت ذلك في عضدها، وكان هذا ولم يزل مثار دهشة المحللين والمراقبين إقليمياً ودولياً.

والقيادة بزرع الثقة في النفس وإشاعة القدرة على مواجهة التحديات، هي أكبر ضمان لقوة الأوطان، وهي السبيل الأمثل لاستنهاض الهمم وتعبئة النفوس واستخراج أفضل ما في المواطن لخدمة وطنه، بل وأكثر من ذلك فإن الطاقات الإضافية داخل كل فرد، يقول عنها علماء النفس إنها أضعاف الطاقة الطبيعية له في الظروف العادية.

ولا شك أن القيادة بزرع الثقة والقدرة على الفعل أصعب بكثير من تكريس الإحباط، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، لأنها تتطلب القيام بعمل حقيقي على أرض الواقع، يستشعر المواطن نتائجه ويستفيد منها، كما أنه يتطلب دائماً طرح المبادرات واقتناص الفرص وقراءة الواقع واستشراف المستقبل، إضافة إلى وجود آليات تترجم تلك الحالة إلى خطة عمل يمكن اتباعها لنصل في النهاية إلى نقطة الوصول، وهي في الوقت ذاته نقطة انطلاق لمسيرة جديدة أكثر صعوبة تحتاج إلى الجهد والعرق، وكما تؤكد القيادة دائماً «إن طريق التميز ليس له خط نهاية».

لذا كان من الطبيعي وفقاً لهذا النهج، أن يصبح لدوائرنا الحكومية ومؤسساتنا الرسمية، بمختلف تخصصاتها، أزيز يشبه أزيز النحل في خلاياه، للعمل المستمر والتنافس فيما بينهم، في وطن أصبح التميز فيه منهاج حياة وظاهرة طبيعية، وبات من غير الطبيعي ألا تكون باحثاً عن التميز أو مسانداً له أو داعياً إليه أو مشاركاً فيه أو مكافئاً له وشاكراً لأصحابه، وكلما طفت بين الفضائيات العربية أو تقابلنا مع المعنيين بهموم أوطانهم، أجد أن الإمارات العربية في جوانب عدة، باتت النموذج الذي يدعو كل غيور على وطنه إلى محاكاته.

ولا شك أن ما حققه شباب الإمارات من إنجاز الفوز بكأس الخليج في نسختها الحادية والعشرين، هو عنوان لحالة عامة لا تقتصر على المنافسات الرياضية، ويأتي متسقاً مع نهج القيادة في الثقة بأبناء الوطن وغرس الأمل في نفوسهم ثم القدرة على النجاح.

وما هذا المنتخب إلا نتاج رؤية وإدارة وطنية خالصة، ومؤشر لمرحلة مقبلة يتحمل فيها كل مواطن مسؤوليته كاملة تجاه وطنه. وفي يقيني أن ما حققه منتخبنا الوطني سيجعل الكثير من المنتخبات الوطنية تعيد حساباتها في الاستعانة بالكفاءات من أبنائها، ليس في مجال الرياضة فحسب، بل في مجالات عدة، كما أنه إحدى ثمرات نهج القيادة بغرس الأمل والثقة بالنفس، والقدرة على تحقيق الإنجاز في زمن تحكم فيه شعوب عبر تكريس الإحباط.

طريق التميز يبدأ بفكرة

من المسلم به أن نشر ثقافة التميز هو البداية لكل المراحل التالية، لذا فقد تلقيت دعوة كريمة من العقيد خليفة بن دراي المدير التنفيذي لمؤسسة دبي لخدمات الإسعاف، لإلقاء محاضرة حول متطلبات التميز، في إطار الاستعداد لخوض معركة التميز، والتي أعتقد أنها معركة أصعب من المعارك التي تدور على جبهات القتال، لأنها معركة بناء وغيرها معركة هدم ودمار، والبناء أصعب بكثير من الهدم، فمعركة التميز هي معركة لترقية الحياة وتجويدها، وغيرها من المعارك تزهق الأرواح وتخرب مستقبل الأجيال لعقود.

ولقد اختارت الإمارات العربية أن تخوض المعركة الأصعب، وهي معركة البناء والسير في الطريق الأصعب، وهو طريق بناء الإنسان وتجويد الحياة، وهو جوهر التنمية وحقيقتها وغاية منتهاها.

واستوقفني في لقائي مع العاملين في المؤسسة، توافر إرادة حقيقية للسير في طريق التميز، فضلاً عن توافر بنية تكنولوجية تهيئ لدور أكثر فعالية، وهذا ما أكده المدير التنفيذي للمؤسسة خلال لقائي به، حينما ذكر أنه يسعى إلى إعداد

برنامج يؤهل شباب الوطن للعمل في مهنة الإسعاف، بحوافز مادية ومعنوية. وإذا كان التميز ضرورة في كافة المؤسسات، فإنه في هذه المؤسسة ضرورة حتمية لأنه مرتبط بحياة الإنسان.

كما أن الطريق إلى التميز يبدأ بفكرة خارج المعتاد والمألوف، لكنها في دائرة المقبول مجتمعياً. فالتميز يحدث من خلال إطار مجتمعي يتفاعل معه أخذاً وعطاء، ومنظومة قيمية ومرحلة حضارية يمر بها، فضلاً عن سلم الأولويات فيما يحتاج إليه واقع المجتمع، وهذا الذي يعطي للتميز خصوصية مجتمعية.

وكما أؤكد دائماً أن التجارب التحديثية في المجتمعات تختلف في أدواتها وسبلها وإن كان الهدف واحداً، كما لا يوجد نموذج يصلح للتطبيق على كافة المجتمعات.

كما أن أولى الخطوات في الطريق نحو التميز، تأتي من داخل الفرد وليس من خارجه، عندما يستشعر الرغبة في التجويد والإبداع فيما يوكل إليه فضلاً عن إيمانه بأهمية ذلك، إضافة إلى رؤية نتائج عمله بشكل ملموس على أرض الواقع، مما يعزز لديه الرغبة في استكمال السير في ذات الطريق وزيادة. لذا فإن تهيئة البيئة المساعدة لا تكفي بمفردها، ما لم تكن هناك دافعية من الفرد للاستفادة من هذه الأجواء المواتية، بل إن هذا الصدق في التوجه قد يعوض أي نقص في الأدوات المساعدة، وقد يكون سبباً في ابتكار أدوات جديدة، فالحاجة أم الاختراع.

وأعود هنا إلى كوريا، يوم أن كانت تتلمس طريقها للنهوض في خمسينيات القرن الماضي، لدولة هي الأفقر على مستوى العالم بمتوسط دخل 76 دولاراً للفرد، في الوقت الذي كان 170 دولاراً في الفلبين وقت ذاك، فقامت بإرسال مجموعة من الممرضات إلى ألمانيا للقيام بأشياء بسيطة، مثل مسح أجسام الموتى بمادة مطهرة، ضماناً للقرض الذي حصلت عليه. ولإعجابهم بالعمالة الكورية، قام الرئيس الألماني بدعوة الرئيس الكوري، وعند لقائهم برئيسهم

ضجت القاعة ببكاء شديد، للدرجة التي جعلت الرئيس الكوري يترك الخطاب المعد مسبقاً ويرتفع صوته باكياً: دعونا نعمل بجد لعدم بيع الأجيال القادمة بأي حال من الأحوال. واتجهوا إلى الرئيس الألماني بطريقتهم في التحية يبكون ويرددون «نرجوك ساعد بلادنا ورئيسنا»، فبكى الرئيس وأبكى الرئيس الألماني معه، لتبدأ من هنا رحلة كوريا نحو تحقيق المعجزة.

إن إيمان القيادة بأن طريق التميز هو الأجدر بالسير، وأن التميز ليس هو الغاية في حد ذاته ولكنه السبيل إلى تحقيق مقاصد الأوطان والانتصار في ميدان التنمية، هو الذي يجعل منه حالة عامة، وهذا هو الفرق بين أن تكون هناك إرادة سياسية لتحقيق التميز وبين أن تكون هناك حالات فردية، لا تخلو منها المجتمعات أياً كانت، ولكنها تظل عشوائية تفتقر إلى قوة الدفع والاستمرار وغير منهجية، وبالتالي تضعف قوة تأثيرها في تحقيق نقلة نوعية للمجتمع بكافة جوانبه.

فالعازف مهما كانت مهارته وجمال موسيقاه، لا يمكن أن يقدم عملاً فنياً متكاملاً ومبدعاً دون استكمال باقي أعضاء الفريق الموسيقي، ليعزف المقطوعة الموسيقية ويقوم كل عازف بدوره فيها، وهنا تأتي أهمية كل آلة موسيقية، وقد يسبب غياب أبسطها خللاً في جمال الاستماع إليها. كما أنه لا يمكن للاعب الكرة بمفرده أن يحقق بطولة لفريقه، مهما كانت مهاراته، دون معاونة بقية اللاعبين، كما أنه لا يمكن القول إن دور رأس الحربة في الفريق أهم من حارس المرمى، ولكن قوة الفريق وفاعليته تأتي من التناغم بين أعضائه، وهذا سر النجاح.

وهذا هو سر السعي الدائم للإمارات التي أصبح التميز حالة عامة فيها، لأن التميز كما أنه يبدأ بنقاط ضوء متفرقة إذا ما وجدت قوة دفع على الأرض تحولت إلى حالة عامة، أو ما يمكن أن نطلق عليه عدوى التميز، فكما أن السلوكيات

التي لا نحبها تنتقل بين الناس عبر المحاكاة والتقليد، كذلك التميز حالة تنتقل من فرد إلى آخر، وهذا جزء من تركيبة النفس البشرية، إنها تحب أن تثبت أنها موجودة وقادرة، وحتى على المستوى الأكاديمي ينشط البحث العلمي عندما تكون هناك منافسة بين الباحثين في بيئة مواتية، ويذبل حين يغيب النموذج الذي يحاكيه زملاؤه أو يتنافسون فيه.

ومن أهم محفزات التميز أن يكون هو ذاته معيار التمايز بين الناس، وهذا هو سر بناء الأمم الكبيرة عندما يقدّر الأشخاص بناء على ما يبذلونه من فكر وجهد، وعندما يدرك الفرد أن ترقيه وتفرده بين أقرانه، يتوقف على مقدار عطائه وما يضيفه من فكر وجهد نوعى، يعظّم من النتيجة النهائية.

وإذا لم يجد المتميزون والمبادرون من يصغى إليهم أو يهتم بأطروحاتهم، أصيب الكثير منهم بحالة من البيات الفكري الذي يجعل الفرد يبحث عن بيئة جاذبة تستنهض طاقاته، أما إذا وجد الفرد بيئة مواتية فإنه قد يستخرج من مكنون طاقاته الذهنية والبدنية ما لم يكن يعلمه هو نفسه، وهنا يتعاظم الدور الذي يجب أن تقوم به القيادة الإدارية الواعية، التي تمتلك الحاسة السادسة وبها تستطيع أن ترى التوهج العقلي في فرد دون آخر، فتساند وتدفع وتذلل العقبات، وتبلور الأفكار وتطورها بما يحدث تطوراً مجتمعياً شاملاً، لأن طريق التميز في الأصل يبدأ بفكرة.

القمة الحكومية..
دروس مستفـادة

هـل القيـادة علـم لـه أصولـه التـي تـدرس عبـر قاعـات العلـم والمراكـز المتخصصة، أم أنها هبة من الله سبحانه لرجال قدرهم أن يتحملوا مسؤولية بناء أوطان والسير بالركب في طرق ليست في الغالب ممهدة، وتحتاج إلى البذل الـذي يخلـد ذكراهـم فـي القلـوب قبـل صفحـات التاريـخ؟

ومـا التاريخ إلا تسطير لواقع عاشه النـاس ومـا أحكامه إلا ضمير الشعوب.. أم إن القيـادة تربيـة وإعـداد، ولهـا قانونهـا الـذي يجـب أن يلتـزم بـه القائـد أو مـن يؤهـل ليكـون قائـداً مـن المهـد إلـى اللحـد؟ وهـل هـي تربيـة تلقـن عبـر تعاليـم، أم أنهـا بالنمـوذج والقـدوة التـي تغنـي عـن كثيـر كلام، عمـلاً بالحكمـة التـي تقـول «سـلوك رجـل فـي ألـف رجـل خيـر مـن كلام ألـف رجـل فـي رجـل»؟ أم أن القيـادة فـن يحتـاج دائمـاً إلـى أفكـار خـارج الإطـار المعتـاد، فحيـث يتوقـف السياسـي والمـدرب والمتمـرس تأتـي الفكـرة التـي تحـل الكثيـر مـن المعضـلات.

كمـا النـار التي تطفـئ النيـران أو كمـا الطاقـة التـي تـدب فـي الجسـد ليسـتعيد طاقتـه ويسـتجمع قـواه؟ أم أن القيـادة هـي القـدرة علـى تحديـد الهـدف الكبيـر الـذي

يجمع طاقات أبناء الوطن الواحد، دون إقصاء أو تهميش، نحو المشروع الوطني الكبير؟ أم أنها خليط من ذلك كله؟!

الحق أن هذه التساؤلات جميعها دارت في خاطري وأنا أتابع القمة الحكومية التي قادها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، وأيقنت أن القيادة هي كل تلك الصفات مجتمعة؛ فهي الفن الذي له قواعد علمية، وهي التربية التي تصقلها القدرة على الرؤية، وهي النموذج الذي يحتذي بالسلوك قبل الكلام، وهي القدرة على التجميع لا التفريق، والتوحيد لا التشتيت، وهي البصيرة التي يختص بها الله من حمّلهم مصائر شعوب، ومن ائتمنتهم شعوبهم على قيادة السفينة.

إن القمة الحكومية التي عقدت على أرض الإمارات، لهي صفحة جديدة من صفحات التواصل بين القيادة وأبناء الوطن، فضلاً عن الذين يعيشون على هذه الأرض الطيبة، دون النظر إلى جنسياتهم. وهذا التواصل ليس جديداً، ولكنه نهج أصيل في الحكم توارثه الخلف عن السلف، ولكن الجديد هو تلك الحالة من التلقائية والبساطة والعمق ووضوح الرؤية وامتلاك أدوات تحقيقها، فضلاً عن الانفتاح على كافة الأفكار مع التمسك بثوابت غير قابلة للتغيير أو التبديل.

والمدقق فيما تفضل صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، بالتأكيد عليه، يستطيع أن يستخلص العديد من الدروس والعبر للحاضر والمستقبل، للقيادات الشابة التي حضرت اللقاء، ولأبناء الإمارات الذين تحلقوا حول الشاشات، فضلاً عن قطاع عريض من أبناء العروبة الذين ينظرون إلى الإمارات باعتبارها حالة فريدة في تجربتها التنموية تستحق التأمل، وهو ما جعلها محط أنظارهم ونموذجاً حضارياً يحتذى به.

أقول: إن هناك حزمة من الدروس المستخلصة من حديث صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، لكل قيادة ولكل مسؤول في وطننا، فضلاً عن الشباب الطامح للنجاح، وهم من سيحملون الراية مستقبلاً. ومن هذه الدروس:

1 ـ إن وظيفة الحكومة تسهيل حياة الناس وتحقيق السعادة للمجتمع، وهو ما خلصت إليه جميع النظريات التنموية، بأن التنمية الحقيقية، في أقوى وأكثر تعاريفها تحديداً، هي تجويد حياة الناس بما يحقق السعادة للمجتمع، بعيداً عن الأرقام والمعادلات والمؤشرات والمقاييس التي لا تعني المواطن العادي، ولا يعرف منها إلا الذي ينعكس على مجريات حياته اليومية، كما أن هذه الوظيفة تأتي لتضع الهدف الاستراتيجي للعمل الحكومي، بشكل جامع مانع في أوضح صورة وكلمات قليلة، لكنها تفصل في خطط ومبادرات تصل بها إلى «تحقيق السعادة للمجتمع». ولأن الأمر كذلك، لم يكن غريباً أن يعتبر تقرير دولي، صدر عن الأمم المتحدة بعنوان «تقرير السعادة العالمي»، شعب الإمارات الأكثر سعادة في العالم العربي، ويحتل المركز الـ17 في قائمة الشعوب الـ20 الأكثر سعادة في العالم، وذلك طبقاً لنتائج أول مسح دولي شامل عن السعادة تجريه الأمم المتحدة، متقدمة في الترتيب على بريطانيا (18) وأيسلندا (20).

2 ـ ليست هناك قيود لما يمكن لأي فرد أن ينجزه إلا القيود الذي يفرضها على تفكيره عبر التردد والخوف، وأنه لا بد من التعلم من الإخفاقات لكي نصنع الإنجازات، وأن فرص النجاح قائمة، ولكن قليل هم الذين يرونها، وأقل منهم الذين يستطيعون اتخاذ القرار، وهذا هو الذي يصنع الفرق.

3 ـ إن القادة دائماً يحددون مستويات عالية للأداء، والقائد الحق لا يقبل مطلقاً غير المراكز الأولى، ولا بد أن تحلم بالمستحيل، لا لكي تصل إلى الممكن ولكن لتجعل من المستحيل واقعاً تروى قصته لمن سيأتي بعدنا، حتى لا يرتضوا الدنية في دنياهم. وقصة بناء دولة الاتحاد وما تلاها، هي قصة المستحيل الذي تمكن منه قادة واجهوا التحديات حتى باتت مواجهة التحديات من هواياتهم، بل صار البحث عن التحدي والتغلب عليه

ديدنهم، وكلما زادت التحديات زادت صلابتهم، وكما أكد صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، أنه «من قلب المحن تخرج المنح».

4 ـ إن الفكر هو الأساس للانطلاق، وكلما فكرنا بطريقة أفضل، حققنا نتائج أفضل، والقائد الحقيقي هو من يجيد هذا التريض العقلي، وهو من يدفع من حوله للتفكير معه، وقدرته تتمثل في اقتناص الأفكار والدفع بها بقوة المنطق قبل السلطة، لتصبح واقعاً ينفع الناس بدلاً من أن تظل حبيسة في عقل صاحبها.

ولا شك أن ما أجاب به صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، من سأله من أين تأتي بأفكارك، لهو نهج للقيادة الحقة في تواضعها واحترامها للفكرة النيرة، سواء من مسؤول أو مواطن عادي أو وافد يعيش على هذه الأرض الطيبة، ما دامت غايتها صالح الوطن والمواطن، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسوة حسنة، حين نزل على رأي جندي مغمور من جيش المسلمين في غزوة بدر، وانتقل جيش بأكمله بعد البئر، بناء على فكرة طرحها جندي لم نعرف اسمه في السيرة، فكان النصر للمسلمين، وهكذا تكون القيادة.

5 ـ أهمية العمل كفريق واحد تحت رؤية موحدة، وهي الضمانة الكبرى للنجاح، وأن العمل بطريقة الجزر المنعزلة هو مضيعة للوقت وإهدار للجهد، وأن القيادة الحقيقية ليس من مهمتها تصيد الأخطاء، ولكن أن توجه وترشد وتتعلم من أخطائها، أما إذا كان الخطأ عن قصد أو إهمال وجبت المحاسبة.

وفي تقديري أن ما استعرضته القيادة في القمة الحكومية، كان محاطاً بروح الأبوة وتوجيه المعلم إلى أبنائه وإخوانه الحريص عليهم، فضلاً عن تبيان مسيرة نجاح وسيرة رجال عاش فيهم وطنهم قبل أن يعيشوا على أرضه.

حياة بلا قيم..
حياة بلا قيمة

إن قيم الشعوب لا تتكون بين عشية وضحاها، ولكن نتاج تاريخ طويل من الممارسة، فضلاً عن تربية من المهد إلى اللحد، كما أنها ما تعارف عليه السلف ونقله الخلف، ومن ثم فهي تعبر عن إرث ثقافي تحافظ عليه الشعوب، من شذ عنها شذ عن المجتمع وأصبح فيه مهملاً.

ثم إن القيم لا تفرض بقرارات فوقية، ولكنها تخرج من نبت الأرض الطيبة، يتمسك بها الإنسان لا خوفاً من العقاب بقدر ما هي جزء من تكوينه الفكري والسلوكي، وقد يبذل روحه راضياً دونها.

إن الحضارة الإنسانية قامت على الاختلاف والتمايز بين الشعوب، وهذا التمايز يغني البشرية جميعاً، ولا يجب ومن غير الممكن أن تفرض قيم واحدة وثابتة على كل الشعوب، أو مسخ الكل في واحد، لأن ذلك يعد بمثابة جريمة في حق الإنسانية، ولكن الأصل إذا ما كانت هناك رغبة في تجويد حياة الإنسان، بصرف النظر عن لونه وجنسه، أن يتم التعظيم من القيم الإيجابية بين الحضارات كافة، وأن تنبذ القيم السلبية.

لـذا استوقفتني نتائج استطلاع الـرأي، الـذي نظمـه مركـز رأيك التابـع لبرنامـج «وطنـي»، بالتعـاون مـع مركـز «باريـت» الدولـي للقيـم، الـذي تحظـى دراسـاته بمصداقيـة بحثيـة يعتـد بهـا، والتي أظهـرت أن مجتمـع الإمـارات يتمتـع بأعلـى نسـبة فـي العالـم لجهـة القيـم الاجتماعيـة والإنسـانية والأخلاقيـة والسـلام، التـي تسـوده بفضـل التلاحـم الوطنـي والانسـجام بيـن القيـادة والشـعب، فضـلاً عـن الحفـاظ علـى الأسـرة والديـن والثقافـة والعـادات والتقاليـد والعيـش الكريـم لـكل أبنـاء وبنـات المجتمع دون تمييـز، إضافـة إلـى تشـجيع الابتـكار والإبـداع والـولاء للوطـن، وطبـق هـذا الاسـتطلاع علـى عينـة تقـدر بأربعـة آلاف شـخص.

ولا عجـب، لأن الجانـب الأكبـر الـذي قامـت عليـه قصـة دولـة الاتحـاد هـو جانـب قيمـي، فقـد تجـد مـن الطبيعـي أن يرسـل رئيـس الدولـة طائـرة لنجـدة مواطـن فـي أي بقعـة كانـت، أو يتحـرك خمسـون رجـلاً لنجـدة طفـل فـي القاهـرة، أو فريـق يبحـث عـن مواطـن ضـل طريقـة فـي تايلنـد. ولا عجـب أن يسـتجيب القائـد لدعـوة طفلـة إلـى المدرسـة، أو الاسـتجابة لطلـب طفـل هنـا أو هنـاك.

ولأن الفضيلـة كل لا يتجـزأ، فـإن القيـم التـي تسـود المجتمـع الإماراتـي ليسـت منتجـاً ثقافيـاً يسـود بيـن أبنـاء الوطـن وفقـط، لكنهـا تتسـع لتشـمل كل مقيـم علـى أرض الإمـارات، بصـرف النظـر عـن الديـن أو اللـون أو الجنـس، فـي وطـن اتسـع للعالـم بأسـره، دون تمييـز أو انتقـاص مـن حقوقهـم أو التخلـي عنهـم.

لـذا فـإن ثقافـة التسـامح وقبـول الآخـر متأصلـة فـي ثقافـة أبنـاء الإمـارات، لذلـك لـم يكـن غريبـاً أن نـرى دمـوع العـرب وغيـر العـرب وهـم يبكـون الشـيخ زايـد، رحمـه اللـه، لأنـه مـن وضـع هـذه البـذرة الطيبـة فـي نفـوس أبنـاء شـعبه؛ مـن احتـرام الإنسـان كونـه إنسـاناً، وسـار علـى دربـه قيـادة الإمـارات.

وهـذه القيـم هـي التـي ينـدمـج فـي إطارهـا الوافـد إلـى أرض الإمـارات فيسـلك

سلوك أهلها، حتى باتت الإمارات مدرسة لصقل القيم، لا مجرد مكان يعيش فيه الوافد ليجمع المال وينتظر لحظة الخلاص والعودة. والأمثلة على ذلك كثيرة، يقص عليّ أحد الأصدقاء أنه قابل في بلده رجلاً عاد لتوه من الإمارات، فلمح في نبرة صوته شيئاً من الحزن، فأخبره أنه عمل في الإمارات ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً، وجمع من المال ما يجعله يحيا حياة كريمة، إلا أنه يقسم أنه قال له إنه يريد أن يأخذ ما ادخر من مال عبر جهد السنين وينفقه في الإمارات، حتى لو أقام دون عمل فيكفي أن يعيش على أرضها التي لم يشعر يوماً أنه انتقص من كرامته فيها.

إن هذا الإخاء الداخلي وهذه الحالة من صلابة الجبهة الداخلية لأبناء الوطن، عبر التلاحم الوطني والعروة المتينة، التي لن تنفك أو تضعف بإذن الله، هي القوة الحقيقية التي تحمي وطننا قبل أي سلاح، بل هي السلاح الماضي الذي يتحطم على صخرته كل من يكيد لهذا الوطن بليل أو يدبر له في الخفاء.

وأحد أهم جوانب التميز القيمي في الإمارات، أنها تخطت حدودها الوطنية لتنعكس على سلوك أبنائها وسياستها مع المجتمع الدولي؛ من نصرة الحق وإغاثة الملهوف، ولكونها تتعاطى مع كل شعوب الأرض، والشواهد أكثر من أن تذكر للدرجة التي تجعل من سائق التاكسي في دولة هنا أو هناك يتنازل عن أجره لمجرد أن يعرف أنك من الإمارات.

إن القيم هي الحافظ والحاضنة للتقدم، بل إن كثيراً من الحضارات التي قامت على بناء مادي، ما انهارت إلا لخواء في القيم التي يحيا الإنسان من أجلها، فضلاً عن كونها تعطي معنى حقيقياً للحياة.

وما الفائدة من أن تملك الأمم بنياناً مادياً وتفتقر إلى القيم! كما أنها تدخل السعادة على النفس وتسمو بالروح، وترقى بالإنسان للدرجة التي قد تجعله

يضحي بنفسه من أجلها. أليس حب الوطن والولاء لترابه قيمة عليا؟ والحياة التي تخلو من القيم هي حياة تعسة يحكمها قانون الغابة؛ القوي يأكل الضعيف، والبقاء فيها للأقوى. ورحم الله شوقي حين قال:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ❋ فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

في تقديري إن نتائج هذا الاستطلاع لم تكن لمجرد أن نفتخر بها، وهي لا شك محل فخر، ولكن لا بد أن يتم تفعيلها في شكل برامج عمل أمام الأجيال الشابة، ليحافظوا على هذا الإرث الحضاري الذي يفوق بمراحل الموروث المادي الذي لا قيمة له من دون قيم تحكمه، كما ينبغي تأطير هذه النتائج لتدعيم صورة وطننا إقليمياً ودولياً، وتعزيز مكانته ليعرف العالم أن الإمارات، كما تضم أعلى قمة في العالم، كذلك لدى المجتمع قيم تصون تلك المكتسبات الحضارية، لأن حياة بلا قيم هي حياة بلا قيمة.

من دفتر أحوال المتميزين

للحياة وجهان، وجه يحمل الخير للإنسان، ويفتح له آفاقاً رحبة من الانطلاق والانتقال من حال إلى حال أحسن إن أراد ذلك، ووجه آخر تتعثر فيه خطى الفرد إن تغافل عن الأخذ بأسباب النجاح، منتظراً أن يجني الحصاد دون غراس، وهو في ذلك واهم، لأن قانون الحياة ومنطقها يأبى العطاء بغير بذل.

ومع أن التجارب المتميزة تمثل دروساً تستوجب النظر، إلا أن ما يتعثر فيه الإنسان في مسيرته لا يخلو أيضاً من جوانب النجاح، فقد يحمل العطاء منعاً، وقد يحمل المنع عطاءً.

ولمزيد من التوضيح، أقول إن النجاح إذا لم تصاحبه طاقة مستمرة، وتطلع دائم إلى تحقيق المزيد، مع التواضع لذلك، وإذا أصيب صاحبه بالاسترخاء والاستعلاء، والإحساس بالاكتفاء وعدم الحاجة إلى جهد من حوله، هنا يحدث المنع، وسوف تكون رحلة الهبوط سريعة ومروعة.

وعلى الرغم من قسوة الفشل، إلا أن الحصيف من يستطيع أن يلملم أوراقه، ويستجمع طاقاته، ويجدد فكره، ويحدد هدفه بدقة، ويأخذ بأدوات

النجاح، ويعيد المحاولة، متجنباً ما انزلق إليه في المرحلة الأولى، ولا بأس في أن يتوقف ويبدأ من جديد، المهم ألا يصاب بالعجز ويمنى بالفشل، فيكف عن المحاولة.

ولأن طريق التميز طويل، ومليء بالمصاعب التي لا يقدر عليها إلا أولوا العزم من الرجال، وأصحاب الهمم العالية، لذلك حرصت قيادتنا السياسة دوماً على أن يكون التميز في دولتنا سياسة عامة، وتوجهاً للدولة بكافة طاقتها، لا أن يقتصر على حالات فردية رغم أهميتها، إلا أنها لا تقيم مشروعاً للنهضة أو تغير وجه الحياة.

لذلك بات من الطبيعي ضخ دماء جديدة في شرايين الوطن، وهو ما يحافظ على حيويته ونمائه؛ من هنا كان الدق المنتظم والمؤثر من القيادة السياسة على المؤهلات النفسية والقدرات الذاتية التي يجب أن يتحلى بها من يريد أن يسير في موكب المتميزين.

وأتوقف عند ما ذكره صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، في القمة الحكومية، من أن أكثر ما يحول بين من يتولى مسؤولية قيادية وبين تحقيق النجاح، هو ما يضعه الشخص لنفسه، ضارباً المثل بمن ينكر شروق الشمس، لا لأنها لم تشرق، ولكن لخوفه من إزاحة الستائر التي هي في الأصل معوقات الهمة ومثبطات التفكير.

والحق أن هذا القول يلخص بشكل واضح حالة المتردّين الذين حال خوفهم من الفشل دون مجرد المحاولة، مؤثرين السلامة ومكتفين بالسباحة في المناطق الدافئة، خوفاً من الدخول في تجربة لا تنجح فيندمون، رغم أنك إن تفعل شيئاً وتندم على فعله، أفضل من أن تندم لعدم فعل شيء، لأنك لا شك نلت شرف المحاولة، ويقيناً استفدت من تجربتك.

ولكن أن يتجمد الدم في عروقك وتصاب بحالة من تصلب الفكر، والخوف من المخاطر، فذلك يجعل الإنسان يسير في ذات المكان دون تقدم حقيقي. والمخاطر جزء من حياتنا، فحوادث سقوط الطائرات مروعة، ولكن من يرغب في سرعة الوصول إلى مبتغاه لا يجد دونها وسيلة.

كما أن الصحة النفسية تأتي كخطوة ضرورية لتحقيق الخطوة الأولى، وتعني أن ما يتخذه الفرد من قرارات يكون عبر التفكير وبمنطق، حتى لا يحير ويربك من حوله.

والثبات الانفعالي يساعد على العمل بفاعلية تحت الضغط، فقد يجد المسؤول نفسه في قلب الأزمة التي تتطلب وضوحاً في الرؤية واتخاذ القرار الصحيح في الوقت المحدد، لأن القرار الصحيح في الوقت الخطأ خطأ، وقد يزيد الأمور تعقيداً، ويرتبط بذلك التحلي بالشجاعة في تحمل المسؤولية، كقبطان السفينة الذي يمسك بدفة القيادة في أصعب اللحظات رابط الجأش، دون القفز منها مخلفاً وراءه من معه.

ولقد أنكر الرأي العام الأميركي على أحد مرشحي الرئاسة، لأنه كان أول من غادر منزله عندما تعرض لحريق، مخلفاً وراءه ابنته وزوجته دون أن يحاول إنقاذهما، فكيف به يقود شعباً؟ وكانت النتيجة أنه انسحب من السباق الرئاسي، لأنه لا يمتلك مؤهلات القائد.

ومن أحوال من صحبناهم، من أصحاب التميز، أنهم لا يقفون عاجزين أمام مواضع الخلل، ولكنهم يجبرون هذا الضعف بالتركيز على نقاط القوة والبناء عليها؛ وهذا هو التفكير الإيجابي، فضلاً عن مواجهة المشكلات فوراً مهما كانت، دون تأجيلها.

فالتراخي في مواجهة المشكلة أو سوء تقديرها، قد يحولها إلى أزمة، ما

يزيد من تداعياتها وصعوبة التعامل معها وسبل الخروج منها، وهذا يتطلب من المسؤول أن يكون محدداً واضحاً، والتأكد من أن العاملين معه يعرفون المهام المطلوبة منهم، والهدف المطلوب تحقيقه بدقة، حتى يمكنه التقييم.

وفي تقديري أن القيادة الإدارية المتميزة، هي التي تستطيع أن تنتقي أصحاب الكفاءات، القادرين على تنفيذ رؤيتها ووضعهم في المكان المناسب؛ ومن الممكن أن نذهب إلى أبعد من هذا، حين نقول إن التميز الحقيقي هو في تحقيق نجاحات كبيرة مع أشخاص عاديين.

وهنا تأتي أهمية الصفات القيادية الفطرية والمكتسبة، والتي تتضح من خلال القدرة على تحليل معطيات الواقع، ومعرفة كيف يكون اقتناص الفرص المواتية للنجاح، بعزم قوي وإرادة لا تعرف التردد، وشجاعة في غير تهور، وثقة في غير غرور.

القائد الإداري المتميز هو القادر على ابتكار أفكار جديدة، ويعلم أن قيمة الأفكار تأتي من القدرة على تطبيقها، وفي مرحلة التطبيق لا يجب التسامح أو الرضا بالأداء المتوسط، ولكن عليه دائماً أن يؤمن بأن مكاناً في القمة يتسع ولو لموضع قدم، أفضل من أن يحتل المركز الثاني بمفرده، كما أن الأهم من بلوغ القمة هو الاستمرار فيها، لأن هناك من يلاحقه بقوة وقد يتجاوزه.

لذا يجب طرح سؤال بعد كل نجاح، وهو: ماذا بعد؟ وعدم التوقف طويلاً أمام ما تم تحقيقه، إلا إذا كان امتداداً للحاضر ودافعاً إلى المزيد من الإنجاز، من خلال العمل بروح الفريق؛ فليست هناك أعمال كبيرة يمكن أن ينجزها الفرد دون مشاركة الآخرين له، كما أن الذي لا يعمل ضمن فريق لا يستمر طويلاً، ومن يترك وراءه صفاً ثانياً، تمتد حياته في حياة كل من علمهم كيف يكونوا متميزين.. رأينا ذلك وتعلمنا منهم، وما زلنا نحتاج إلى أن نستزيد من العلم، لأن طريق التميز لا نهاية له.

تكريم من لأجلها نكرم

احتفى العالم منذ أيام قلائل بالأمهات، وفي ذلك وفاء لمن تعطي دون أن تنتظر الرد، وتبذل دون أن تنتظر الشكر والعطاء، وترعى من حولها بطيب خاطر، وتكتمل سعادتها بسعادة من حولها، وآلامهم أقسى عليها من أشد أوجاعها، تتألم وتدعو ألا يتألم مَن حولها؛ لذا جعل العالم لها يوماً يحتفي فيه بينبوع العطاء ومصدر الإلهام والسكينة.

وإذا كان العالم قد خصص يوماً من كل عام للاحتفاء بالأم، إلا أن الاحتفاء والاحتفال والتقدير والتبجيل والتوقير، وكل المفردات الدالة على سمو مكانة الأم في الإمارات، لا يقتصر على فعاليات يوم ويمر، لكنه يمثل في وطننا سياسة حكومة تعرف مكانة المرأة؛ أماً وأختاً وزوجة وابنة، كما أن توقير الأم جزء أصيل من ثقافتنا العربية، فضلاً عن أنه من علامات حسن التربية، وقيمة ومنظومة سلوك اجتماعي، ودين وعبادة مأمورون بها ومحاسبون عند التقصير في أدائها.

كما أن الإمارات قدمت الدعم الكامل للأم عبر عقود طويلة احتلت فيها المرأة مكانة متميزة، توجت بإصدار مجلس الوزراء قراراً بتشكيل مجلس إدارة

للمجلس الأعلى للأمومة والطفولة، برئاسة سمو الشيخة فاطمة بنت مبارك «أم الإمارات»، وهو المعني بتوفير الرعاية والمتابعة لشؤون الأمومة والطفولة في المجالات التعليمية والثقافية والصحية، وإعلاء دور الأم في إعداد الأجيال القادرة على العطاء الوطني، وترسيخ القيم الأخلاقية التي تجسد مكانتها ودورها في المجتمع؛ ورحم الله حافظ إبراهيم حين قال:

«الأم مدرسة إذا أعددتها ❋ أعددت شعباً طيب الأعراق».

ولقد حققت المرأة في الإمارات الكثير من المكاسب والعديد من الإنجازات المتميزة، في إطار سياسة عامة تعلي من شأنها، وتبوأت أعلى المناصب في العديد من المجالات، كما أنها تسهم بفاعلية في مسيرة التنمية في الدولة، من خلال مشاركتها في السلطات السيادية الثلاث؛ التنفيذية والتشريعية والقضائية، إضافة إلى حضورها الفاعل على ساحات العمل الدولي.

إن تقدير القيادة السياسية لدور المرأة ودعمها، انعكس في سياسات وبرامج الدولة، حتى باتت رقماً مهماً في مسيرة التنمية التي تشهدها البلاد في مختلف مجالات العمل الوطني، لمَ لا وهي التي تحملت المسؤولية بجانب الرجل في زمن العسرة ورحلة البناء، مما أهلها لأن تنهض بمسؤوليتها كاملة إلى جانب الرجل، على قاعدة المساواة والتكافؤ في الحقوق والواجبات في إطار الالتزام بقيم المجتمع؟

وتخطى الاهتمام بالمرأة في الإمارات حدودها الوطنية، فامتدت يد الرعاية للمرأة اللاجئة وحمايتها من تبعات اللجوء ومعاناته، وخاصة في المناطق الملتهبة، وحشد الدعم والتأييد لها. في تقديري أن الوفاء للأم هو من علامات الفطرة السوية، ومن انحرف سلوكه وضل عقله وطمست بصيرته وغاب عنه بره لأمه، فمن الصعوبة أن تجد له قيمة في حياته يحافظ عليها، فمن لم يفِ لبيئته الأولى من غير الممكن أن يتعلم الوفاء لوطنه الكبير، فالفضيلة كل لا يتجزأ.

يقص علي أحد من فقدوا آباءهم مع إبصار عينيه للدنيا، فكانت أمه له أباً وأماً في وقت معاً، رعته وهو اليتيم، وترملت عليه وإخوانه، ودفعته دفعاً إلى تحصيل العلم حتى صار أستاذاً جامعياً.. والشاهد ما قاله من أن سر إصراره على تحصيل العلم والتميز، كان إسعاد والدته ومسح الدمعة التي انسابت من عينها يوم أن كانت تهنئ الجيران بنجاح ولدهم، وهي المكلومة في أخ له، فكان إسعادها ليزيح عنها آلام السنين وصعوبة الحياة، وليؤكد لها أن جهدها لم يضع سدى؛ لذا أصاب حافظ محمود عندما قال «إن الأم هي القوة النفسية الدافعة للأجيال إلى الأمام، بل هي التضحية الخالدة من جيل إلى جيل».

ألا يستوقفك دائماً أنك عند الملمات، مهما كان علمك وعظم عملك ومسؤوليتك، تتوق إلى من تتحلل بين يديه من كل ذلك، وتفتح الغرف المغلقة في بواطن نفسك، ولا تسمح لمن يشاركونك معيشتك ليل نهار بمجرد محاولة الطرق، فتعطي مفاتيحها مرتاح البال إلى من احتوتك منذ كنت نطفة، فعلقة ثم مضغة فعظاماً فلحماً، داخل بطنها، وعلى ما في ذلك من عنت ووهن إلا أنها لم تتضجر يوماً، ولأنها أول من أبصرتك متحللاً من كل زينة، فإنها تراك بعيون فؤادها، تراك دون منصبك، وما تحاول أن تتخفى وراءه، فتعرف حالك من قسمات وجهك، سعيداً كنت أم مهموماً، ودون أن تقص عليها من الحديث الكثير، ذلك أن حياتك من حياتها حين شاركتها غذاءها قبل أن تبصر النور، فكيف يختلط عليها أمرك أو يلتبس عليها شأنك، فتنبسط إليها رغماً عنك، وتطرح بين يديها همومك، وأنت من يقصدك الغير عند الهموم، وتنهمر أمامها دموعك وأنت دمعك في الحوادث غال.

ورغم أن الكثير من الأمهات في فترات معينة من حياتهن يعجزن عن مساعدة من حولهن حين يعتل الجسد، إلا أنها تظل، رغم ضعف قوتها، ملجأ

عند الشدة، ونبع الحنان والعطف عندما تقسو الحياة بصروفها، وهي المصباح المنير عندما تعز الرؤية، وصوت الضمير عندما تختلط الأمور وتصعب التفرقة بين الصواب والخطأ، وهي واحة الرضا وروضة النفس والأنس عند الوحشة..

يقبل وجهها عندما تدبر وجوه الناس، يبقى حبها عندما يذهب عنك ما كان يلتف الناس حولك من أجله.. بابها مفتوح عندما توصد في وجهك أبواب من كانوا يتطلعون إلى قدومك، حزنها عندما تكون مهموماً أشد من طعم الحنظل، وفرحتها عند فرحتك تكاد تلامس عنان السماء..

تصفح وتعفو يوم أن يقسو عليك الناس، تطبب أوجاعك يوم أن يمل منك كل من حولك، تحمل عنك همك يوم أن ينأى عنك أقربهم إليك.. وفاؤها دائم، ترجو لك الخير دون أن تنظر إلى نصيبها منه، تستر عورتك حتى عن نفسك، وتقوي ظهرك، وهي الخبيرة بنقاط ضعفك؛ لذا كانت وصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم واضحة جلية، عندما جاءه رجل فسأله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ فقال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك.

من فقدها فهو اليتيم حقاً ولو بلغ من العمر مبلغ الرجال؛ لأنه ينادي مناد من السماء: (يا ابن آدم ماتت من كنا نكرمك من أجلها، فاعمل عملاً صالحاً نكرمك من أجله).

رؤية دبي السياحية 2020

النشاط السياحي نشاط اقتصادي له مردود مادي، غير أنه من الأنشطة التي تتميز بخصوصية شديدة في التعامل معها من أكثر من ناحية، سواء من جانب من يقصد وجهة ما أو من ناحية الجهة المضيفة؛ فبعض الأنشطة الاقتصادية قد يقوم فيها الأفراد بالتعامل مع جهات بعينها لاعتبارات تتعلق بندرة المنتج، أو باعتبارها المصدر الوحيد له ولا خيار أمامهم في ذلك، وفي هذه الحالة ليست هذه الجهات في حاجة إلى بذل الكثير من المحفزات للجذب، لأن الاحتياج هو الجاذب والاحتكار هو الضامن لاستمرار هذه النوعية من المعاملات حتى وإن لم تسد العلاقة بين الطرفين المتعاملين حالة من الرضى التام.

إلا أن الأمر يختلف كثيراً عند الحديث عن السياحة، لأنها نشاط لا يقوم به الفرد إلا عندما يتمكن من تغطية احتياجاته الحياتية الأساسية، ويحقق فائضاً من دخله، أو يتمكن من الادخار الذي يجعله يفكر في القيام بهذا النشاط.

من ناحية أخرى، فإن الفرد في هذا النشاط، على وجه الخصوص، ليس مجبراً على التعامل مع وجهات محددة إذا لم يكن مشدوداً إليها بقوة الجذب لا

بضغط الاحتياج أو الاحتكار أو الحصرية لمنتج ما، من هنا فإن رغبة الفرد تسبق احتياجه، وحاجاته النفسية تسبق احتياجه البدني، لكل هذه الأسباب فإن الجهد الذي تحتاج إليه صناعة السياحة أضعاف ما تحتاج إليه غيرها، وإذا كان التخطيط في غيرها من الأنشطة من الأمور الجيدة فإنه فيها من الضرورات التي لا تقبل التهاون، وبخاصة في ظل منافسة محتدمة بين مختلف وجهات السياحة العالمية، بما يحتاج إلى وضع خطط استراتيجية بعيدة المدى، نجيب فيها على أسئلة تميزنا عن غيرنا، ونحدد فيها من نحن وما يميزنا، وكيف نود أن يرانا الآخرون، والعمل بجهد مستمر لتحقيق الإجابات الناجعة على تلك الأسئلة؛ ولكل ما سبق جاءت رؤية دبي 2020 لتطوير القطاع السياحي، لتكشف عن إدراك ووعي لأهمية القطاع السياحي، ودوره الفاعل والمؤثر في اقتصاديات دول قائمة على النشاط السياحي، وهو ما أكده صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد عند اعتماده رؤية دبي 2020 لتطوير القطاع السياحي، متضمنة سلسلة من الأهداف الطموحة من أبرزها زيادة التدفقات السياحية إلى دبي وصولاً إلى 20 مليون سائح بحلول مطلع العقد المقبل، وكذلك مضاعفة المساهمة السنوية للقطاع السياحي في الاقتصاد المحلي لدبي إلى ثلاثة أضعاف ما يتم تحقيقه حالياً من عائدات، حين قال: إن دولة الإمارات نجحت في تأكيد مكانتها على خارطة السياحة العالمية، وأوجدت لنفسها موقعاً بين أشهر المقاصد السياحية التي يفِدُ إليه الزوار من كافة أنحاء العالم، حيث قطعت بلادنا شوطاً طويلاً في مجال تطوير قدراتها السياحية مدعومة في ذلك بسلسلة من المبادرات التنموية الطموحة والمشاريع النوعية التي شكّلت ركيزة قوية للانطلاق بخطى واثقة نحو المستقبل، مؤكداً ومشدداً على عدم الاكتفاء بما وصلنا إليه، ولكن لا بد من بذل المزيد، وحتمية مواصلة عملية التطوير قائمة لمواكبة ومعرفة متطلبات السوق العالمية مع رصد متغيراتها بعين واعية، بغية الحفاظ على المكتسبات المتحققة، واستشرافاً لآفاق جديدة من الإنجاز والتميز في هذا القطاع الاقتصادي الحاشد بالفرص.

ومن الصعوبة بمكان حصر آفاق السياحة في دبي، ولكن من الممكن إلقاء إضاءات حول بعضها تباعاً. وهنا أود أن أشير إلى أن دبي من المدن الرائدة في صناعة المعارض، ليس على مستوى المنطقة فحسب ولكن على المستوى العالمي، وهي ضمن الجهات الخمس المفضلة عالمياً لإقامة المعارض إلى جوار لاس فيجاس، وتايلاند، وكيب تاون، وميامي إضافة إلى ألمانيا؛ وهذه الصناعة التي توفر العديد من فرص العمل هي أيضاً من أهم عوامل الترويج لأي دولة في العالم، لأنها تسهم في المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، كما أنها تعكس قدرات وإمكانيات ومتانة البنية التحتية، فالأساس القوي الذي تستند إليه إقامة المعارض هو الفنادق من حيث عدد الغرف ومستوى الخدمة، والتي تضم دبي أفضلها عالمياً من الناحية الهندسية والجمالية، كما أن التنوع الاقتصادي الذي تتميز به دبي من حيث المنتج يسمح كذلك بتنوع تلك المعارض.

وإذا كان رواد المعارض يأتون للاطلاع على آخر الصيحات والابتكارات، أو لتوقيع عقود أو تجديد عقود، فإنهم يأتون في المرات القادمة لأنشطة سياحية أخرى أكثر تنوعاً؛ كما أن ترتيب دبي يأتي في الثلاثة الأُوَل عالمياً في إقامة المعارض، وفي مقدمتها جايتكس، للدرجة التي جعلت أحد البائعين في كوريا يخبرني عندما سألته عن منتج كوري جديد قال ستجده في دبي قبل كوريا؛ كما أن معرض السياحة الرئيس في دبي وهو - سوق السفر العربي - يعد الرابع عالمياً، والذي يقام بالمركز التجاري في الأسبوع الأول من شهر مايو كل عام.

إن أهمية سياحة المعارض لا تنحصر فقط خلال فترة المعرض ولكن طوال فترة الإعداد للمعرض والترتيبات الخاصة بزواره، والتي قد تمتد إلى عام أو أعوام، ودبي من الآن تستعد لإكسبو 2020، فضلاً عن الأثر الذي يمتد إلى ما بعد انتهاء فعاليات المعرض، وهنا تكون الفرص متاحة ليطلع العالم على ما لدينا من إمكانيات وما نتميز به من قدرات قد يجهلها البعض، لنفتح لأنفسنا آفاقاً جديدة.

في تقديري، الحالمون فقط هم الذين يتمنون، ولكن الناجحون هم من يعملون ويعملون بجد دون كلل أو ملل، وفي تقديري أن رؤية دبي لتنمية القطاع السياحي هي صورة من صور العمل الجاد، تدعمه إرادة سياسية تدرك تماماً الإجابة عن الأسئلة التالية: من نحن؟ وماذا نريد؟ وبماذا نتميز عن غيرنا؟ وعلى أي نحو نود أن يفكر فينا ويرانا الآخرون؟، لذا فإن وضوح الرؤية هو أولى بشريات النجاح، لأن عملاً دون رؤية يؤدي إلى حالة من التخبط التي تضيع الوقت والجهد والمال، ورؤية دون عمل هي نوع من الأماني، ورؤية دبي تجمع بين الرؤية والعمل، لذا فنجاحها محقق بإذن الله ثم بعزم المخلصين من أبناء هذا الوطن.

الاتصال المؤسسي

فــــن وتطبيــــق

الاتصال الفعال من الوظائف التي تحتاج إلى مهارات نوعية قد لا تتوافر لدى جميع الأفراد بنفس القدر، واختلاف البشر في القدرة على التعبير عن أفكارهم بفاعلية وبطريقة تصل إلى الآخرين، سواء كان ذلك من خلال الكتابة أو الحديث، هي حقيقة قائمة؛ فكم من كاتب بارع لا يجيد فن البيان، لذا كان أمير الشعراء أحمد شوقي لا يلقي شعره بنفسه، رغم جزالة اللفظ ومتانة العبارة، ويترك هذه المهمة لآخرين ممن لديهم القدرة على السيطرة على جمهور المستمعين.

كما أن هناك من المتحدثين البارعين من عندما تقرأ ما قاله لا تجد فيه تلك الحالة الجاذبة التي كانت عند الإنصات إليه. ويذكر أنه طلب من شاعر النيل ذات مرة أن يعيد أبياتاً شعرية ست عشرة مرة، وعندما نشرت في اليوم التالي وجد القراء أنها خالية من تلك المتعة التي تتطلب إعادتها مرات ومرات.

ولأن البشر يتفاوتون في قدراتهم الاتصالية، والقدرة على البيان وامتلاك ناصية الحديث، كان دعاء نبي الله موسى عليه السلام حينما كلفه الله عز وجل بالذهاب إلى فرعون وملئه، أن سأل الله أن يعينه على ذلك بأخيه هارون، الذي

هو أفصح منه لساناً، حين قال: «وَأَخِي هَارُون هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ»، أراد من ذلك موسى عليه السلام الاستعانة بقدرة أخيه هارون على مجادلة فرعون عند تبيان الحقيقة، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول: «إن من البيان لسحراً».

الشاهد أن قدرات البشر الاتصالية متفاوتة تبعاً لمهاراتهم، سواء في القدرة على التعبير أو القدرة على الاستماع الإيجابي، وما ينطبق على الأفراد ينطبق على المؤسسات، ذلك أن من يقوم بالاتصال المؤسسي في الأخير هم العاملون فيها.

تلقيت دعوة كريمة من برنامج دبي للأداء الحكومي، لمشاركة نخبة من المسؤولين والإعلاميين الحديث حول جوانب من الاتصال الحكومي، خصني منها «السمعة المؤسسية».

وفي تقديري أن سمعة المؤسسة من أكثر العوامل التي تحدد علاقة المتعاملين معها، أو نظرة الجمهور من غير المتعاملين معها، بل يتوقف عليها تقدير باقي المؤسسات لها، بما ينعكس على تعاملاتها ومدى الترحيب بها، باعتبارها فرداً صالحاً في المجتمع يقوم بدور إيجابي، بما ينعكس على الرضا الوظيفي للعاملين فيها وشعورهم بما يمكن أن نطلق عليه الرضا الوظيفي.

وتكوين السمعة الطيبة للمؤسسة ينبغي أن يهيئ لرؤية استراتيجية واضحة تترجم إلى خطط مرحلية، أهدافها محددة ويمكن قياسها، فضلاً عن استيعاب جميع العاملين بها، بعيداً عن العشوائية أو الجهود الفردية أو الموسمية أو ردات الأفعال نتيجة لحدث هنا أو هناك، كما أنها تتم عبر عمل جاد ومستمر على أرض الواقع، يشعر به المتعاملون مع المؤسسة، يبدأ من الإجابة عن أربعة أسئلة جوهرية، هي: من نحن؟ ماذا نريد؟ بماذا نتميز عن غيرنا؟ ما هي الصورة التي نود أن يرانا عليها الآخرون؟

وعندي أن سمعة المؤسسة لها محاور أربعة، إهمال أي منها يؤثر بالسلب في باقي المحاور، وفي المجمل في السمعة المؤسسية؛ أولها يبدأ من الداخل والخاص برفع الروح المعنوية للعاملين، عبر الاهتمام بهم وتفعيل قنوات الاتصال بين الجمهور الداخلي للمؤسسة وبين الإدارة بمستوياتها المختلفة، ذلك أن السمعة الطيبة للمؤسسة تبدأ من الداخل، من خلال توافر بيئة إبداعية للعاملين فيها تستنفر طاقاتهم الإبداعية.

إضافة إلى وضع نظام للحوافز المادية والمعنوية للعاملين المخلصين، والذين يسهمون في تطوير العمل واستقراره، فضلاً عن إتاحة فرص التدريب واستكمال دراستهم عبر المنح الدراسية، بما ينعكس على سعادتهم بالانتماء إليها، ويصبحون بدورهم من أهم عوامل توطيد السمعة الطيبة للمؤسسة، ففاقد الشيء لا يعطيه.

كما أن فشل المؤسسة في كسب ثقة واحترام العاملين فيها، يجعل من الصعوبة بمكان تحقيق ذلك مع الجمهور الخارجي، ولا يتحقق ذلك إلا عبر الأفعال لا الأقوال، والصدق والأمانة في الأداء.

المحور الثاني المكون للسمعة المؤسسية، هو النجاح في إدارة الأزمات التي تتعرض لها، فالنجاح في إدارة الأزمة يوطد السمعة الطيبة ويزيد من ثقة المتعاملين معها، على غرار أن السوط الذي لا يقصم الظهر يقويه، بل إن الإدارة الناجحة للأزمة تمثل فرصة للمؤسسة لكسب تأييد المزيد من المتعاملين، كما أنها فرصة للتعريف بالدور الذي تقوم به والخدمات التي تؤديها لأفراد المجتمع، حيث تكون أنشطتها محور تركيز وتحليل وسائل الإعلام، إضافة إلى أن السرعة في التعامل واختيار الوقت المناسب لإطلاع الجمهور على الموقف العام للمؤسسة، من شأنه أن يعزز الثقة في تعاملاتها، مع امتلاك شجاعة الاعتذار إذا تطلب الأمر، فذلك أفضل من التحايل وتجميل واقع سيئ.

المحور الثالث هو أن تحرص المؤسسة على تجسير العلاقة بينها وبين المجتمع المحلي، وألا تتعارض أنشطتها مع مصالح مجتمعها، وأن تسهم في تنمية أنشطته وتوثيق أواصر التعاون مع المؤسسات الثقافية والتعليمية والأهلية، واتباع سياسة الأبواب المفتوحة عبر إطلاع جمهورها المحلي على ما تقدمه من خدمات، وهنا ينبغي أن يعرف المواطن ما هي الفوائد التي تعود عليه من أنشطة تلك المؤسسات، ببساطة ووضوح، ولذا ينبغي الحديث معه بلغة المنافع لا لغة المميزات.

المحور الرابع هو أهمية التعامل بشفافية مع وسائل الإعلام، عبر إتاحة الوصول إلى المعلومة بسهولة، وتخصيص مكان محدد للمتحدث الرسمي، وتنظيم المؤتمرات الصحفية، وإعداد الزيارات الميدانية، ونشر المعلومة التي تقضي على الشائعات في مهدها، وإتاحة المجال لرجال الإعلام لمقابلة العاملين، وإصدار مواد صحفية دورية توضح من خلالها موقفها من مختلف القضايا المتصلة بأنشطتها.

إن قدرة المؤسسة على تكوين سمعة طيبة تبني جداراً من الثقة بينها وبين جمهورها، والوقوف بجانبها عند التعرض للأزمات، والتريث كثيراً قبل إصدار الحكم عليها عند الأزمات، وتفهم السياسات التي تتخذها المؤسسة.

لقد أصاب برنامج دبي للأداء الحكومي المتميز، حين أكد أن الاتصال المؤسسي فن وتطبيق، لأن هذه المحاور لا يمكن تطبيقها دون امتلاك مهارات نوعية تزيد من تأثيرها، فهي وإن كانت قواعد علمية تطبيقية، إلا أنها فنون في الأداء والممارسة.

الحكومة الذكية.. دروس مستفادة

من أراد أن يعرف مقام شعب في ميدان البناء والتقدم، عليه أن يعرف فيمَ أقام أبناؤه أنفسهم، وهل هناك حلم كبير يشغلهم ويوحد جهودهم وتتعلق به آمالهم، أم أنهم تفرقت بهم الدروب كل في طريق؟ ومن يتابع حالة المجتمع الإماراتي يدرك، بما لا يدع مجالاً للشك، أن قيادته السياسية استطاعت أن توحد جهود أبنائه للبناء، وحين تحقق إنجازاً لا تتوقف عنده كثيراً، ولكن تنظر إلى ما هو أبعد منه. والسؤال المطروح دائماً هو؛ ماذا بعد؟

لذا فعندما يتحدث العالم عن الحكومات الإلكترونية، والتي عرّفتها الأمم المتحدة عام 2002 بأنها «استخدام الإنترنت والشبكة العالمية العريضة لتقديم معلومات وخدمات الحكومة للمواطنين»، بعد أن جاء استخدام هذا المصطلح للمرة الأولى على لسان الرئيس الأميركي الأسبق بل كلينتون عام 1992، وما إن انطلقت الفكرة على المستوى العالمي حتى كانت دبي، وفقاً للتقرير الصادر عن الأمم المتحدة في يناير 2008، تحتل الصدارة بين حكومات دول العالم في تطبيق هذا النظام، وهو ما تم تطبيقه على مستوى دولة الإمارات ككل.

وإشارة إلى ذات التقرير، أقول؛ وما زال الكثير من دول العالم تحاول التخلص من الأداء التقليدي وترهل الجهاز الإداري لها، واللحاق بركب الحكومة الإلكترونية، تفاجئ دبي العالم بوجه آخر غير مسبوق ومصطلح لم يستخدم من قبل في الأداء الحكومي، وهو مبادرة «الحكومة الذكية»، وهي مرحلة ما بعد الحكومة الإلكترونية، والتي لا مجال فيها للعاجزين عن مسايرة متطلباتها وما تستلزمه من مهارات نوعية في الأداء، ومواصفات خاصة على مستوى الإنجاز.

لقد تناولت منذ أسابيع قليلة مبادرة التعليم الذكي، وهي المبادرة التي أطلقتها القيادة السياسية في الدولة، وها أنا أجد نفسي اليوم أكتب حول الحكومة الذكية، وفي ذلك أرصد واقعاً وأقرأ ملامحه؛ هذا الواقع يكشف عن قيادة سياسية، اختارت لنفسها وشعبها ألا تكتفي بالسباحة في المناطق الدافئة مؤثرة السلامة، ومكتفية بما حققته من إنجازات وما تغلبت عليه من صعاب، استطاعت أن ترسي بها سفينة الوطن على شاطئ السلامة، في وقت أخذت فيه قيادات سياسية من حولنا شعوبها في طريق الندامة والخيبة وكدرت حياتهم، حين رفعت في وجوههم السلاح بدلاً من حمايتهم به، وحين أبكتهم صغاراً وكباراً، و كان واجبها إدخال السعادة عليهم، وحين هجّرتهم من ديارهم وكان أولى بها احتضانهم كما تحتضن الأم الرؤوم أولادها، وحين خربت وأهدرت مقدرات وطن، وكان ينتظر منها تنميته أو الحفاظ عليه على أقل تقدير، وحين مزقت شعبها فرقاً وشيعاً وكان أولى بها ربطهم برباط المواطنة دون تمييز بين عرق أو مذهب.

أقول إن الإمارات قد اختارت لنفسها طريق البناء لا الهدم، وهو الطريق الأصعب، لأنه محفوف بالبذل والعرق والعطاء؛ لذا فما تقدمه القيادة السياسية من مبادرات تجعل من الصعوبة بمكان ملاحقتها، ولا شك أن مبادرة «الحكومة

الذكية»، التي نتوقف اليوم عند قراءة معطياتها، تشير إلى أن القيادة السياسية عندما تقول إن وظيفة الحكومة إسعاد الناس، لم يكن ذلك حديثاً مراسمياً يردد في المناسبات، ولكنه في حالتنا شديدة الخصوصية يتحول إلى برنامج عمل، له مدى زمني واضح، محددة تكاليفه ومرصودة أهدافه التي يمكن قياسها، ليجازى المحسن بالإحسان ويحاسب المقصر على تقصيره.

واللافت للنظر أن الشعار الذي رفعته حكومة دبي على موقعها الرسمي وهو «نعمل معاً لتسهيل حياتك»، هو رسالة واضحة للمشاركة في البناء «معاً»، فالضامن الحقيقي لنجاح الخطط التنموية مهما كانت وأياً كانت، هو مساهمة المعنيين بها في قراراتها وفي مختلف مراحلها، وتوفير بيئة مواتية لاستنهاض الهمم وشحذ الطاقات، وهو ما جاءت الجائزة التي رصدها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد لأفضل خدمة حكومية عبر المحمول، لتشجيع الجهات الحكومية على تقديم خدماتها وفق حلول إبداعية مبتكرة، قادرة على الوصول بخدماتها لكل الشرائح على مدار الساعة وحيثما كانوا، وهو ما يوفر الوقت والجهد ويعظم القيمة، في زمن باتت فيه الثواني فارقة في التحول من الإخفاق إلى النجاح، ولم تعد هناك رفاهية الانتظار الطويل في اتخاذ القرارات عبر اللجان والمجالس.

وفضلاً عن ذلك، فإن دعوة القيادة السياسية لشباب الجامعات للمساهمة في إبداع تطبيقات هاتفية للخدمات الحكومية وتخصيص جائزة قيمتها مليون درهم، لها دلالة واضحة في إيمان القيادة الرشيدة بقدرات الشباب وإبداعاتهم، وكذلك في قدرة المنظومة التعليمية في الدولة على رفد المجتمع بكفاءات شابة قادرة على العطاء، كما أنه دفع لمسيرة البحث العلمي التطبيقي، الذي لا يكتفي فقط بتلبية حاجات الوطن، ولكن يسهم في خدمة أمته العربية وشركائنا في الإنسانية.

لذلك وفقاً لما وجه إليه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، ستكون الجائزة «إماراتية المنشأ، عربية الآفاق، عالمية الصدى».

ومن يتابع الشأن اليومي يجد أن هذه المبادرة قد حركت الماء الراكد في بعض الدوائر الحكومية في البلدان العربية الشقيقة، التي بدأت تتحدث عن التجربة الحكومية الإلكترونية في الإمارات، وانتقالها إلى مرحلة جديدة، وهي الحكومة الذكية.

إن هذه المبادرة لم تكن لتأتي دون الثقة بتمتع الإمارات ببنية تكنولوجية قوية، تستطيع تلبية هذه العملية شديدة التعقيد والحساسية، فضلاً عن القدرة على تنظيم وتخزين واستدعاء المعلومة والحفاظ على سريتها، كما أن الإمارات تعكس بها كيف يمكن أن تخدم التكنولوجيا حياة الناس، والحديث عنها بلغة المنافع لا بلغة المميزات، والفرق بينهما كبير.. كما تضرب المثل والنموذج على أن الإبداع ليس فقط في إنتاج التكنولوجيا، ولكن الإبداع أيضاً في توظيفها في المكان المناسب وتعظيم أوجه الاستفادة منها.

إنني أعتقد أن مبادرة الحكومة الذكية لا تتوقف عند إضافة قدرات نوعية للدوائر الحكومية للدولة، لكنها درس جديد من الدروس المستفادة التي يجب التوقف عندها طويلاً، لأن انعكاساتها متعددة، وتضرب في اتجاهات مختلفة، لتكون المحصلة وطناً يرفل كل يوم في حلة جديدة.

التنافسية العالمية
ودولــة البنــائيــن

يعيـش الشـارع العربـي بيـن مشـهدين، لـكل مشـهد قادتـه ورجالـه وجمهـوره وأسـبابه وعواقبـه، ولكـن القاسـم المشـترك بينهمـا هـو أن أبطالـه قـادة ائتمنتهـم شـعوبهم علـى حاضـر أوطانهـم ومسـتقبل أولادهـم، كمـا أنهمـا يشـتركان فـي أن ميـدان كل مشـهد هـو الوطـن أرضـاً وشـعباً، ووقـوده هـو مقـدرات الوطـن وثرواتـه، إلا أن الفـارق بينهمـا شاسـع؛ أولهمـا يصيـب مـن يشـاهده بالحسـرة والاكتئـاب والاغتـراب حينمـا يـرى أطفـالاً تيتـم، ونسـاء ترمـل، وأسـراً تشـرد، ومسـاكن تهـدم، وعتـاداً وأسـلحة ضلـت طريقهـا فوجههـا أبنـاء الوطـن الواحـد إلـى صـدور بعضهـم، ومقـدرات وطـن تنـزف بأيـدي أبنائـه، فقدمـوا لأعدائـه خدمـة جليلـة علـى طريقـة «بيـدي لا بيـد عمـرو».

المشـهد الثانـي هـو مشـهد قيـادة تعـرف دورهـا ومكانهـا، وأرادت أن تسـير فـي طريـق آخـر، لأنهـا تـدرك المعنـى الحقيقـي للقيـادة التـي تعنـي المسـؤولية تجـاه الشـعب والوطـن، فاختـارت طريـق البنـاء لا الهـدم، ففتحـت الأبـواب والقلـوب لأبنـاء شـعبها بـدلاً مـن أن تفتـح عليهـم أبـواب النـار، وأدركـت أن القيـادة بالحـب أبقـى وأعمـق وأقـوى مـن القيـادة بالبطـش والجبـروت، وأن الوطـن هـو الباقـي وهـو

الخالد أبداً، فرسمت على وجه الوطن ابتسامة الحب والنصر، فبادلها شعبها حباً بحب وعطاء بعطاء.

راودتني تلك الأفكار وأنا أتابع كمواطن ومهتم بالشأن العام، تلك الأخبار التي تترى لتدخل على القلب السعادة وعلى النفس الثقة والفخر بالانتماء إلى رمال هذا الوطن، فالمقدمات الطيبة لا يمكن إلا أن تأتي بالنتائج السعيدة، ولا شك أن ما يحدث على أرض الإمارات هو ملحمة للخلود، اعتادت أن تسطرها الإمارات مهما كانت التحديات والصعاب.

ألم يبنَ اتحاد إماراتنا يوم أن كان عقد التجارب الاتحادية ينفرط، فلا عجب، في ظل ما يعيشه العالم من اضطراب، وما يشهده عالمنا العربي من تخبط بحثاً عن طريق للخروج من وهداته، أن تأتي الإمارات في المركز الثامن عالمياً في التنافسية العالمية، بحسب التقرير السنوي للتنافسية العالمية الصادر عن المعهد الدولي في سويسرا، وهو من أهم التقارير السنوية العالمية، ويعتبر من المراجع الأساسية التي يعتمد عليها صناع القرار في العالم، وهو يعتمد على 300 معيار قياسي، فجاءت ضمن العشرة الكبار عالمياً، والأولى عالمياً في الكفاءة الحكومية، وفي مجال الترابط المجتمعي، وفي مجال القيم والسلوكيات، والثانية عالمياً في الخبرة الدولية ونظام التقييم، والثالثة عالمياً في الثقافة الوطنية، والرابعة عالمياً في الأداء الاقتصادي، والخامسة عالمياً في التوظيف، والسادسة عالمياً في ممارسات الأعمال، والسابعة عالمياً في التجارة الدولية.

إن هذه المراكز هي شهادات دولية تصدرها مراكز يعتد بنتائجها، ورغم أننا لا نحتاج كثيراً إلى هذه الشهادات الدولية، لأن الواقع المعاش أصدق أنباء من كل الشهادات، إلا أن قيمتها تأتي من كونها تحدد أين نحن من الآخرين وأين الآخرون منا، كما أنها تأتي من طرف يرى الصورة من الخارج بعيداً عن العواطف، لتزيدنا إصراراً وتصميماً على أننا حددنا مسار السير برؤية واضحة،

وتصميم وإرادة سياسية وشعبية على التميز، لا على المستوى الإقليمي فحسب ولكن على مستوى عالم لم يعد فيه للمترددين مكان.

إن ما تبوأته الإمارات اليوم من مراكز في مجالات البذل والعرق والعطاء، لم يكن وليد المصادفة أو جاء هكذا عبر اقتراع بين الدول، ولكنه نتاج رؤية تثبت كل يوم نجاحها، وضع قواعدها الصلبة المؤسسون على حب للوطن والوفاء له ولشعبه، ثم حمل الراية من تربوا في كنف المؤسسين وعلى عين منهم، فحافظوا ونموا فكانت صرخة التميز والاستثمار في الإنسان، حتى أصبحت الدوائر الحكومية وغير الحكومية في حالة استنفار إبداعي مستمر، في طريق لا نهاية له من تجويد الحياة.

الشاهد أن تجربة التميز في الإمارات بدأت من الداخل بنفس وطني، يستند إلى رؤية واضحة من قيادة سياسية واعية تعرف ماذا تريد لشعبها، قيادة من يحلل خطابها يجد أن الأمل في الغد هو القاسم المشترك الأعظم، وأن كل يوم يطل علينا هو بمثابة اختبار جديد نثبت فيه تفوقنا، فالنجاح ليس هبة توهب لشعب ما، ولكنه ينتزع عبر البذل والعرق.

إن العالمية التي تدور مع رحاها الإمارات اليوم، جاءت من قوة البناء الداخلي والعمل بروح الفريق الواحد، الذي يمتد من السلع إلى الفجيرة، على حد وصف قيادته السياسية التي يستلهم منها طاقته الإيجابية.

ومما لا شك فيه أن حصول الإمارات على المركز الأول عالمياً في الترابط المجتمعي والقيمي، يعطي ملمحاً مهماً وضرورياً، وهو أن رحلة البناء والتنمية في الدولة قائمة على أساس أخلاقي وقيمي، وأن الإمارات، وهي تسير في طريق التحديث، لم تخجل أو تتحلل من تراثها وميراثها التاريخي كما فعلت بعض التجارب الإقليمية من حولنا، فلا هي لحقت بالصف الأول ولا هي حافظت على هويتها وكانت المحصلة مخيبة للآمال، لأن السند الحقيقي لأي

عمران مادي هو سند أخلاقي، بل إن الحضارات الكبرى التي انهارت تاريخياً لم يكن ليحدث لها ذلك لولا انهيار البعد القيمي، وهو الخطر الذي مازال ماثلاً للحضارة الأوروبية، فضلاً عن أن الترابط المجتمعي يؤكد التفاف الشعب حول القيادة، وهذه هي الشرعية الحقيقية التي تسبق كل التنظيرات السياسية والسجالات الفكرية.

إن وحدة الهدف وتجميع الجهود والشراكة في البناء، هي الإطار الجامع لنجاح كل التجارب التنموية وشعور كل فرد بدوره في تحمل مسؤوليته الوطنية، وإن الاستعانة بالغير لا تغني أبداً عن أصحاب الدار الذين يعرفون دروبها وشعابها، وهو ما جعل الاستثمار في أبناء الوطن، والعمل المستمر على إعداد وتكوين القيادات الشابة المؤهلة والمسلحة بالعلم، والقدرات النوعية التي أصبحت تقاس على أساسها قيمة الثروة البشرية للأوطان، هي المعايير الأساسية وليس فقط بالتعداد الكمي.

إن ما أكد عليه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد من أننا «متفائلون بالمستقبل وواثقون بأبناء الوطن ومستمرون بالعمل»، يشير إلى أن هذا ليس نهاية المطاف حتى لا تأخذنا النشوة فتصبينا بالاسترخاء، وليوضح للقاصي والداني أن تاريخ الإمارات من السلف إلى الخلف، يؤكد أنها دولة البنائين في وقت احترف فيه البعض صناعة الهدم.

التفكير الإيجابي

من طبائعنا البشرية أننا لا نرى الأشياء والوقائع ومشاهد الحياة اليومية كما هي أو كما حدثت، ولكننا نراها بما لدينا من أفكار عنها ونضفي عليها من طبائعنا الذاتية، والشاهد أنه يمكن تفسير حدث أو سلوك شخص ما أو تحليل صورة نراها، بعدة طرق وتختلف حولها الرؤى. فالإنسان أسير لما يدور في فكره، وما انطبع في ذهنه من صور نمطية وقوالب جاهزة، تجعله يطلق أحكاماً دون بذل جهد في البحث والتقصي، ويتصرف أحياناً بناء على ما يكون في ذهنه من صور، خاصة وأنه من الصعوبة بمكان أن يُكوِن الفرد خبراته في الحياة عبر التجربة الشخصية، وإلا فإنه سيحتاج إلى عقود عديدة تضاف إلى عمره.

كما أنه من الثابت في مجال علم النفس، أن من سمات التفكير الإنساني الإسقاط، وهو تفسير سلوك الغير بحسب ما يجري في نفوسنا نحن، ولكن الخوف من مواجهة أنفسنا بهذه الصفات يجعلنا نسرع بلصقها بالغير؛ فصاحب الشح في العطاء دائماً ما يصف من يقوم بأعمال الخير بالتظاهر والرياء لينال الثناء والمدح من الغير، وقليل المودة للآخرين يتهم الشخص الودود بالتزلف

والخضوع للغير، ومن لا تحكم سلوكياته وعلاقاته مع الغير غير المنفعة، دائماً ما يرى علاقات الصداقة في من حوله غير منزهة عنها.

الشاهد أننا نرى الأشياء كما نود أن نراها لا كما هي؛ وقديماً قال الإمام الشافعي: وعين الرضا عن كل عيب كليلة ❋ ولكن عين السخط تبدي المساويا.. بما يعني أننا نحدد في حياتنا - بطبيعة الحال - ما نود أن ننظر إليه والطريقة التي نود أن نراه عليها، لأن الانتقائية صفة ملازمة للبشر، فمن غير الميسور أن يرى الفرد المكونات حوله بنفس درجة التركيز، لذا فهو يختار أشياء محددة يراها دون غيرها؛ حتى من شاهد حادثة أو واقعة وطلبت منه أن يقصها عليك، تراه لا يقص عليك ما حدث بل ما رآه هو، وبالتأكيد ليس كل ما حدث، كما أنك تكون انتقائياً في تذكر ما قصه عليك بحيث تركز على ملامح دون غيرها، وهي كذلك من طبائع البشر.

إننا نحدد اللون الذي نحب أن نرى به الأشياء من داخلنا قبل أن تكون في الواقع؛ والمثال المتعارف عليه هو الكوب الذي يرى بعضنا نصفه المملوء فيما لا يرى آخرون غير النصف الفارغ، وكل يتعامل معه حسب ما يراه؛ وهو نفس الخطأ الذي نقع فيه حينما نضيع وقتاً كثيراً في التحسر والندم على ما فقدناه، وهو ما يحول بيننا وبين الاستمتاع والرضا بما هو بين أيدينا.

إن الألوان التي نحيط بها رحلتنا في الحياة وفي دنيا الناس، من داخلنا وليست من خارجنا، والمتكاسلون أصحاب الوهن والضعف والهمم المتدنية، يجدون سعادة كبيرة في التحسر وفي الشكوى وتصدير مشاعرهم للغير، وكأنهم لا يريدون بذل الجهد للنجاح.

يروى أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله ويطلب منه مالاً، فقال له النبي: «أما في بيتك شيء؟ فقال الرجل: بلى، حلس (كساء) نلبس

بعضه ونبسط بعضه، وقدح نشرب فيه الماء. فقال النبي: ائتني بهما، فجاء بهما الرجل، فقال النبي: مَنْ يشتري هذين؟ فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم. فقال: مَنْ يزيد على درهم.

فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الدرهمين فأعطاهما الرجل الفقير، وقال له: اشترِ بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشترِ بالآخر قدوماً فائتني به. فاشترى الرجل قدوماً وجاء به إلى الرسول، فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك بعود حطب فقطعه بالقدوم وقال له: اذهب فاحتطب وبع ولا أَرَينَّك خمسة عشر يوماً.

فذهب الرجل يجمع الحطب ويبيعه، ثم رجع بعد أن كسب عشرة دراهم، واشترى ثوباً وطعاماً، فقال له الرسول: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نُكْتَةً في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدْقِع، أو لذي غُرْم مفظع، أو لذي دم موجع».

إن التفكير الإيجابي يشعر الإنسان بدوره وقدرته على أن يكون له دور نافع لنفسه وأن يكون نموذجاً لغيره في المجتمع، وهو العاصم له من الشعور بالعجز والكراهية وإشاعة الحقد بين الناس، ومن شأن ذلك إشاعة حالة من السلام مع النفس، والتي تنعكس في السلام مع الغير والحياة برمتها.

كيف نغفل جمال الوردة ولا نرى فيها غير الشوك؟ وكيف لا نرى في الليل غير العتمة والظلمة دون النظر إلى جمال القمر وسحره؟ وكيف لا نستمتع بالصبح حين يتنفس بنوره ونسيمه خوفاً من قدوم الليل؟ حتى عند الإصابة بالمرض، لماذا نظل نشكو من أوجاعنا دون أن نحاول علاجها؟ وكيف نأسى على نقاط ضعفنا في جانب ما دون النظر إلى نقاط القوة في جوانب أكثر؟ وقد أجمل تلك الروح الإيجابية إيليا أبو ماضي حين قال:

أي هذا الشاكي وما بك داء ❊ كن جميلا ترى الوجود جميلاً..

والمثل الصيني الشهير يقول: «**بدلاً من أن تلعن الظلام أوقد شمعة**».

إن أخطر ما يصيب الفرد ليس الوهن البدني ولكن خواء العقل والفكر، والهزيمة الحقيقية من داخل النفس وليس من خارجها، والشعور بالعجز والسلبية وعدم القدرة أشد إيلاماً وأكثر تأثيراً من أشد العلل الجسدية، وإن الفقر الحقيقي هو فقر الفكر وانعدام الحيلة والعجز أمام الأزمات.

إن التفكير الإيجابي هو ما قامت عليه قصة اتحاد دولتنا ونهج قادتها الحريصين على نشر هذا الفكر، لأنه الضامن الحقيقي للتغلب على كل الصعاب والتحديات التي تواجهنا، وهو ما يجب أن نحرص على تعلمه وتدريب أولادنا عليه في البيوت والمدارس والجامعات؛ والبحث العلمي هو الرسالة التي يجب أن تتبناها وسائل الإعلام لنشرها بين الناس عبر تعزيز الثقة بالنفس والقدرة على التحدي، كما ينبغي أن يكون هدفاً رئيساً ومحوراً أساساً لسياساتنا التعليمية، خاصة وأن الثروة البشرية لم تعد تقيّم بأعداد أفرادها فقط، ولكن بما يحملونه من فكر، وقدرات نوعية، وقدرة على العطاء والإضافة لرصيدها الحضاري ومسيرتها التنموية.

رمضان الإمارات
واحـة للخيرات

يأتـي شـهر رمضـان بنفحاتـه الطيبـة، التـي تغمـر القلـب سـعادة والنفس رضـا، لأنـه مـن مواسـم الطاعـة التـي يجـدد فيهـا الفـرد إيمانـه، الـذي يزيـد وينقـص، كمـا أخبرنـا بذلـك رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم، كمـا أنـه فرصـة لشـحذ الهمـة ومحاسـبة النفـس؛ والرسـول الكريـم يقـول: «حاسـبوا أنفسـكم قبـل أن تحاسـبوا وزنـوا أعمالكـم قبـل أن تـوزن عليكـم».

ويبـدأ الفـرد فـي توسـيع دائـرة النظـر قليـلاً لتضـم مـن حولـه مـن البشـر، ليمـد لهـم يـد العـون والنظـر إليهـم بعيـن العطـف؛ «فمـا اسـتحق أن يولـد مـن عـاش لنفسـه فقـط»، فكيـف هـو الحـال فـي رمضـان!

إذا كان هـذا الشـعور يغلـب علـى الفـرد فـلا يمكـن أن ينفـذه دون توافـر بيئـة مواتيـة وعوامـل دافعـة لفعـل الخيـرات، وفـي تقديـري أن رمضـان الإمـارات هـو مدرسـة للعطـاء الـذي تجـد آثـاره أينمـا تولـي وجهـك، وواحـة للخيـرات يقتـدى بهـا علـى مـدار تاريخهـا.

وملامح تلك الخيرات والنفحات الروحية عديدة، منها ذلك التواصل المستمر بين القيادة وأبناء الشعب بمختلف قطاعاته والمقيمين على أرضها، امتداداً لسياسة الباب المفتوح التي أرساها المؤسسون وسار على دربهم الخلف، تعبيراً عن اللحمة الوطنية لأبناء الشعب وقيادته، وتؤكد إن اتحاد الإمارات لم يكن اتحاداً جغرافياً فحسب، بل إن اتحاد أبناء الإمارات الفكري والروحي قيادة وشعباً سبق وفرض الاتحاد المكاني والجغرافي، فصاروا حراسه والقائمين على تقوية لحمته يوماً بعد يوم، ويظهر معدنهم الصلب عند مواجهة التحديات للسير بسفينة الوطن إلى بر الأمان في ظل عالم مضطرب ومرتبك.

ولا شك أن هذه الحالة من السلام الاجتماعي التي تسود في ربوع الوطن، كان لا بد أن تنعكس وتمتد إلى أبناء أمتنا العربية وهي محيطنا الأقرب، بل وعلى البشر من حولنا بغض النظر عن جنسيتهم أو دينهم «ففاقد الشيء لا يعطيه».

آية ذلك توجيه صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، بإطلاق هيئة الهلال الأحمر الإماراتي لحملة «مصر في قلوبنا» لدعم ومساعدة الشعب المصري الشقيق، والوقوف إلى جانبه في الظروف الاقتصادية الصعبة التي يواجهها، ودعوة الخيرين من أبناء الوطن والمقيمين للمساهمة في تلبية احتياجات الشعب المصري الشقيق، الذي ظل على الدوام بجانب أشقائه العرب في محنهم وأزماتهم، ولم يتأخر يوماً في تلبية نداءات الواجب لجيرانه.

والإمارات وقد اختارت لنفسها هذا الدور، ليس من باب المن ولكن اقتداءً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد

بالسهر والحمى»، ومن منطلق واجبها نحو أبناء أمتها في العروبة أو الإنسانية، في عالم زالت فيه المسافات والحدود بين البشر، وهو ما أكد عليه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد حين قال: «أصبحنا قدوة في العديد من الميادين لأشقائنا العرب، ونحن نفتح الأبواب لهم كي يستفيدوا من تجاربنا الناجحة».

ولا شك أن حملة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد لكسوة مليون طفل محروم حول العالم، والتي ستستمر حتى التاسع عشر من شهر رمضان المبارك، والذي يتوافق مع «يوم العمل الإنساني الإماراتي» في ذكرى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ـ طيب الله ثراه ـ وهي الحملة التي تأتي في السياق الطبيعي لدور الإمارات إقليمياً وعالمياً، ولتمثل رأس الحربة لإطلاق الصوت مدوياً، للفت أنظار القاصي والداني في كل أنحاء العالم بمؤسساته وهيئاته الرسمية والأهلية، إلى كيفية تحويل الاهتمام بالطفولة إلى واقع عملي يغير من واقع الملايين الذين يعانون من العوز والحاجة، بعيداً عن المؤتمرات التي تعقد ثم تنفض ويذهب كل إلى حال سبيله، كما أنها تطلق صيحة مدوية بأن توفير الحماية للطفل ورعايته هو الذي ينتج أجيالاً لديها لياقة نفسية، وأن الاهتمام بالأطفال في صغرهم يرسم خريطة مستقبل البشرية، أما غير ذلك فإنه يمثل مرتعاً خصباً لنمو جيل يحمل كل الأمراض الاجتماعية والنفسية بعد أن يكون شب عن الطوق، ولن نتمكن من علاج ذلك بسهولة بعد أن يكون اتسع الخرق على الراقع.

ومن يتابع ظاهرة أطفال الشوارع في بعض من البلاد العربية، يدرك أهمية مد كل سبل العون لانتشالهم من هذا المستنقع الخطير.

وفي تقديري أن حملة كسوة مليون طفل محروم حول العالم، هي تطبيق عملي لأنفسنا وأولادنا ليعرفوا حقيقة ديننا الحنيف الوسطي السمح، الذي يؤكد

أن من أعظم القربات إلى الله سبحانه وتعالى إدخال السعادة على قلوب الغير، وأن المال مال الله ونحن مستخلفون فيه، كما أن من ينفقه في سبيله يخلف الله عليه ويبارك له فيه، هذا هو ديننا الذي نعرفه والذي يجب أن نعلمه لأولادنا.

ولأن السلوك السوي وفعل الخيرات ينتشر بين أبناء المجتمع الواحد عبر المحاكاة والتنافس في فعل الخير، فإن إسهامات الأفراد والمؤسّسات الحكومية والأهلية والخيرية في هذه الحملة، هو تعويد للنفس على البذل والعطاء، ودروس عملية لأبنائنا في النظر إلى من حولهم والبذل لهم عن طيب نفس، (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)، وشكر لله سبحانه على ما أفاض علينا به من نعم، وهو القائل في محكم التنزيل (وَلَئِن شَكرتُم لأزيدنّكُم)، لأن دوام النعمة بشكرها.

إن هذه المبادرات الخيرة، التي يتفاعل معها بإيجابية الخيرون من أبناء الوطن والمقيمون، فضلاً عن باقي أوجه الخير والتي باتت محطات مميزة للشهر الفضيل في الإمارات، منها المجالس الرمضانية، التي تضم نخبة من الدعاة ورجال الدين الذين ينشرون الفهم الصحيح لديننا، وجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم التي يتنافس عليها حفظة القرآن الكريم من شتى بقاع الأرض وهي الأكبر والأشهر، وأصوات المآذن التي تصدح بعذب الكلام وأطيبه من مشاهير القراء وأمهرهم حيثما كنت.. كل ذلك شاهد على أن رمضان الإمارات دائماً واحة للخيرات.

علمك يا وطن

ماذا يعني أن تتناغم حركة الشعب مع مبادرة القيادة، وماذا يعني أن يلبي الشعب نداء القيادة في رفع العلم، وماذا يعني أن ينتظم الجميع متناسقاً في عزف أجمل لحن على دقات القلوب ليخرج بشكل عفوي وتلقائي غير أنه بحركة منتظمة ومتناغمة.

في يقيني أنه بادرتنا أسئلة كثيرة وإجابات أكثر حول قيمة أعلام الأوطان ودلالتها. علم الوطن هو رمز استقلاله وعزته، وتعبير عن سيادته، إن فيه ذلك السر الذي يجعل الدم يجري في العروق حين يرفرف خفاقاً، ويجعل العيون تكتحل بدموع الحنين حين تراه والجسد بعيداً عن أرض الوطن وهو المحبوب المفتدى بالمال والدم والروح، وهذا ليس بدعاً من القول أو الفعل.

ألم يوكل الرسول الكريم راية الجيوش في المعارك إلى القادة وكان حامل الراية محاطاً دائماً ومحمياً بالسرايا التي تحول دون وصول الأعداء إليه، وكان يوصي من يحمل الراية إذا مات من وكل بها، لأن سقوط الراية كان يعني هزيمة الجيش، وهو ما جعل جعفر بن أبي طالب يموت دون سقوط الراية في غزوة

مؤتة، حين ضرب على يمنيه فحملها بيساره، فضربت يساره فحملها بعضديه حتى مات دونها، وأبدله الله جناحين في الجنة يطير بهما حتى سمي جعفر الطيار جزاء لحفاظه على راية الجيش.

إن من يدرك ذلك يعرف قيمة علم الدولة ورمزيته، إنه العلم الذي رفعه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وإخوانه حكام الإمارات يوم الثاني من ديسمبر، معلناً ميلاد الإمارات العربية المتحدة دولة مستقلة ذات سيادة، وهو ذات العلم الذي حمل أمانة صونه خفاقاً صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، فزاد ارتفاعاً وشموخاً مع كل إنجاز على أرض الدولة مع قيادة لا ترى غير المركز الأول بديلاً.

كما أنه العلم الذي يحمل ألوان رسالة دولة الإمارات، والتي لخص معانيها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، في أبيات من الشعر حين قال:

أنت ثوب العز فيك إتجسما .. فأربعة الألوان يا رمز البلاد

فيك الأبيض للسلام وتسلما .. والحمر رمز البطولة والجلاد

لونك الأخضر ربوعك والحمى .. والمعادي من سوادك في حداد

فرسالة السلام على أرضه والقاصدين له يحملها اللون الأبيض، والأحمر رمز لبطولة أبنائه وجاهزيتهم الدائمة للذود عن حياضه ببذل الدماء، ثم يأتي اللون الأخضر ليعبر عن تحويل الصحراء إلى ربوع خضراء، ويكون السواد والحداد على من يعتدي على حدوده.

إن هذا المشهد المبهج في رفع علم الوطن كان استجابة لنداء الواجب، أياً كان ذلك الواجب ومهما كان حجم التضحية له، أستطيع أن أجزم أن الشعب قام ببيان عملي، كما يطلق العسكريون على التدريبات العسكرية، أثبت نجاحه

ونجاعته، إنه شكل من أشكال التعبئة الوطنية التي تؤكد أن أبناء الوطن جميعهم جنود لكنهم ليسوا احتياطاً كما هو المصطلح العسكري، لكنهم جنود أساسيون مستعدون لتلبية نداء الوطن متى حان.

ثم إن توحيد ساعة بعينها يرتفع فيها العلم في الإمارات العربية لهو تأكيد أن الإمارات جميعها جسد واحد يسير كسرب الطير بحركة منتظمة لا يشذ عنها أحد، خلف قيادة تصل إلى الهدف بنجاح، لأن وقودها محبة هذا الوطن الذي تظلنا شجرته الضاربة بجذور قوية راسخة في عمق أرضه، ما جعلها عصية على أن ينال منها أي كاره أو حاسد أو مدفوع.

إن قيام أبناء الوطن جميعهم بتلبية نداء القيادة برفع العلم الوطني يكشف بجلاء حالة من التماهي والتناغم، ورابطاً لا انفكاك له بين قيادة أحبت شعبها فبادلها الشعب حباً بحب. قيادة ترى أن المواطن هو عز الوطن فاستقرت محبتها في الفؤاد، لتؤكد كل يوم أن الشعب والقيادة جسد واحد وروح واحدة، وهذه هي الشرعية الحقيقية التي لا يغفلها عاقل بعيداً عن كل العناوين والمسميات.

إن المعاني النبيلة التي تحملها النفوس قد تحتاج إلى إيقاظها وتجديدها بين حين وآخر، لندرك مدى الحب الذي تحمله نفوسنا للأرض التي نحيا على ظهرها. فإذا كان الإيمان ذاته يزيد وينقص كما قال الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، فكيف بباقي المشاعر مهما كان نبلها تحتاج بين الحين والآخر إلى من يحركها ويدب فيها الحياة ليدرك الفرد قيمة ما بداخله، والعبقرية تأتي من ابتكار المبادرات التي من شأنها أن توقظ فيها الكثير كاللمسات السحرية، وهنا تأتي قيمة القيادة الحقة لتأتي بمبادرات شديدة الفاعلية عميقة الأثر عظيمة الفائدة وغير مسبوقة.

كما أن مشاركة الوافدين على هذه الأرض الطيبة، مواطنيها، هذه اللحظات الخالدة ورفع العلم، لهي رسالة سلام من أرض السلام التي ما شعر فيها وافد يوماً بأنه غريب على أرضها، بل كانت دوماً بلادنا مقصداً ومزاراً لجنسيات الأرض جميعها، والتي يفوق وجودها على أرض الوطن المائتي جنسية، يتمتعون بكافة الحقوق التي عز أن يجدوها في غيرها وحتى في بلدانهم.

والشاهد، عندما سئل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، عن تعدد الجنسيات في الدولة، كان رده البليغ والحكيم: «إن الرزق رزق الله، والمال مال الله، والفضل فضل الله، والخلق خلق الله، والأرض أرض الله، ومن يعمل ويتوكل على الله يعطيه الله، ومن يعيش بيننا حياه الله». وعلى الدرب سار الخلف، فكانت محبتهم في قلوب الشعوب العربية وغيرها. لذا لم يفاجئني تسابق الوافدين وصدقهم في رفع علم الدولة بموضع القلب قبل اليدين، وهذا الرصيد من المحبة هو الذي يجعل أبناء شعوب الأرض يذودون عن الإمارات قبل الحكومات حين يمسها أحد ولو بكلمة، ويصبح منبوذاً من بني جلدته، ولا شك أن هذه الحالة تصون الدولة بقوة تعجز عنها أعظم الترسانات العسكرية في العالم، لأنها لا تنفد ولا تفسد ولا تنضب.

فطوبى لمن رفع العلم أول مرة، وطوبي لمن حافظ وعلا رايته خفاقة أبداً، وطوبى لمن أحب هذا الوطن.

مجتمعي مكان للجميع

يعـد الاهتمـام بالإنسـان هدفـاً جليـاً وأساسـياً لدولـة الإمـارات ومنطلقـاً مـن منطلقاتهـا، باعتبـار أنـه الاسـتثمار الحقيقـي للوطـن، كمـا أن فئـة ذوي الاحتياجـات الخاصـة كانـت دومـاً محـل الاهتمـام والرعايـة، باعتبارهـم مواطنيـن لهـم الحـق فـي وضـع ضوابـط تيسـر لهـم حياتهـم بعيـداً عـن الإهمـال والتهميـش.

ولا شـك أن الاهتمـام بفئـة ذوي الاحتياجـات الخاصـة هـو أحـد أهـم مقاييـس رقـي الشـعوب ومـدى تحضرهـا، وتيسـير معيشـتهم لـن يكـون إلا فـي مجتمعـات تعلـي مـن قيـم حقـوق الإنسـان. لـذا فقـد نـص دسـتور الدولـة فـي مادتـه الرابعـة عشـرة، فيمـا يخـص حقـوق ذوي الاحتياجـات الخاصـة، علـى أن «المسـاواة والعدالـة الاجتماعيـة، وتوفيـر الأمـن والطمأنينـة، وتكافـؤ الفـرص لجميـع المواطنيـن، مـن دعامـات المجتمـع والتعاضـد والتراحـم صلـة وثقـى بينهـم»، ممـا يؤكـد علـى حـق ذي الاحتياجـات الخاصـة فـي العيـش الكريـم ومسـاواته بغيـره مـن الأصحـاء، وألا تكـون الإعاقـة حائـلاً بينـه وبيـن معاملتـه كإنسـان قـادر علـى العطـاء.

وآيـة ذلـك تلـك الاسـتجابة الرائعـة لصاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد

آل مكتوم، للشاب الإماراتي أحمد الغفلي الذي رغب في مقابلته واقتناء كتاب «ومضات من فكر» فكان له ما طلب، ولأنه فاقد البصر طبع الكتاب بطريقة «برايل»، وأثنى عليه صاحب السمو حين قال له: «إنك فقدت البصر ولكنك لم تفقد البصيرة، وتملك روحاً إيجابية قادرة على مواجهة التحدي والتغلب على الصعاب».

لذا لم تفاجئني مبادرة سمو الشيخ حمدان بن محمد بن راشد آل مكتوم، ولي عهد دبي رئيس المجلس التنفيذي، مبادرة «مجتمعي.. مكانٌ للجميع»، والتي تهدف لتحويل دبي بالكامل إلى مدينة صديقة لذوي الإعاقة بحلول العام 2020، عبر دعم وتعزيز الجهود الحالية للإمارة في مجال تمكين ذوي الإعاقة، وضمن إطار جامع يسهم في تعزيز فاعلية المشاريع والمبادرات القائمة، واستحداث المزيد منها وفق رؤية ترمي إلى تعظيم مشاركة وإدماج هذه الفئة المهمة في المجتمع، وإيجاد مسارات عمل جديدة يمكن من خلالها تذليل كافة العراقيل التي قد تعترض طريق انخراط ذوي الإعاقة بصورة إيجابية في محيطهم الاجتماعي، كأفراد قادرين على الإنتاج والإبداع.

ولما كانت هذه المبادرة تهدف إلى إطلاق مجموعة من القوانين والأطر التشريعية والمبادرات التي تسهم بمجملها في تعزيز بنية تحتية وخدمية تتيح الوصول إلى كافة المرافق، والاستفادة من جميع الخدمات، وتوفير رعاية صحية متميزة لذوي الإعاقة، إضافة إلى خدمات اجتماعية مساندة، وخلق وعي مجتمعي واسع، ما يسهم في دمج ذوي الإعاقة ويؤكد مشاركتهم في تنمية المجتمع.. فإن هذا يؤكد أنها لم تتوقف فقط عند نشر الفكرة وإلقاء الضوء على فئة ذوي الاحتياجات الخاصة بصورة عاطفية، ولكن تحويلها إلى واقع معاش عبر حزمة من القوانين والأطر التشريعية.

وعندما يؤطر التعامل مع هذه الفئة من المجتمع قانون، فهنا لم يعد الأمر يتوقف فقط على الجوانب الأخلاقية الحاكمة، ولكنه تحول إلى حق مكتسب لا يمكن مخالفته والانتقال من مرحلة التطوع إلى مرحلة الحقوق، وهذا يزيد من إدماج فئة مهمة في قلب العملية المجتمعية، وتعميق انتمائها الوطني، كما أن هذه المبادرة تجعلنا دائماً ننظر من حولنا، ونشعر بأن هناك من بيننا فئة تحتاج إلى شكل خاص من التعامل تجب مراعاته.

وفي تقديري أن هذه المبادرة، التي تكتسي بلباس القانون، سوف تغير من نظرة بعض أفراد المجتمع إلى مفهوم ذوي الاحتياجات الخاصة، من أنهم عبء على المجتمع إلى فئة منتجة عبر التدريب والتأهيل، وخاصة أن كل فرد في المجتمع، مهما كانت لياقته الذهنية والبدنية، قد يكون واحداً من ذوي الاحتياجات الخاصة يوماً ما، وبالتالي فإن إغفال هذه الفئة أو عدم الاستفادة من إمكاناتها، يعد هدراً لجانب من الطاقة البشرية.

إن هذه المبادرة تؤكد على معنى آخر غاية في الأهمية، وهو تكريس ثقافة المسؤولية المجتمعية، «فما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط»، وقيمة الإنسان الحقيقية تقدر بما يسهم به من إنجازات حقيقية وما يقوم به من عمل.. وكم من أصحاء عاشوا عبئاً على أسرهم ومجتمعاتهم، ولم يمثلوا غير رقم في حياة الشعوب، غير أن هناك من واجهتهم تحديات لكنهم استطاعوا أن يتغلبوا عليها، فقد تفوق يد واحدة عمل اليدين، وقد يبدع إنسان بأطراف أصابع قدمه ما يعجز عنه مكتمل الأطراف، ورب فاقد لنعمة البصر رزق بوعي القلب ونور البصيرة، وإن العجز الحقيقي داخل النفس وليس خارجها، والقوة الحقيقة هي قوة الإرادة والتصميم على تحقيق الهدف. والله سبحانه وتعالى يقول في سورة الحج: ((فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)).

ألـم يفتـح موسـى بـن نصيـر، القائـد العربـي، بـلاد إفريقيـا والأندلـس علـى قـدم واحـدة؟ وعميـد الأدب العربـي طـه حسـين هـو أول مصـري حصـل علـى درجـة الدكتـوراه مـن جامعـة السـوربون فـي باريـس، متحديـاً فقـده للبصـر فـي الثالثـة مـن عمـره، وأمتعنـا بكتابـات عجـز عـن مثلهـا المبصـرون.. ألـم يؤلـف «بيتهوفـن»، ذلـك الموسـيقي البـارع، أجمـل القطـع الموسـيقية علـى الرغـم مـن فقـده لحاسـة السـمع، و«لويـس برايـل» الـذي فتـح بـاب القـراءة بطريقـة حملـت اسـمه ولا تـزال، و«تومـاس أديسـون» الـذي كان يعانـي مـن الصمـم إلا أن ذلـك لـم يمنعـه مـن اختـراع المصبـاح الكهربائـي.

مـن هنـا تبـدو أهميـة بـث الثقـة فـي نفـوس ذوي الاحتياجـات الخاصـة، عبـر تنميـة الشـعور بقيمتهـم الذاتيـة، واكتشـاف مـا لديهـم مـن استعدادات وميـول يمكـن تنميتهـا منـذ وقـت مبكـر، مـن خـلال التدريـب المهنـي الـذي يشـعرهم بالاسـتقلالية، ويخلصهـم مـن شـعورهم بالاحتيـاج الدائـم للاعتمـاد علـى الغيـر.

وهنـا يتعاظـم دور المؤسسـات الأهليـة فـي تحمـل المسـؤولية المجتمعيـة، والمشـاركة بقـوة فـي رفـع هـذا العـبء النفسـي عنهـم. وإذا كان العالـم يحتفـل فـي 3 ديسـمبر مـن كل عـام باليـوم العالمـي لـذوي الاحتياجـات الخاصـة، فـإن دبـي حيـن تبـادر يتوقـف الكثيـرون فـي مختلـف أنحـاء العالـم ويرقبـون حركتهـا، لأنهـم يدركـون أنهـا لا ترتضـي غيـر التميـز بديـلاً.. لذلـك فـإن مبـادرة «مجتمعـي مـكان للجميـع» سـتقدم وجهـاً آخـر للتعامـل مـع ذوي الاحتياجـات الخاصـة، وفقـاً لأعلـى المعاييـر الدوليـة، إن لـم تتخطاهـا.

عبقرية الاتحاد

إن التاريخ يتوقف طويلًا أمام الأحداث الفارقة في حياة الشعوب، والتي ما كان لها أن تكون لولا عبقرية الفكرة.. فالأعمال الجليلة والكبيرة والمؤثرة والفاصلة تبدأ دائماً بفكرة، لكنه الإنسان وما وهبه الله من قدرات قد يستطيع أن يحول الفكرة إلى واقع، وقد يتوقف الأمر عندها وتظل حبيسة العقول لا تستند إلى إرادة التمكين أو التغلب على تحديات الواقع، وقد تلامس الفكرة عزيمة رجال أشداء، تسري فيهم من الوريد إلى الوريد، وتختلط باللحم والعظم، يؤمنون بها حتى النخاع، فيحيلونها إلى واقع يلمسه الناس؛ هؤلاء هم القادة الحقيقيون الذين تخلد ذكراهم في قلوب شعوبهم.

لكن جولات التحدي لا تتوقف عندما تتحول الفكرة إلى واقع، فالتحدي الأكبر هو أن تستمر وتقوى وتتوثق عراها ويستلهم منها الغير أفكاره، تضرب المثل والنموذج، ويكثر روادها، وترتقي بأصحابها، وتنافس دائماً على الصدارة، وتكون باب الخير والنماء لأصحابها، وتحولهم من حال إلى أحسن حال.. تلك هي قصة الاتحاد، وتلك هي العبقرية الحقيقية التي تحويها تجربته والقوة الكامنة فيه، والتي تضمن استمراره مهما كانت العقبات التي تعترض طريقه، وللعبقرية في اتحاد دولتنا أوجه كثيرة.

إن من عبقرية الاتحاد أنه لم يكن موجهاً ضد طرف أو كيان أو دولة، بقدر اهتمامه بقيمة الاتحاد في ذاته وما يتحقق لأبنائه، لذا فإن شجرته ارتوت منذ البدء بالمحبة والتجرد وحب الخير للإنسان، بعيداً عن لونه وجنسه وعرقه ومذهبه، ففتحت دولة الاتحاد أبوابها للبشر من شتى بقاع الأرض واحتضنتهم، دون تمييز في الحقوق أو تعسف في الواجبات والالتزامات، فأحبوها بصدق، ومن عاد منهم إلى بلاده بقيت الإمارات في قلوبهم عزيزة كما الوطن.

من عبقرية الاتحاد الواقعية.. أن شعوبنا العربية سئمت من النظريات السياسية والشروح الاقتصادية والأرقام الخاصة بمعدلات النمو، إذ إن ذلك لم ينعكس كثيراً على حياتهم اليومية.. وهذا ما تجاوزه الاتحاد مع شعبه الذي آمن به، لأنه شعر بقيمته وعاش آثاره واقعاً كإنسان تحترم أدميته، يجد التعليم والعلاج والسكن والعمل، يحيا سعيداً في وطن السعادة، وهو ما أكدته التقارير الدولية التي لا تعرف غير الأرقام والحقائق التي لا تقبل التأويل، وهو ما لم يتحقق في كثير من التجارب الاتحادية وكان سبباً في أن تفشل، لذا فإن فلسفة حكومة الاتحاد حملت دائماً مهمة استراتيجية شديدة الوضوح عميقة المعنى؛ هي «تيسير الحياة وإسعاد المواطن».

عبقرية الاتحاد في صدق المؤسسين في أن تكون مظلة الاتحاد هي التي تضمهم، ثم تتأكد العبقرية عند من تربوا في مدرسة المؤسسين، الذين ساروا على الدرب محافظين على الأمانة والانتقال بها من طور التأسيس وتثبيت الأركان، إلى مرحلة الانطلاق إلى العالمية والمنافسة على الصدارة في مجالات مختلفة، وتلك مرحلة مهمة.

إن عبقرية الاتحاد أنه أنشأ دولة لم تكن موجودة بالأساس، على غير ما تم من تجارب اتحادية بين دول قائمة في الأساس، ولكنه في حالتنا صنع كياناً

كبيراً له قيمة في محيطه، لخصها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حين قال: «نحن لسنا دول الإمارات، بل نحن دولة الإمارات العربية المتحدة»، لأن الحقيقة الكبرى والدامغة والفارقة هي في الاتحاد، الذي أوجد دولة لها مكانة تحت الشمس وفوق الأرض.

عبقرية الاتحاد تأتي من أن البديل له شديد الظلمة والقسوة، ويدل دلالة واضحة على أن مؤسسيه قد استوعبوا دروس التاريخ جيداً وقراءة الواقع.. ولنا أن نتخيل الصورة كيف كانت ستكون في منطقتنا من دونه، ليقفز إلى الذاكرة مباشرة عصر ملوك الطوائف في الأندلس، والتي كانت بداية انهيار دولة بقيت قائمة ما يزيد على ثمانية قرون، ولكن حينما تمزقت سهل على أعدائها التربص بها.. تلك سنة التاريخ، أنك ضعيف بمفردك قوي بمن حولك.

عبقرية الاتحاد تأتي من أنه كان تنفيذاً لإرادة الله التي جعلت من دولة الاتحاد كما اللوحة الفنية المبدعة، التي لا يكتمل تمامها ولا تظهر حقيقة جمالها أو عظمة بنيانها إلا بكافة أجزائها، والكل دون الجزء مبتور، والجزء دون الكل مقهور، وتلك حكمة الاتحاد، الذي رفع شعاراً يلخص تلك الفلسفة في أن «البيت موحد».

عبقرية الاتحاد تراها حين يدعو خطيب الجمعة بأن يحفظ الله ـ سبحانه في علاه الإمارات، ويترحم على المؤسسين، ويدعو للقادة بالسداد، وللدولة بالأمن والاستقرار.. أتأمل وجوه المصلين من عربهم وعجمهم وقريبهم وبعيدهم، فأجدهم يؤمّنون على الدعاء بمحبة وصدق، تظهر آثاره على الوجوه تصحبها رجفة الأيدي في استمطار الرحمات وحفظ البلاد.. تلك لحظات تستوجب التوقف والتأمل، كيف استطاع أن يغشى الاتحاد بمظلته أبناءه وغير أبنائه، حتى يحتفل بيومه كل من استظل بشجرته فاحتضنتهم بظلها

الـوارف، دون أن تسـألهم عـن جنسـهم أو دينهـم أو عرقهـم أو مذهبهـم، فالـكل علـى أرض الاتحـاد سـواء.

إن عبقريـة الاتحـاد هي التي تحسـم المنافسـة دائماً لصالـح بلادنـا، ولا شـك أن الفـوز بتنظيـم إكسـبو 2020 آيـة مـن آياتـه التـي تكشـف بجـلاء صـورة الإمـارات في عيـون الآخريـن، وهـو ليـس اسـتفتاء دوليـاً علـى اسـتضافة حـدث، بـل هـو اسـتفتاء علـى الإمـارات ومكانتهـا، هـي محصلـة سـنوات مـن الخيـر نثرتـه الإمـارات فـي علاقتهـا مـع محيطهـا الإقليمـي والدولـي، هـو تصويـت علـى رسـالة السـلام التـي حملتهـا منـذ بـدء الاتحـاد، وعلـى حالـة السـلام التـي تمـلأ ربـوع الوطـن، هـو اسـتفتاء علـى قـوة بنيـان اتحـاد دولتنـا، وآفـاق النمـاء والاسـتثمار، والمسـتقبل الـذي ينتظرهـا.

فالعالـم لا تحركـه العواطـف الوطنيـة الجياشـة، ولا يعـرف غيـر الحقائـق، ولا تكـون اختياراتـه إلا عبـر معرفـة ودرايـة ودراسـة متأنيـة، لـذا كان الفـوز بتنظيـم إكسـبو 2020 فـي مغـزاه الحقيقـي، أكبـر مـن كونـه حدثـاً اقتصاديـاً عالميـاً كبيـراً تتنافـس علـى اسـتضافته الـدول الكبـرى، بـل هـو حصيلـة مؤشـرات المؤسسـات الدوليـة ومراكـز البحـوث التنمويـة العالميـة المعنيـة بالإنسـان وحياتـه، والتـي كانـت دولتنـا أمامهـا دائمـاً فـي مـكان الصـدارة، حتـى بـات المركـز الأول والبحـث الدائـم عـن التميـز وجهـاً آخـر مـن عبقريـة الاتحـاد.

القيادة.. صناعة الأمل

السؤال القديم المتجدد؛ هل القيادة خصائص كامنة لدى الفرد يولد بها ولا يمكن اكتسابها عبر التدريب والاطلاع؟ في تقديري أن القيادة حالة استثنائية لا ينجح فيها أو يقبل عليها إلا أعداد محدودة من البشر على مدار التاريخ، وأن هؤلاء النفر المصطفون من بين الناس، يتمتعون بطاقات نفسية توسع من دائرة رؤيتهم واهتمامهم خارج إطار ذواتهم لتشمل من حولهم، كما أنك تجد غيرهم يلجؤون إليهم عند الملمات والشدائد، وتجدهم في أول الصفوف عند الخطوب والتحديات، هؤلاء قدرهم أن يكونوا قادة.

غير أن مهارات القيادة يمكن كذلك تعلمها، وتوطين النفس عليها، واكتسابها من خلال التنشئة والقدوة والتدريب، شريطة توافر الحد المقبول من الاستعداد الفطري. لذا فإن إعداد القيادات وتأهيلها لتحمل المسؤولية أمر ممكن، بل إن القيادة الحقة هي التي تسعى دائماً إلى تربية أجيال من القيادات لتشارك في تحمل المسؤوليات الوطنية.

وإذا كان «فينيس لومباردي» يقول إن القادة يصنعون من خلال الجهد الشاق؛

«بما يعني أن كل فرد يمكن أن يصبح قائداً في مكانه عبر تعلم مهارات القيادة»، غير أنه عندي أن هنالك من يصلون إلى مرحلة الإبداع في القيادة، وهؤلاء هم من يولدون ليكونوا قادة. فقد يملك الفرد الكثير من المعرفة، ولكن لا يكون لديه رصيد من قوة وإرادة الفعل.

لذلك كان إصدار صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة قانون إنشاء «أكاديمية ربدان»، والتي تهدف إلى أن تكون رافداً أساسياً لقيادات المستقبل، ومركزاً وطنياً متميزاً لتأهيل وتطوير الكوادر في مجالات السلامة والأمن والدفاع، والتأهب لحالات الطوارئ وإدارة الأزمات، وذلك على أسس من المنهجية العلمية، لتحقيق استجابة موحدة ومتكاملة وفعّالة، للتعامل بكفاءة عالية مع جميع أنواع التهديدات والمخاطر والحوادث والأزمات المتوقعة، وغرس مبادئ التعليم المستدام، لتعزيز كفاءة الجهات المعنية.

إننا نعيش في عالم لا يسع المترددين أو الوجلين، أو الذين يضعون الستائر الثقيلة على نوافذ غرفهم، ويقولون إن الشمس لم تشرق بعد، «لأنهم لم يروها» على حد وصف صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم لهؤلاء الناس، الذين يتمترسون في أماكنهم خوفاً من التقدم خطوة إلى الأمام قد تتطلب منهم اتخاذ قرارات، في حين أنهم يفضلون أن يبقوا في المناطق التي يعتقدون أنها آمنة، ويكتفون بالسباحة في المياه الدافئة، معتقدين أن ذلك أفضل، لأن اتخاذ القرارات له نتائج لا يتحملها إلا الواثقون من قدراتهم..

والحق أن هؤلاء لا يعول عليهم أن يُحدثوا تقدماً فيما أوكل إليهم من مسؤولية صغرت أم كبرت، وهم أكثر الناس مقاومة لكل فكر جديد، ويجدون سعادة غامرة في السير على ما اعتادوا عليه، مَثلهم الذي يرددونه دائماً «الباب الذي تأتي إليك منه الريح أغلقة واستريح»، ناسين أن الرياح لن تتركهم، بل ستقتحم عليهم بابهم الموصد وتخلعه وتبعثر ما لديهم.

كما أن العبرة ليست في اتخاذ القرار، ولكن قوته تأتي من القدرة على إنفاذه ومتابعته وتقييم نتائجه، خاصة وأن القرارات المصيرية دائماً تؤخذ في الأوقات العصيبة.

وهناك جانب مهم من الصفات التي يجب أن يتحلى بها القائد، هو أن يحدد هدفه.. فمن غير الممكن أن يعيش الواحد منا بلا هدف، وأن يظل هائماً على وجهه يسرة تار ويمنة أخرى.

ماذا لو رأيت شخصاً يقود سيارته من طلوع الشمس حتى غروبها يتجول في الشوارع وبين الطرقات دون أن يحدد جهة الوصول حتى ينفد منه الوقود أو يَجِن عليه الليل؟ حال هذا كحال من عاش حياته دون أن يضع لنفسه هدفاً ويسعى للوصول إليه، فلم يجعل لحياته قيمة أو لوجوده معنى.

فمن أصبح يومه مثل أمسه فهو مغبون، ومن وضع هدفاً وأصر على بلوغه فهو كائن لا شك، لأن مدمن الطرق للأبواب لا بد أن يلج، ومن ولم يبلغ هدفه يكفيه أنه حاول ووضع لمن بعده سنة حسنة يسير عليها، وقد يكمل ما عجز هو عن إتمامه.

إننا في عصر ليس فيه مكان لمن لا يعرفون أين يذهبون، وسيبقون كمن يقف في محطة للقطار ينظر إلى البشر من حوله في حركة دائبة، ويكتفي هو بالمشاهدة فقط.

القيادة الحقيقية هي التي تبحث عن الحكمة أياً كان مصدرها، وتجيد الاستماع إلى من حولها، وتستلهم منهم أفكارها، وتشرك من معها في تحديد الأهداف وصناعة القرار، وتترك لهم مساحة للتعبير عن آرائهم، وتضع لهم الرؤية الاستراتيجية، ثم تترك لهم حرية التحرك في إطارها، مع تأكيد الثقة بهم وبقدراتهم على النجاح.

القائد لا يتعامل مع من حوله على أنهم آلات تستجيب لما تتلقاه من تعليمات بشكل آلي، ولكن أنهم بشر لهم احتياجات، لذا فإن الجانب الإنساني من أهم عوامل نجاح القيادة في إدارة فريق العمل.

القيادة الحقيقية هي التي تجيد العمل تحت الضغوط، بل تعتبرها جزءاً من مسيرة التحدي، لأن مسيرة البناء ليست مفروشة بالورود، ولكن يتخللها كثير من الأشواك، ولذا فإن القائد لا يفزع حين يفزع الناس، بل يأخذ من الصعاب وقوداً لشحذ الهمم وتفجير الطاقات واستدعاء الكامن منها.

كما أن القيادة هي القادرة على الحلم والتحليق بفكرها إلى آفاق قد يعتقد من حولها أنها أقرب إلى الخيال، وهل تحقق نجاح في مسيرة ما دون أن يبدأ بحلم في مخيلة أصحابه، حوله الإصرار إلى واقع، فأحلام الأمس هي حقائق اليوم.

إن القائد الحقيقي هو من يبشر بطلوع الفجر عندما يطول الليل، هو من يزرع الأمل عندما يدب اليأس في النفوس، وعندما يتحدث الآخرون عن المشكلات يتحدث هو عن الحلول، وعندما يتحدثون عن السلبيات يتحدث هو عن الإيجابيات..

يرى من بين المحن منحاً، لا ينظر أسفل قدميه، ولكنه يستشرف المستقبل ويبصر طاقة الضوء في آخر النفق المظلم.. عندما يتحدث غيره عن العقاب لمن لا يتبع التعليمات، يتحدث هو عن بث روح الحماسة والتحفيز فيمن حوله، ولذلك قال نابليون: «إن القيادة هي تجارة الأمل».

أوائل الإمارات وترسيخ قيم الوفاء

الإنسان كان ولا يزال القيمة التي تعتز بها دولة الاتحاد، والتي حرصت قيادتها الرشيدة على الاستثمار فيها وتطويرها، باعتبارها الثروة التي لا تنفد أو تنضب، كما أنه الصانع للتنمية والهدف منها في وقت معاً.

آية ذلك ما أكده صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، حين قال: «إن الإنجاز الأكبر والأعظم الذي نفخر به، هو بناء إنسان الإمارات وإعداده وتأهيله ليحتل مكانه، ويسهم في بناء وطنه والوصول به إلى مصاف الدول المتقدمة».

ولأن الاهتمام بالإنسان فضيلة كلية لا تتجزأ، أو ترتبط بمرحلة دون أخرى، أو تقتصر على الطفل دون النشء، أو النشء دون الشباب، باعتبارهم محور التنمية، والتغافل عن غيرهم ممن قاموا بدورهم ثم توارت عنهم الأضواء.

فقد جاء منح صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، ميدالية أوائل الإمارات إلى 43 شخصية إماراتية، ممن كان لهم السبق في مختلف المجالات

في دولة الإمارات، إضافة إلى مجموعة من أبناء الإمارات المنجزين في مجالات الابتكار والاختراعات والمبادرات المتميزة، تعبيراً عن أهمية الإنسان باعتباره ركيزة البناء.

والحق أن هذا المشهد المهيب لوطن يشكر ويقدر الأوائل والمتميزين من أبنائه، لهو كاشف بجلاء عن سر من أسرار ريادة التجربة التنموية الإماراتية، كما أنه يتطلب الوقوف أمامه طويلاً، واستخلاص ما ينطوي عليه من معان جديرة بأن يتمثلها ويقتدي بها كل مسؤول في هذا الوطن المعطاء.

لقد جاء هذا التكريم منسجماً مع رؤية القيادة التي تحرص على تبوؤ المركز الأول، وأن طموحها في هذا الدرب لا حدود له، ولا يقتصر على مجال دون آخر، غير أنها رؤية شاملة ومتكاملة تعرف ماذا تريد والسبيل إلى ذلك، وهو ما أكد عليه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، من أن «دولة الإمارات لها طموحات عالمية في أن تكون من الأوائل عالمياً في قطاعات الابتكار والاقتصاد والسياحة والطاقة وغيرها».

كما أن روعة التكريم تأتي من الأسلوب الذي اتبعته القيادة، وهو استناده إلى الظهير الشعبي، عبر استفتاء عام شارك فيه أبناء الإمارات على مدار 15 يوماً، وهي رسالة واضحة لكل مسؤول أو مبدع أو مبتكر أو رائد في أي مجال، أن رضا أبناء الوطن عما يقوم به من إنجاز وسعادتهم به، والأثر الذي يحدثه في حياتهم اليومية، هو المعيار الذي تستند إليه القيادة في التقدير.

وهذا شكل من أزهى أشكال المشاركة المجتمعية، وباب واسع يجعل من الرضا المجتمعي هدفاً لكل ما نقوم به من أعمال، وأن نفع المجتمع يسبق كل المنافع الضيقة «فما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط».

إن هذا التكريم يقدم للنشء والشباب النموذج والقدوة من أجيال الإمارات،

من خلال أشخاص بذلوا في سبيل وطنهم الغالي والنفيس، وكابدوا وتحملوا وتغلبوا على عثرات الطريق ووعورته، متحلّين بالصبر والاجتهاد، ومتسلحين بحب وطنهم والانتماء والولاء له، واختيارهم الطريق الذي جاء بتكريم القيادة لهم، وأنعم به من تكريم.

فضلاً عن أن تكريم القيادة لجيل الرواد من الأوائل، يؤكد قيمة الوفاء لأصحاب السبق الذين مهدوا الطريق لمن جاء بعدهم، وفضل السبق لا يدانيه فضل.

كما أنه يؤكد أن هذا الوطن المعطاء بقيادته وشعبه لا ينسى جيل الأوائل، وأن مرور الأيام والسنين لا يزيدهم إلا مكانة وحباً في النفس والقلب، وأن ما قدموه عصي على النسيان أو الذبول..

كيف ذلك ورواد الاتحاد، الشيخ زايد والشيخ راشد، طيب الله ثراهما، هما أول الأوائل، لأنهما أقاما دولة لا ترضى بغير المركز الأول بديلاً، ولم يكن ذلك إلا بجهد جهيد وبهمة لا تعرف الكلل أو الملل.

لذا، فإن هذا التكريم في تقديري هو ترسيخ وتأكيد لقيمة العمل ونشر ثقافته، بديلاً عن ثقافة ضربة الحظ التي لا تبني مجداً ولا تؤسس دولة، وأن التخطيط الذي يتبعه عمل هو أساس البناء.

كما أن القيمة الكبرى لهذا التكريم، أنه جاء بنفس وطني خالص في المكان والزمان، حيث المشاركة الشعبية التي تتوج بتكريم من القيادة الرشيدة على أرض الوطن وبين أحضانه هي غاية المنى، فأعظم تكريم هو الذي يأتي على أرض وطني وفي رحابه، وهو التكريم الذي لا يغني عنه تكريم العالم، ولا يكون بديلاً عنه أو مثيلاً له.

كما أنه تعميق لقيمة الولاء للوطن والذود عنه، فوطن يشكر المخلصين من

أبنائه ويقدرهم، جدير بأن يحيا في قلوبنا وعقولنا، كما أنه إعلان واضح بأن مقياس المفاضلة بين أبناء الوطن، يكون على أساس العطاء له، والبذل في سبيله، والذود عنه، ورفع رايته عالية بين الأمم.

ومما استوقفني في تلك الصورة الرائعة، هذا التنوع بين المكرمين، إذ شمل المراحل السنية المختلفة، من النشء والشباب والرجال وكبار السن، ليؤكد أننا أمة حية تتكامل فيها الأجيال ولا تتصارع، كما أن الإبداع ليس حكراً على جيل دون آخر، وتلك من سمات الأمم التي تستمر مسيرتها ويعلو بنيانها، وهذا هو حال وطننا.

ألم يدفع المؤسسون الراية للجيل الذي تربى في مدرستهم؟ فحافظوا ونموا، وانتقلت البلاد من مرحلة التأسيس والبناء إلى مرحلة الابتكار وصناعة المجد.. كما أن التنوع بين المكرمين والمكرمات يؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، المكانة التي تحتلها المرأة في بلادنا، وأنها الجناح الثاني لمسيرة البناء، بعد أن انتقلت من مرحلة التمكين إلى مرحلة الانطلاق والإبداع.

كما أن التنوع في المجالات التي برع فيها المكرمون بين العلوم والآداب، لهي دلالة بالغة على أن أبناء الوطن يملكون قدرات خلاقة قادرة على العطاء والتحدي في شتى الميادين، ما يثري المسيرة التنموية الظافرة ويحافظ على ديمومتها.

إن هذه الصفحة المشرقة من تكريم الناجحين والمبادرين والمتميزين وأصحاب السبق والعطاء ومنحهم ميدالية الأوائل، لتؤكد أن أبناء الإمارات قادرون على صنع مستقبلها، وأن التاريخ لا يعرف إلا أصحاب المراكز الأولى، كما أننا قيادة وشعباً نحب هذا الوطن ولا نرضى عنه بديلاً.

مــــن أرواحهــــم تجسدت روح الاتحاد

في مثل هـذا الوقـت مـن كل عـام تهـب علينـا نسـائم الاتحـاد العطـرة، لتسـري في نفوسـنا روح جديـدة، ونسـترجع ذلـك الماضـي التليـد لنسـتلهم منـه الـدروس والعبـر، ونقتبـس مـن قبسـه نـوراً نسترشـد بـه، ومـن طاقـة أصحابـه قـوة نتغلـب بهـا علـى تحديـات المسـيرة، ليـس علـى المسـتوى الوطنـي فحسـب.

ولكـن علـى مسـتوى الفـرد والأسـرة أيضـاً، ونتـدارس مـع الأولاد والأحفـاد حكاية شعب تحول من إمارات متفرقة رغم تصالحها، إلى دولـة عصرية صارت أنموذجـاً يحتـذى بـه بعـد الاتحـاد.

ونتذكـر سـيرة مؤسسـيه، وكيـف بـدأت الفكـرة فـي عقـل وفكـر الشـيخ زايـد بـن سـلطان آل نهيـان، طيـب اللـه ثـراه، وأعانـه عليهـا رجـال كانـت محبـة الوطـن والإخلاص لـه والسعي لما فيه نفعه، أحب إليهم من أنفسهم، فتناسوها وذابت أرواحهـم حتـى صـارت روحـاً واحـدة تهفـو إلـى الاتحـاد وتصفـو لـه، وتجمعـت أجسـادهم وتكاتفـت كالبنيـان المرصـوص.

فصارت كالجسد الواحد الذي لا يمكن أن يستقيم إذا أصاب مكروه أي عضو من أعضائه حتى يشفى، بل إن باقي الأعضاء تتداعى له بالسهر والنصَب، كما أنه لا يمكن أن يتم تمامه عند فقدان أي من تلك الأعضاء.

هذه هي عبقرية الاتحاد، وهذا هو السر المكنون في روحه، إنه ولد ليبقى، كما أنه بقي ليكبر ويزداد رسوخاً في نفوس أبنائه قبل أرض الواقع، ويتعمق إيمان الأجيال به يوماً بعد يوم، ولتسري روح الاتحاد في أوصال الوطن، والروح هي سر الحياة وبها تبقى وتدوم.

إن عبقرية الاتحاد أنه لم يقم على أساس عاطفي أو جذوة وطنية قد تشتعل حيناً وتهدأ حيناً آخر، رغم أهمية تغذية هذا الشعور والمحافظة عليه، غير أن أبناء الوطن قد لمسوا حاجتهم إلى الاتحاد وازداد إيمانهم به مع مرور كل يوم، بعد أن أيقنوا أن الخير في غراسه والعز من نبته والأمن ثمرة من ثمراته.

هذا الاتحاد لم تغذه الشعارات البراقة والأماني التي تبتعد عن الواقع رغم صعوبته، ولكن كان العمل الجاد والعرق والجهد وصدق قادته ومن حملوا الراية من بعدهم، مداد إنجازاته، فأصبح حاضراً في حياة كل فرد متحدث عن نفسه.

وصار الارتباط به مبعث الحياة، وانتقل قادته من تلبية احتياجات شعبهم، من تعليم ومسكن وصحة وحياة كريمة، إلى الرضا عما يقدم، ثم إلى السعادة به، حتى أصبح شعب الإمارات العربية المتحدة أسعد شعب، ووطنهم مقصد القاصي والداني، ووجهة مفضلة للعمل والإقامة في ظل مجتمع ساده التسامح وباتت أرضه عاصمة له.

وعظمة دولة الاتحاد أنها قد حددت غايتها منذ النشأة، فاختارت ميدان المنافسة وأعدت له العدة، فلم تكن تستهدف العدوان أو التجمع ضد أحد على المستويين الإقليمي أو الدولي، فعملت على نشر السلام ومد يد المساعدة

للأشقاء والأصدقاء، فجاءت دولة الإمارات العربية المتحدة في المرتبة الأولى عالمياً كأكثر الدول المانحة للمساعدات الإنمائية الرسمية «أو دي أيه»، مقارنة بدخلها القومي الإجمالي عام 2013.

ولم يكن ميدان معركتها جبهات القتال، ولكن كان ميدانها العمل والعرق وبذل الجهد والبناء، والشاهد ما حققته الإمارات وما سجلته من مراكز لا أقول قياسية، بل مراكز إعجازية، فحجم الإنجاز يتضح حين تكون الرؤية في نوعه والمدة التي تحقق خلالها والبيئة المحيطة به ليتضح حجم الجهد والبذل.

لذا فإن الأرقام خير معبر عما وصلت إليه مسيرة دولة الاتحاد، التي جاءت في المركز الأول عربياً والثامن عشر عالمياً عام 2013 لأفضل مكان يمكن أن يولد فيه إنسان، كما أن حالة الرضا المجتمعي انعكست على صحة العلاقات المجتمعية بين أبناء الوطن وبينهم وبين المقيمين على أرضه، فجاءت الإمارات في المرتبة الرابعة عالمياً بين أفضل عشر دول في تدني نسبة الجريمة.

كما أن دولة الاتحاد لم تهتم بالحجر دون الإنسان، ولكن كان الإنسان هو محور عملها باعتباره الثروة الحقيقية والضمانة للازدهار والتقدم.

لذا فإنه نتيجة للارتقاء بالتعليم والاهتمام بالإنسان تصدرت 10 جامعات من دولة الإمارات العربية المتحدة قائمة أفضل 50 جامعة في الوطن العربي بعدد 10 جامعات، بناء على تصنيف مؤسسة «كيو إس» العالمية لتصنيف الجامعات في المنطقة العربية 2014، كما تصدرت دولة الإمارات ممثلة بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، المركز الأول عالمياً وبنتيجة 96٪ في مؤشر «حركة الطلبة إلى داخل الدولة»، محققة قفزة نوعية كبيرة.

إن تحقيق مثل هذا الترتيب في المؤشر يعني أن معظم دول العالم تجد في دولة الإمارات العربية المتحدة البيئة العلمية الخصبة والصحية، التي تتوافر فيها كافة

العناصر الجاذبة لطلبة العلم وللجهات والمؤسسات والحكومات الداعمة لهؤلاء الطلبة، الذين يختارون المؤسسات الأكاديمية الشامخة بعلمها على أرض الدولة.

ولأن دولة الإمارات تدرك أن المرأة هي الجناح الثاني لعملية البناء، سعت دائماً إلى تعزيز مكانة المرأة الإماراتية والارتقاء بها عالمياً، والتي لها دور فعال في تمكين المرأة التي أسهمت في رفع مكانتها، مما ساعدها على النجاح في مختلف القطاعات.

وكان من إنجازات دولة الإمارات حصولها على المرتبة الأولى عالمياً في مؤشر احترام المرأة، ضمن تقرير عالمي جديد مختص بقياس التطور الاجتماعي في مختلف دول العالم، وجاء التقرير بتوصية من مجلس الأجندة الدولي التابع للمنتدى الاقتصادي العالمي، ليقيس مدى التطور الاجتماعي في الدول، كمقياس جديد مكمل لتقارير التطور الاقتصادي، وليمثلا معاً معياراً رئيساً لقياس مستويات التنمية في دول العالم.

واحتلت المركز الأول عالمياً في مؤشر كفاءة الأداء الحكومي، وحققت المركز الأول عالمياً في حسن إدارة الأموال العامة، وذلك حسب الكتاب السنوي للتنافسية العالمية 2014، الذي يعد أحد أهم التقارير العالمية التي تقيس مستوى تنافسية الدول.

إن المؤشرات الشاهدة على المسيرة المظفرة لدولة الإمارات العربية المتحدة أكبر من أن تحصى، وأقيم من أن تعد، بعد أن غيرت واقعاً ونمت شعباً، وما سبق هو غيض من فيض يشهد بجلاء على سيرة وطن ومسيرة شعب التحم بقادته، فسطر ولا يزال لوحات المجد والفخار بمداد من البذل والجهد وحب الوطن..

فطوبى لمن حافظ ونمى، وطوبى لمن كانت روح الاتحاد تجسيداً لأرواحهم، وكل عام وأنتم بالاتحاد أقوى وأعز.

في البدء كانت رؤية

كثيرون هم الذين يبحثون عن سر التجربة الإماراتية، وكثيرون هم الذين أعياهم التحليل والتفسير لأسباب نجاحها وتميزها، هل هي الوفرة المالية أو الانفتاح على العالم؟ أم هو ذلك التناغم والتماهي بين القيادة والشعب؟ أم هي حالة التسامح وقبول الآخر التي جعلت الإمارات واحة للسلام؟ أم هو الإعلاء من قيمة الإنسان التي تجعل قيادته لا تألوا جهداً في إرسال طائرة خاصة لإغاثة ملهوف أو من تقطعت به السبل أو حالت الظروف بينه وبين العودة إلى الوطن؟ الحق أن هذه الأسئلة تداعب فكر الباحثين والدارسين والمعنيين بمجال التنمية، كلما ظهر على السطح حديث عن التنمية والسبيل إلى الارتقاء على سلم الرفاه والتحضر.

ولا شك أن كثيراً من العوامل السابقة التي تم طرحها على درجة كبيرة من الصواب، غير أنه فات هؤلاء وأولئك أن السر الحقيقي في قوة التجربة الإماراتية في التنمية، هو «وضوح الرؤية» وما تشتمل عليه من محددات، تلك الرؤية التي لا تجد في قاموسها كلمة «المستحيل»، وتتحدث عن تحقيق الحلم

كأنه واقع تستطيع أن تلمسه بيديها وترى صورته شاخصة رأي العين، تبث تلك الروح الإيجابية من حولها فينصهر الجميع في بوتقة واحدة كأنهم جسد واحد يساند بعضه بعضاً.

ولا شك أن وضوح الرؤية هو الدافع للإنجاز، بل إن قطع نصف الطريق إلى تحقيق الهدف يحدده وضوح الهدف ذاته، وهذا حال كل عمل منظم.

ففي الحروب يحدد القائد الأعلى للقوات المسلحة ما يمسى بالقرار الاستراتيجي للحرب، والذي يعني الغاية من شنها، وعلى أساسه تعبأ القوات وتتحرك الجيوش ويقيّم الأداء، وإذا كان ذلك يحدث في المعارك العسكرية فإنه يحدث كذلك في معارك البناء والتنمية مع اختلاف الجبهات، بل وعلى أساسه تتحرك جنود البناء وكتائب التنمية لتعزف لحناً واحداً دون تداخل أو نشاز.

لذلك كان من المنطقي أن يبدأ صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم أطروحاته الفكرية بعنوان «رؤيتي»، تلك الرؤية التي أجملها بين دفتي كتابه، كما يفصلها لأبناء الإمارات وغيرهم من رجال البناء في العالم العربي كلما واتت الفرصة لذلك.

ومنها جلسة العصف الذهني التي ترأسها سموه مع فريقه منذ أيام قلائل، والتي كشفت عن جوانب مهمة من تلك الرؤية التي تعظم من قيمة الإنسان وتراه محور التنمية والضمانة الحقيقة للحفاظ على مكتسباتها، وأن الاستثمار في بنائه هو أعظم الاستثمارات وأكثرها عائداً.

لأنه بالفكر تصنع التنمية الحقيقية، لا بالمال وحده، ولأن العالم يتقدم ويعيش بأفكار أبنائه، لذلك فإن الثقة التي حرصت القيادة دائماً على بثها في الشباب، كانت بالنسبة لهم طاقة فعل، فضلاً عن الدفع بهم إلى المشاركة في تحمل مسؤولياتهم الوطنية والمشاركة في مسيرة البناء متسلحين بالعلم وأدوات

العصر، هي الهدف الذي سعت إليه دائماً من خلال إطلاق التخصصات التي تلبي احتياجات العصر.

كما أن هذه الرؤية تأسست على أهمية العمل في إطار فريق، باعتبار أن فريق العمل يمثل من خلال أعضائه طريقة تفكير شريحة واسعة يصعب على الفرد الإلمام بكافة جوانبها، ففرق العمل هي بيئة للإبداع لأنها تشكل مزيجاً من الآراء المختلفة ووجهات النظر المتباينة، التي تتجاذب مع بعضها لتنتج في الأخير رؤى إبداعية تفوق قدرات الفرد المنفرد، وآية ذلك ما أكد عليه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، حين قال: إن صناعة فريق عمل قوي وناجح أكثر ما يفتخر به أي قائد.

كما أن هناك الآلاف من فرق العمل الناجحة والمتفانية التي تعمل في الحكومات المحلية والحكومة الاتحادية هي السبب في نجاح الدولة، كما أن التفوق رحلة مستمرة ليست لها محطة نهائية، والعالم لا يمنح الفرص للآخرين، إنما الفرص تقتنص بقوة العزم وإرادة الفعل، وكما يقول الشاعر «وما نيل المطالب بالتمني * ولكن تؤخذ الدنيا غلابا»، كما أن التحديات لا تحول دون تحقيق الأهداف، لكنها التجارب التي تصقل معادن الرجال وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

كما أن هذه الرؤية حرصت على الجمع بين الأصالة والمعاصرة، من خلال الانفتاح على العالم لانتقاء أنسب وأفضل الممارسات في شتى المجالات، مع الحفاظ على الثوابت الثقافية وتعزيز الهوية الوطنية والتأكيد على شخصيتها التي تميزها، وأهم ملامحها التمكين للغة العربية لتحتل المكانة اللائقة بها.

هذه الرؤية ترى أن الوطنية الحقة ليست شعارات ترفع أو كلمات تردد لا تبرح مكانها، بل هي طاقة عمل وإرادة لا تعرف التردد، وعزيمة لا تكل ولا تمل

للوصول إلى الغايات التي من شأنها إسعاد الناس وتجويد حياتهم، وأن خدمة الأوطان ليست وظيفة لكنها حياة تمتد بامتداد صنائع الخير لكل فرد يعيش على هذه الأرض الطيبة، التي لم تضنّ يوماً بثمارها على من وضع البذرة ورعاها، لذا كان الفخر بمن أسس والتقدير لمن حافظ وعمر.

كما أن هذه الرؤية، رغم أنها ذات صبغة وطنية خالصة، غير أنها سمت عن القطرية وفتحت الباب على مصراعيه للأشقاء والأصدقاء للتعاون والاستفادة منها، وليس أدل على ذلك من قول صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم: «كل الإنجازات التي تحققت في الإمارات إنجازات للعرب جميعاً، وكل مشاريع دبي للعرب جميعاً.

وسيتصدر هذا الاعتبار تفكيرنا في كل المشاريع التي سننفذها في المستقبل، وهذه كل تجاربنا وخبراتنا نضعها بين أيديهم يختارون منها ما يشاؤون، وفوقها التزامنا الأخوي بتقديم كل العون الذي نستطيع تقديمه لمساعدتهم على تحقيقها».

وفي تقديري أنه من الفهم الملتبس أن يعتقد البعض أن هذه الرؤية تتعلق بشؤون السياسة ورجال الدولة وقيادة الشعوب فحسب، بل هي النبع الذي يجب أن يستلهمه كل صاحب مسؤولية ومن تناط به قيادة فريق عمل، والاستناد إليها باعتبارها محددات للإنجاز، ذلك أن التجربة التنموية لبلادنا والتي كشفت عن قوتها المؤشرات وبيوت الخبرة الدولية، في البدء كانت رؤية.

من التميز إلى الابتكار

إن الطريق إلى التقدم والانطلاق إلى العلا ليست له علامات تحدد السرعة، لكنه انطلاق لا حدود تحده أو تحول دون الوصول إلى غاياته غير ضعف الهمة وخور الإرادة وعدم امتلاك الرغبة التي تدفعها طاقة لا تعرف الملل أو الكلل، والأمم الطامحة إلى السير في هذا الطريق لا ترضى أو تقنع بما حققته، لكنها تدور مع رحاه حيثما دارت، ولا تقبل أن تكون على الهامش تنتظر من يفسح لها الطريق، وإلا طال انتظارها ولم تبرح مكانها.

لذلك كان حرص القيادة الرشيدة، منذ وقت مبكر وبرؤية استشرافية، على الدعوة إلى التميز، والتي سارت بين ربوع الإمارات، كما تهب نسمات الخير تحمل غيث الرحمة..

انطلقت سحائب التميز من دبي لتهطل بالخير حيثما شاءت وأنى شاءت، فالخير كله يرجع لأبناء الإمارات، فغسلت بطيب نداها العقول، وشمرت السواعد لتنطلق مسيرة من التنافس في الخير والبناء، بمشاركة أبناء الإمارات أينما كانوا ومهما ضاقت أو اتسعت مسؤولياتهم وتباينت أعمارهم.

وكانت مجموعات التميز في إمارات الخير تعمل كخلايا النحل، كل يؤدي عمله رجالاً ونساء، فالكل في سفينة التميز التي تبحر بهم جميعاً إلى شاطئ النجاة، والأفضلية لأصحاب العطاء الذين يبنون ولا يهدمون، ييسرون على الناس أمور حياتهم ولا يعرقلونها، يقدمون يد المساعدة والخير، لا شوك الأذى والتجريح، عملاً بقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «خير الناس أنفعهم للناس».

وهكذا كانت فرق التميز، التي كان لي شرف الاطلاع على تجاربها الرائدة والمفاضلة بينها، رغم صعوبة القول الفصل في ذلك، فواحة التميز مليئة وغنية بكافة أشكال العطاء والخير، الذي يسعد الناس وييسر أحوالهم ويجوّد حياتهم، وهي غاية المنى ومنتهى الأمل.

الأمر الذي جعل التميز روحاً تسري في كافة مفاصل الدولة بقطاعيها الحكومي والأهلي، روحاً لا تقبل بالمتاح أو النمطية في الأداء أو يكفيها الرضا، ولكن تطمح، كما أكد صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، إلى إسعاد الناس، وهي مرحلة أعلى من الرضا، فقد يرضى الفرد دون أن يسعد.

وتطلع الأشقاء والأصدقاء إلى تجربة الإمارات، التي باتت نبعاً ينهل منه ويتمثله كل راغب في تجويد حياة الناس، وجاءت المؤشرات الدولية من كل حدب وصوب وفي شتى المجالات، سواء في التنافسية أو الكفاءة الحكومية أو إسعاد الناس أو في الشفافية، وغير ذلك كثير، لتوضح لنا أين نحن وكيف ينظر إلينا الآخرون، فلم يعد هناك من يستطيع أن يعيش بمفرده منعزلاً عن عالمه.

ولأن الرضا بالواقع والأنس به، مهما كانت قوته ورسوخه، هو أول مراحل التراجع، كانت الانطلاقة التالية في التحول من التميز إلى التفكير الابتكاري، الذي يعد حاجة ملحة من حاجات العصر الذي تعقدت فيه المشكلات

وتشابكت لدرجة تجعل الحلول النمطية والتفكير المعتاد أمراً غير ذي جدوى، ولا بد من التفكير «خارج الصندوق».

وجاء افتتاح «مركز محمد بن راشد للابتكار الحكومي» متسقاً مع تلك الرؤية، حين أكد سموه أن التغيرات المجتمعية السريعة، والقفزات التقنية الهائلة، والمنافسة بين الدول، تجعل الابتكار ضرورة يومية في عمل الحكومة.

ورغم أن الحكومة الاتحادية اليوم هي الأكثر كفاءة عالمياً، حسب المعهد الدولي للتنمية الإدارية في سويسرا، إلا أن الهدف الجديد هو أن تكون الأكثر ابتكاراً عالمياً، وأن يكون الابتكار عادة حكومية وممارسة يومية وثقافة مؤسسية راسخة.

ولا شك أن هذه الرؤية ترتكز على عدة محاور يجب الوقوف عندها بالنظر والتحليل، أولها «الابتكار الحكومي».

إن الحديث عن الابتكار دائماً يقترن بالأفراد أو على نطاق جمعي محدود، كما أن العمل الحكومي دائماً ما يرتبط بمتلازمة البيروقراطية أو الروتين، وهنا يأتي التحدي الذي يتمثل في أن العمل الحكومي ذاته يكون منبع الابتكار والمصدّر له، وأن يمارس العاملون في المؤسسات الحكومية، الابتكار كجزء من ممارساتهم اليومية.

لا أن يكون مقبرته، وما يفرضه ذلك من مهارات وصفات يجب أن تتوافر في الملتحقين بالركب، وينتفي معها التراخي الفكري وعدم التطوير الدائم للذات، لأن الابتكار الحكومي في أكبر معانيه هو استثمار للطاقات البشرية.

ورغم أهمية الابتكار على المستوى الفردي وضرورته، إلا أنه يظل كومضات الضوء التي تنير المكان لفترة محدودة وتتلاشي، لأسباب كثيرة في مقدمتها غياب الراعي، سواء على المستوى الفكري أو المادي.

فكم من أفكار مبدعة لم تجد من يدفعها لترى النور وينتفع بها الناس فماتت في مهدها، فضلاً عن عشوائية التوجه وعدم وجود رؤية شاملة توضح المجالات التي تحتاج أكثر من غيرها إلى الابتكار والإبداع.

فضلاً عن أن الجهد الفردي قد ينير جانباً من حياتنا ولكن لا يصنع تقدم أمة، وهو ما يوضح أهمية أن يكون الابتكار عملاً مؤسسياً، دون أن يعتمد على المبادرات الفردية التي قد يطول انتظارها، دون وجود آلية قادرة على إدارتها وعلى صناعة ورعاية المبتكر.

وخاصة إذا علمنا أن نسبة تسعين في المئة من الابتكار جهد يبذل، وأوضح مثال على ذلك أن أعظم لاعبي العالم في كرة القدم وأكثرهم موهبة، قد يصنع الفارق في مباراة أو اثنتين، وقد يسعد الجماهير بمهاراته، غير أنه من الصعوبة أن يهدي لفريقه بطولة.

من ناحية أخرى، فإن تولي الحكومة مسؤولية صناعة الابتكار ورعاية أصحابه وجعله ممارسة يومية، ستكون له انعكاسات كبيرة على مجالات حياتنا المختلفة، سواء في مناهج التعليم التي يجب أن تعد الطالب المؤهل لمسايرة ركب التقدم، أو في المادة الإعلامية المقدمة التي ترعى أصحاب الأفكار الابتكارية، وإلقاء الضوء على ممارساتهم وإشاعة ثقافة الابتكار في مجتمع لم تعد قيادته تقبل دون الابتكار طريقاً وإسعاد شعبها غاية.

الخدمة الوطنية عندما يتحـول الانتمـاءُ ولاءً

بعيداً عـن التعريـف الاصطلاحـي الـذي تزخـر بـه قواميس اللغـة، واسـتناداً إلـى إحسـاس النفس وخلجاتهـا والخواطـر السيارة على العقـل والنفس في وقـت معـاً، فإن الانتمـاء هـو إحسـاس فطـري غريـزي يولـد مع الفـرد دون إرادة منه، ويقتـرن بـه ويكبـر معـه، لا خيـار للفـرد فيـه كمـا لا خيـار لـه فـي اختيـار والديـه أو محبتهمـا.

والحـق أنـي لـم أفاجـأ بذلـك الإقبـال الحماسـي للتسـجيل فـي مراكـز الخدمـة الوطنيـة، مـن شـباب أعطاهـم وطنهـم الأمـن والعـزة والعيـش الكريـم، فاختلطـت محبتـه بالعظـم واللحـم، وحينمـا يكـون نـداء الوطـن تُصـمّ الأذان عـن كل الأصـوات إلا صوتـه.

ظهـر ذلـك منـذ طرحـت فكـرة الخدمـة الوطنيـة الإلزاميـة فقابلهـا أبنـاء الوطـن شـباباً وشـيباً بالابتهـاج والبشـر، ولا شـك أن ذلـك يرجـع إلـى رغبـة عارمـة تمـلأ النفـس فـي رد الجميـل لوطـن كان لأبنائـه أمـاً رؤومـاً، جعلتهـم يعيشـون حالـة مـن الرضـا يؤكدهـا الواقـع، منـذ زايـد العطـاء والخيـر المبشـر والبانـي للاتحـاد، مـروراً بخيـر خلـف لخيـر سـلف ممـن تربـوا فـي بيـت المؤسسـين وكانـوا علـى الـدرب سـائرين فبادلهـم شـعبهم حبـاً بحـب.

كما تؤكده كافة الدراسات التي خرجت من مراكز دولية لها محددات واضحة لقياس الرضا والسعادة، ولا أبالغ إن قلت إن هناك معادلة عجيبة قد حققتها دولة الإمارات قيادة وشعباً، هي أنها أسست مدرسة للعطاء العالمي جعلت محبتها في القلوب تتعدى أبناءها، فما بالك بأهل الدار وأصحابها.

لذا يمكن القول، ولن أقول بموضوعية لأنني متحيز للوطن وقضاياه، لكن بوضع مقاييس الانتماء والتي دار في إطارها المتخصصون والخبراء ستجدها شاخصة أمامك حين تتحدث عن وطن منح الأمن والأمان لأبنائه، بعيداً عن الدخول بهم وبمقدراته في مغامرات غير محسوبة، وطن جعل من البناء والتعمير وتحدي الصعاب القضية التي تشغل قادته وشعبه، وطن يجعل من التميز ثقافة شعب ومن العطاء خلقاً وطبعاً.

إن أهمية الخدمة الوطنية تأتي بداية من مسماها، فهي تنتسب إلى الوطن؛ وهو المكان الذي يحل فيه الفرد ويتخذه مقاماً، كما أنها الحالة التي يشعر الفرد فيها بحنين إلى المكان الذي رأت عيناه أول ما رأت نور شمسه، وامتلأ صدره بعليل هوائه، وتحسست قدماه تبر أرضه، والتصق جسده بحبات رمله فصارت أغلى من حبات الياقوت والمرجان، والمقام تحت سمائه غاية النفس ومنية القلب، وليس ذلك مجرد دفقات شعورية تغلفها العاطفة فقط لكنه العلم والواقع، فقد عرفنا ورأينا الذين أصيبوا بمرض «الغربة» خلال دراستهم في الخارج ولم يستطيعوا أن يكملوا دراستهم، رغم الطبيب ورغم الدواء إلا أن داء حب الوطن ليس له شفاء، فنحن لا نختار حين نحب ولا نحب حين نختار، كما أننا لا نحب فقط العيش تحت سمائه ولكننا نوصي عند الممات أن يكون مثوانا باطن أرضه، وكأن لنا بتراب الوطن عند الممات أُنساً من الوحشة وكأنه يعرفنا وكأن أرضنا أرفق بنا وأحنّ.

إن الانتماء للوطن هو ذلك الإحساس الذي يجعل للفرد كياناً ووجوداً،

كيف لا وهو الذي وهبه جنسيته، وكان بقاؤه مرتبطاً ببقائه، وعز الفرد مرتبطاً بعز وطنه، لذا عندما تتعارض المصالح الفردية مع مصلحة الوطن تكون الاعتبارات الوطنية قبل أي اعتبار، وتسبق محبته ورفعة شأنه محبة الأهل والولد عند الذود عن حياضه.

الله سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل: ((قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)) صدق الله العظيم. من هنا فإن الانتماء للوطن يبدأ أولى حلقاته من الأسرة ودورها في بث هذه القيمة النبيلة في نفوس أبنائها، كما أن من اعتاد الانتماء إلى أسرته، وهي وطنه الأول، سيكون انتماؤه لوطنه الأكبر أشد، ومن عق أسرته لا تنتظر منه خيراً ولا ترجو له نفعاً.

ثم يجيء دور المؤسسات التربوية بداية من مراحلها الأولى وليس انتهاء بالجامعة، لغرس هذه القيمة عبر مناشط عملية عديدة يمكن ممارستها، أولها الانتماء إلى المكان الذي يتلقون فيه العلم والحفاظ عليه.

ولأن للمواطنة الحقيقية أركاناً أساسية يجب أن تكتمل، فمن أهمها ركن الانتماء الذي يجعل إحساس الفرد بوطنه كإحساسه بذاته أو أكبر، وأن النيل منه أو المساس به هو تهديد لكيانه ذاته.

وهل من الممكن أن يعيش الفرد دون انتماء لأرض أو لشعب أو لنظام أو منظومة قيمية واجتماعية؟ إن من أقسى المشاعر تلك التي تنتاب الفرد حين يكون بلا هوية يستند إليها وبلا إطار جامع يفخر بالانتماء إليه، فهو المرجعية الكبرى عندما تلتبس الأمور وتختلط، ومصلحته هي البوصلة التي يهتدي بها حين تشكل عليه القضايا. ولا شك أن الانتماء للوطن من أهم مصادر قوة

المجتمع والتقارب بين أبنائه، والشفرة التي تميزهم عن غيرهم وتجمعهم على أمر غير مختلف عليه، وليس محل خلاف أو نقاش أنه هو الحاضنة والجامعة التي تذوب فيها كل الخلافات والاختلافات المذهبية والعرقية والفكرية.

ولأن الفرد لا يمكن أن يطبق المعنى الحقيقي لمفهوم المواطنة دون إحساسه بالانتماء له، ولأن هذا المعنى من غير الممكن أن يكون إلا عبر الممارسة والسلوك الفعلي، ولا شك أن ممارسة قيم الانتماء ذات أوجه متعددة، لأنه العاصم من القواصم والمخلص من العديد من الآفات الاجتماعية، فإن الخدمة الوطنية هي أبهى صوره وذروة سنامه، والتي لا تعبر عن الانتماء فحسب، بل هي عنوان الولاء والكاشفة عنه والذي يأتي عندما يصدق الانتماء، فقد ينتمي الفرد إلى المكان بحكم النشأة والولادة غير أن الولاء هو التطبيق لهذا الانتماء، فلا ولاء دون انتماء، وهو ما حول الإمارات من وطن نعيش فيه إلى قصة حب وهيام تعيش في نفوسنا وترسم على قلوبنا وجهه المشرق بشمس العزة والكرامة.

عندما يكون الإعلام شريكاً في التنمية

من المقطوع به يقيناً أن ما تقدمه وسائل الإعلام لا بد أن يتماهى مع المجتمع الذي تنبت فيه، وأقول تنبت فيه لأن الرسالة الإعلامية تعيش بقبول المجتمع لها والتفافه حولها، وهو الذي يكتب لها الذيوع والنجاح حين تكون تعبيراً صادقاً عن مجريات حياته وحين يستشعر بأنها تلبي له حاجة، أو تساعده على اكتساب مهارة، أو ترشده إلى الطريق الأمثل للتعامل مع قضية من القضايا أو حدث من الأحداث، أو تمده بالخبر الصادق في الوقت المناسب، أو تنمي له فكراً أو ترقي له شعوراً، أو تقوّم له ولمن حوله سلوكاً، أو تحلل له من الأخبار أو الأحداث ما عجز عن فهمه، أو تلقي بالضوء على ما التبس عليه من أمور وما أشكل من قضايا، أو تمد له يد العون وتساعده على حل مشكلة تواجهه، أو تزيد من معرفته وتنمي معلوماته وتحيطه بما حوله من أحداث وقضايا، عندئذ يصبح الإعلام بحق مرآة لأبناء المجتمع، الذين يعطون الرسالة الإعلامية بدورهم الشرعية المجتمعية.

عندئذ تكون وسائل الإعلام قد حققت ما دعا إليه صاحب السمو الشيخ

محمد بن راشد، من أهمية أن يقوم الإعلام بدور إيجابي في المجتمع؛ والإيجابية هنا كما وضحها سموه لا تعني غض الطرف عن التقصير في أي جانب إن وجد، ولكن ألا يقتصر دور الرسالة الإعلامية على تناول المشكلات فحسب، بل أن تسهم في الوقت ذاته في وضع حلول لها وسبل مواجهتها، وأن تقوم بدورها المجتمعي في التوعية والتوجيه بآليات التغلب عليها عبر مشاركة أفراد المجتمع، سواء صغرت أو كبرت..

الإيجابية تعني أن لا تسعى الرسالة الإعلامية إلى تضخيم مشكلات فردية وتقديمها باعتبارها ظاهرة، ولكن من الأهمية بمكان عدم التفريط أو الإفراط في تقديم الرسالة الإعلامية، حتى تحتفظ الوسيلة الإعلامية بمصداقيتها لدى الجمهور.

إن المنطق التجاري الغربي في البحث عن الأخبار المثيرة لجذب القارئ أو المشاهد، لفظه الغرب ذاته وظهرت لمواجهته وتقويمه نظرية المسؤولية الاجتماعية في الممارسة الإعلامية، والتي تدعو إلى أن يكون لوسائل الإعلام دور تجاه المجتمع، وهو في تقديري النموذج الأمثل، فلا يجب أن تكون الإثارة هي الباب الواسع للممارسة الإعلامية، ولكن يجب أن يكون ـ ونحن نسير في طريق البناء والتنمية ـ عنصر الأهمية حاضراً خلال الممارسة الإعلامية.

فقد يكون الخبر مثيراً لكنه ليس مهماً، وقد يكون مهماً ولكن غير مثير، لكن نشره وإذاعته تفتح أبواب الأمل وتزيد من حالة الرضا المجتمعي التي تنعكس على أداء أبنائه. وإذا كان النموذج التجاري يتعامل مع المادة الإعلامية كسلعة يخضعها لقانون العرض والطلب ويتعامل مع الجمهور كزبائن، فإن هذا النموذج غير معني بتنمية أفراد المجتمع أو الارتقاء بهم بقدر اهتمامه بتحقيق المكاسب المادية فحسب. من هنا فإن الدور الإيجابي لوسائل الإعلام لا يعني إغراق المشاهد أو القارئ في التسلية، أو تعظيم ثقافة ضربة الحظ على حساب قيمة العمل، أو استنساخ مواد إعلامية لا تعكس ثقافتنا ولا تنبع من تراثنا.

إن هناك خطاً فاصلاً بين أن تلقي وسائل الإعلام الضوء على المشكلات التي تواجه المجتمع من منطلق وطني، وبين تقديمها لجذب انتباه وإثارة الجمهور، وهو ما يجب الانتباه إليه، إذ إنه من الأدوار المهمة للرسالة الإعلامية، إلقاء الضوء كذلك على كل فكرة إيجابية وتقديم النماذج التي حققت نجاحات في مختلف المجالات لكي يقتدي بها الغير، وأقرب الأمثلة على ذلك تلك الحفاوة البالغة التي تعاملت بها القيادة السياسية مع أمل المستقبل أبنائنا المتفوقين في الشهادة الثانوية، وتلك المكرمة النبيلة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد لأبنائه المتفوقين، والتي تعد دلالة قاطعة على اهتمام الدولة بالعلم وأصحاب الكفاءة.

إن الإيجابية في الرسالة الإعلامية تعني تقديم ما لدينا من فكر وثقافة وتجارب ناجحة، ومراعاة أن يتم ذلك من خلال قالب جذاب بعيداً عن الوعظ المباشر بشكل جامد، ولا ينبغي أن تقتصر على برنامج يذاع أو مقال في ركن من الصحيفة أو صفحة في جريدة، لكنها روح جديدة يجب أن تسري في مختلف ما يتم تقديمه حتى وإن كانت مشكلات أو ظواهر سلبية، والفيصل هنا يكون أسلوب المعالجة وطريقة تقديمها.

وهنا أتوجه إلى صناع الدراما العربية، والتي لم تكن يوماً على مستوى ما تحقق من إنجازات على كافة الصعد منذ قيام دولة الاتحاد وحتى الوقت الراهن، وقنع القائمون عليها بالسير في دائرة مفرغة من القضايا التي لا تعبر عن واقعنا بحق، رغم أن كل مرحلة تاريخية في مسيرة دولتنا كفيلة بأن تلهم المبدعين بعشرات الأعمال، بدءاً بالاتحاد وليس انتهاء بما حققته تجربتنا التنموية من قفزات تجاوزت بها ثوابت في النظريات المتعلقة بمراحل التنمية التي تمر بها الشعوب، ولا شك أن الدراما هي الذاكرة المرئية لتاريخ الشعوب، والنافذة التي تطل منها الأجيال على تاريخ وطنهم.

إن الـدور الإيجابـي للإعـلام يعنـي السـمو فـوق كل الدعـوات الطائفيـة والنزعـات العرقيـة أو الدينيـة التـي تمـزق النسـيج المجتمعـي، وهـو النافـذة التـي يطـل منهـا المجتمـع علـى العالـم بمختلـف ثقافاتـه وحضاراتـه، لتتلاقـح الأفـكار ولينتقـي منهـا مـا يناسـبه.

كمـا أن الـدور الإيجابي للإعـلام يعني أن يكـون مـن أسـباب الحـل، لا أن يكـون جـزءاً مـن المشـكلة، وأن يكـون قـادراً علـى إدارة الأزمـات لا أن يصنعهـا ويعيـش عليهـا، إعـلام يجمـع ولا يفـرق، يبنـى ولا يهـدم، وأن تكـون مصلحـة الوطـن فـوق كل المصالـح الفرديـة.

إيجابيـة الإعـلام تعنـي، كمـا أكـد صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد، أن يكـون لـه دور فـي استكشـاف الفـرص الكامنـة، وتسـليط الضـوء علـى البرامـج والخطـط والمشـاريع الإنمائيـة فـي الدولـة. ولا شـك أن هـذه الحالـة تكتمـل عبـر صقـل طاقـات الشـباب، وإعـداد وتدريـب جيـل مـن المبدعيـن وتمكينهـم مـن الإبـداع والابتـكار، هنـا يكـون الإعـلام بحـق شـريكاً اسـتراتيجياً فـي التنميـة، وأنعِـم بهـا مـن شـراكة.

بث حي من الإمارات

إذا كان تعريف التاريخ اصطلاحاً هو تحليل وفهم للأحداث التاريخية عن طريق منهج يصف ويسجل ما مضى من وقائع وأحداث، ويحللها ويفسرها على أسس علمية صارمة، بقصد الوصول إلى حقائق تساعد على فهم الماضي والحاضر والتنبؤ بالمستقبل، فإن التاريخ لا يعني فقط تسجيل الأحداث التاريخية أو السجالات السياسية ولكنه أعم وأشمل، إنه رصد وتسجيل لحركة المجتمع في الحال والترحال وفي الأفراح والأتراح، وعند شروق الشمس فتملأ الدنيا نوراً وبهجة، وعند الغروب حين يسدل الليل ستائره الثقيلة ليحجب النور في لحظات الانتصار والانكسار.

التاريخ هو توثيق لحالة الشعوب حين تعيش بين الأمل والرجاء، وهو الشاهد على حالة المجتمع ومقامه في الأدب والفن والفكر والثقافة، وهو الكاشف والمعلم، من يتعلم من دروسه ويفقه حكمته يصنع حاضره ويأمن مستقبله، ومن يجهله أو يعرض عن فقه أحداثه وصيرورته، يتخبط في دنيا الناس ولا يملك إلا أن يرجع إليه. هكذا مدرسته التي لا يدخلها إلا الحكماء

والقادة الأفذاذ الذين يعرفون أن أحكامه هي القاطعة لا استئناف فيها ولا نقض، لذا كانت المقولة العبقرية للشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه: «من ليس له ماضٍ ليس له حاضر ولا مستقبل».

تدافعت على خاطري هذه الأفكار وأنا أقلب صفحات تلك الوثيقة التاريخية الثمينة التي أصدرتها جريدة «البيان» الغراء بضمير وطني خالص، تحت عنوان «بث حي من الإمارات»، تكشف من خلالها عن التاريخ الإعلامي لدولة الإمارات العربية المتحدة، والذي تصدرت صفحاته مقولة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم: «إن تحقيق الازدهار يتطلب تحرير الإعلام من القيود والقوانين والممارسات، لينطلق بمزيد من الحرية والاستقلالية والإبداع».

والحق أنه استوقفني ذلك العنوان الذي جاء معبراً عن جهد حقيقي وواقع نحتاج إليه، وهو «الكشف عن التاريخ الإعلامي لدولة الإمارات»، والكشف كلمة تأتي لتعبر عن قيمة شاخصة تنتظر من يميط عنها اللثام، لينعم برؤيتها الآخرون.

إن ما قامت به صحيفة «البيان» هو كشف حقيقي سبقه تنقيب وبحث، لا يقل في قيمته عن التنقيب عن أغلى المعادن وأندر الثروات، عبرت عن ذلك تلك المحصلة من السيرة الموثقة والمسيرة الظافرة في مجال من أهم المجالات وأكثرها تسارعاً، وهو مجال الصورة والصوت، ذلك العالم الذي بات الأداة التي من يملكها يملك الكثير، ومن يتهاون في امتلاكها يتيح لغيره الحديث باسمه أو بالوكالة عنه، وانتقاء ما يود أن يراه الآخرون، وهو من جوانب الظلم التي عانى منها عالمنا العربي طوال عقود طويلة، من خلال صناعة صورة لا تعبر عن حقيقة واقعه.

ولا شك أن هناك عوامل كثيرة تدفعني لتقدير هذا العمل الموسوعي، الذي

يتجاوز الدور الإعلامي المنوط بالمؤسسات الصحافية إلى أدوار أخرى تعليمية وإرشادية، وأن تتحول المؤسسات الصحافية إلى مراكز بحثية حقيقية تقدم المعلومة الموثقة، في عصر بات فيه التأكد من الكم الهائل من حالة الإغراق المعلوماتي من الصعوبة بمكان، وهو ما يضيف قيمة كبيرة للدور المجتمعي الواجب على مؤسساتنا الإعلامية القيام به في ظل حالة الانفلات المعلوماتي التي نطالعها ليل نهار، من خلال وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام الجديد.

ومصدر اعتزازي وتقديري لهذا العمل الضخم ليس فقط الصور ذات الدلالات التاريخية، والتي تستطيع من خلال مطالعتها معرفة سيرة طويلة، وجهد جبار وبناء تسانده رؤية تعرف أين تريد أن تكون خلال سنوات، والأهم أنها تحقق ما تريد وزيادة، لتعطي درساً لأبنائنا في أهمية التخطيط العلمي الذي تصاحبه وتقترن به إرادة الفعل، والصورة تغني عن ألف كلمة كما يقول المثل الصيني، كما أن «الرؤية هي الحقيقة» على حد قول خبراء الإعلام.

وليس مصدر تقديري فقط تلك الشهادات الحية التي أسهمت في صناعة الإعلام الإماراتي وواكبت نهضته، وتواصلت مع أدواته وأوعيته، أو ذلك الثوب القشيب الذي قدم به العمل من رسوم غرافيكية وهو من الأهمية بمكان، لأن الشكل مكمل للمضمون، غير أن الأهمية الغالبة لهذا العمل تأتي من حاجة المكتبة الإعلامية العربية بصفة عامة والوطنية على وجه الخصوص إليه وللفراغ الذي سيشغله في مجال نشأة وسائل الإعلام الإماراتي وتطوره، وخاصة أن ما يتوافر في المكتبة الإعلامية فقير في مضمونه ويفتقر إلى التحديث، وما حققته الإمارات في مجال الإعلام كثير للدرجة التي تتطلب من يرقبه بشكل يومي، وهو ما ينوء بحمله الباحث الفرد.

لذا فإنني أقترح على سعادة الأستاذ ظاعن شاهين، باعتباره المدير التنفيذي

لقطاع النشر في مؤسسة دبي للإعلام، أن يعاد إخراج تلك الموسوعة الإعلامية وإصدارها في شكل يسهل تداوله ككتاب جامعي، وخاصة أن مساق «وسائل الإعلام في الخليج» يدرس ضمن برنامج الإعلام في معظم الجامعات في الدولة، وما بها من إضاءات حول تاريخ الإعلام الإماراتي كفيل بالإجابة عن تساؤلات تلك الطالبة التي أرسلت على بريدي الإلكتروني تطلب مساعدتي في الإجابة عن تساؤلات تتعلق بتاريخ الإعلام الإماراتي، والتي أعياها البحث دون أن تصل إلى إجابة عنها، وأرهقتني كذلك الإجابة عنها، غير أن دفتي هذه الموسوعة تجيب عنها بوضوح وأدلة موثقة.

إنني أود أن تنتشر هذه السنة الحسنة التي سنتها صحيفة «البيان»، عبر قيام كل مؤسسات الدولة بمسؤوليتها الوطنية في التنقيب والكشف عن تاريخ الإمارات كل في مجاله، عبر منهج علمي موثق، تشارك فيه المراكز البحثية والجامعات بما تملكه من خبرات أكاديمية، لتخط لكل جهة من الجهات خطاً في لوحة الشرف والبناء، ولتكتمل جوانب الصورة المضيئة لوطن بات نموذجاً تستلهم تجاربه كل الشعوب الناهضة، وطناً باتت الإقامة على ثراه أملاً لشباب العرب وغيرهم، فضلاً على أن يعرف الشباب من أبنائنا كيف كنا وكيف أصبحنا في رحلة الرجاء والأمل. إنني أحيي وأشد على كل يد كتبت حرفاً أو سطرت عبارة في هذه الموسوعة الإعلامية الوطنية المهمة التي جاءت متأخرة، ولكن أن تأتي الأشياء متأخرة خير من ألا تأتي.

سقيا الخير من عاصمة الخير

يقبل شهر رمضان المبارك ويقبل معه الخير والسلام من أرض السلام إمارات الخير، كيف لا وهي على مدار تاريخها، ومنذ نشأة الاتحاد، لم تنسَ يوماً دورها تجاه أمتها العربية والإسلامية والإنسانية جمعاء، في نشر الخير، وزرع الأمل في النفوس، من تطبيب الجروح وإغاثة الملهوف ومدّ يد العون للأخ والصديق.. لم تنكفئ يوماً على ذاتها، ولم تضن بما وهبها الله من خير مادي أو جوانب تنموية ناجعة ليستفيد منها الغير، وبذلك سكنت محبة الإمارات قيادة وشعباً في قلوب شعوب الأرض قاطبة، وأينما تولِّ وجهك تجد آثار الخير وآيات العطاء وقبلها محبة لتاريخ من العطاء قامت به الإمارات، ليس من باب المن ولكن لالتزام إنساني حملته على عاتقها مؤمنة به ومصرة عليه.

ومبادرات الخير، التي ينطلق نورها من أرض الإمارات، ليضيء سناها ربوع من حولها وما بعد عنها، أكثر من أن تحصى، إلا أن أحدثها وأقربها، ولا أقول آخرها، تلك المبادرة العبقرية «سقيا الإمارات»، التي أطلقها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، لتوفير مياه الشرب لخمسة

ملايين شخص حول العالم، بحفر الآبار وتوفير المضخات وتزويد المناطق المحتاجة بأدوات تنقية المياه.

إن سقيا الماء تعني في جوهرها أن يتوافر لكل إنسان الماء النقي الذي يحترم آدميته، فهو حق من الحقوق التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم: «الناس شركاء في ثلاث..» منها «الماء»، والشراكة هنا لا تعني قسمتها بينهم فحسب، ولكن تتعدى ذلك إلى المسؤولية الاجتماعية والإنسانية، وهذا هو جوهر ديننا وقيمنا وثقافتنا العربية الأصيلة، التي تعرف قيمة المياه وأثرها.

إن من عانى من شح المياه هو من يعلم قيمتها ويستشعر حاجة غيره إليها، وضرورة مساعدتهم في الحصول عليها، وهو أهم أوجه شكر النعمة التي بها تدوم، والله عز وجل يقول في محكم التنزيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وشكر النعمة يعني بذلها للغير دون الاستئثار بها والضن على من يحتاج يد العون، وهو من أركان سياسة دولة الإمارات على مدار تاريخها، وآثار ذلك شاهدة خالدة.

إن شح الماء وندرته هو الصراع القادم في العالم، فمن يملك الماء يملك أسباب الحياة، وهي قضية غير متعلقة بالإنسان كونه إنساناً، بل هي متعلقة بالتنمية. يروي لي أحد الأصدقاء أنه قُطع به الدرب في إحدى رحلاته البرية، ونفد ما معه من ماء للدرجة التي جعلته على شفا الموت، وإذ به يجد من يمده بكوب صغير من الماء، فيقول: شعرت بأن الروح تدب في جسدي، وأني أغنى أغنياء الأرض، وأن السعادة تسري في جسدي.

كما أن ما نشاهده في بقاع الأرض ممن يشربون من مياه البرك والمستنقعات وخزانات المرض والموت، يجعلنا نتوقف كثيراً أمام الأبواب التي يجب أن نركز على تنميتها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

وهناك من يسيرون على الأقدام عشرات الأميال لكي يحصلوا على بعض الجالونات من المياه، كما أن التقارير الدولية تؤكد أن النسبة الأكبر من المصابين بأمراض الفشل الكلوي ترجع إلى تلوث المياه، حيث بلغ عدد الذين لا تتوافر لهم المياه الصحية النظيفة حول العالم 880 مليون شخص، وأن الخسائر التي يسببها الجفاف في النفوس والثمرات والبيئة، أكثر مما تحصده وتدمره الحروب على قسوتها، ذلك أن 90٪ من 3.6 ملايين شخص تحت سن الخامسة، يموتون سنوياً بسبب العطش وبسبب أمراض ناجمة عن تلوث المياه.

كما أن سقيا الإمارات لن يتوقف أثرها عند ري الإنسان وإطفاء ظمأه، ولكن تتعدى ذلك للدواب والأنعام والزروع. ولا أبالغ إذا قلت إنه في بعض المجتمعات قد يقدم الفرد ما يحصل عليه من ماء لدوابه قبل نفسه، لأنها مصدر رزقه وحزنه عليها عظيم إذا أصابها مكروه، ألم يقل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «وفي كل كبد رطبة أجر».

وفي تقديري أن قوة مبادرة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، تأتي من أنها تتعامل مع مسببات الحياة وضروراتها لكي يحيا الإنسان، فقد يصبر الإنسان على الجوع لأيام ولكنه لا يصبر على فقد الماء، وقد يتحمل الإنسان ما به من أمراض وعلل لسنوات، لكنه يفقد روحه حين لا يجد الماء، ولو كان صحيح البدن قوي البنية، فالماء هو الحياة، كما أنها من المبادرات الضخمة من حيث حجم المستفيدين منها، وهو نهج اعتادت عليه دولة الإمارات، لأنها تتعدى الملايين، وهو ما يجعل منها مبادرة تحمل رسالة حقيقية واقعية، وليست رسالة دعائية إعلامية وإلا كان لها شكل ومنهج آخر، وهو لم يكن يوماً نهجاً لمبادرات إمارات الخير.

فضلاً عن أن القيمة التربوية لهذه المبادرة لا تقل عن أثرها المادي والإنساني، من جانبين مهمين: أنها تلفت نظر واهتمام المنظمات الأهلية والدولية المهتمة

بمكافحة الفقر والجوع ومساعدة الشعوب، إلى المشكلات التي تستحق أن تكون لها أولوية على قائمة اهتماماتها، فليس من المقبول أن تبقى شعوب في القرن الحادي والعشرين تصارع من أجل قطرة مياه، ويقف العالم وما توصل إليه من علم وحضارة وتكنولوجيا ورفاه، موقف المتفرج أو المتعاطف دون أن يتخذ إجراءات مؤثرة على أرض الواقع، كما أنها ترسخ قيمة تربوية لدى كل فئات المجتمع وهي العطاء والبذل، وخاصة عندما يكون هذا العطاء سياسة دولة وحالة عامة تشيع بين ربوع الوطن.

واللافت أنه في الوقت الذي ينظر المرء عن يمين خارطة العالم فيجد الدمار والحرب، وعن يساره فيجد الصراع والاقتتال، وفي ظل هذه الحالة التي تصيب الكثيرين بالإحباط والتشاؤم من المستقبل، يجد أن هناك من تسامى على كل ذلك لينير للعالم المتألم ضوءاً في هذا النفق المظلم، وليؤكد أن اليد الحنونة الطيبة ستظل أبقى وأنجع من كل طلقات الرصاص وما تخلفه الفوضى والحروب، ولتبقى سقيا الخير من عاصمة الخير.

لــن أنســاك..
وكيف أنساك!

مر عـام على فراقـك، عـام بطعـم الحنظـل، مـا أصعبـه ومـا أقسـى أيامـه، كنـت أظـن أن الحـزن فـي الرجـال ضعـف لا بـد مـن قهـره أو كبتـه أو وأده، وأن لوعـة الفـراق لا يكتـوي بنارهـا إلا الضعيـف.. واليـوم أعلـن لوعتـي لفراقـك، وأنـك عصيـة علـى النسـيان، فكيـف أنسـاك؟! وإن فعلـت فعلـي أن أسـتقيل عـن نفسـي وأمحـو أيـام حياتـي.. كيـف أنسـاك وليـس فـي أيامـي سـواك، يـا مدرسـتي ومعلمتـي وكتـاب حياتـي، يـا نبـع الحكمـة وصـوت الحـق..

مـن نبـع حنانـك ارتـوت روحـي، ومـن محبتـك تعلمـت كيـف يكـون الحـب، ومـن عطائـك تعلمـت كيـف أعطـي مـن حرمنـي، وكيـف يكـون العطـاء بـلا مـنٍّ أو انتظـار لجـزاء، ومـن ليـن جانبـك وحنـان قلبـك تعلمـت كيـف أعفـو عمّـن ظلمنـي، ومـن حسـن تربيتـك تعلمـت علـوم الديـن والدنيـا.. كـم أشـعر بالوحـدة وكـم أشـعر بالوهـن، لأنـك كنـت أنسـي فـي وحشـتي، وكنـت سـندي مـن بعـد اللـه وعونـي.

بعـدك لـم أعـد أعـرف للأيـام اسـماً أو رسـماً، وكـم باتـت الدنيـا غريبـة مـن دونـك، فقـد كنـت لـي ملـكاً زال عنـد فراقـك، أدعـو مـن لا يـزول ملكـه أن يرحـم مـن زال

ملكه. لن أنساك، وأنا لم أعرف الابتسامة يوم أن فارقتك فانتزعت البسمة مني، وكأن بسمتي كانت من وحي بسمتك، وكأن فرحتي كانت استلهاماً من فرحتك، وكأن أسباب حياتي من حياتك.

كيف أنسى من توقظني دوماً لصلاتي، كيف أنسى من تدعوني دوماً لمساعدة والدي، كيف أنسى من توقظني دوماً تدعوني برفق أن أذهب إلى ذلك الرجل الصالح ليعلمني من آيات الله، التي عشت بها وما زالت نوراً يهدي سبيلي، ولم يبق في ذاكرتي غير ما تعلمته حينها..

كيف أنساك وأنت التي رأت أخطائي في صغري فسترتني بين إخواني، فعلمتني أن ستر المخطئين يساعدهم على الرجوع عن أخطائهم، ويحافظ على أنفسهم من الانكسار الذي قد يجعلهم يذهبون فيما هم عليه إلى مدى أبعد.. كيف أنساك وأنت التي كنت تجمعين صوري وكتاباتي، تتباهين بها أمام إخواني وأقاربي، وأراها الآن في أدراج خزائنك..

كيف أنساك وقد رأيتك وأنت تتوجعين من أمراض تجمعت على جسدك النحيل لكنك كنت تطببين أوجاعنا، وقبل أن تمدي إلى الطعام يديك تسألين عمن لم يتناول طعامه بعد! كيف أنساك وعند حزنك كنت تفرحين لفرح غيرك، وعند فرحك كنت تتوارين لحزن غيرك، فتعلمت منك أن الصبر عند الحزن والتواضع عند الفرح من شيم الكرام.

كيف أنساك وقد وهبت لنا حياتك، فلم أرك يوماً عشت لنفسك، فامتدت حياتك في حياة كل منا، وأصبح حبك يجري منا مجرى الدم من العروق.. كيف أنساك وليس لي خيار في تذكرك، فذكراك قرين فكري وخيالي، ورائحتك تملأ المكان، وصورتك مطبوعة في مخيلتي، فهل للمجبول على المحبة خيار في أن يكون غير ذلك؟ حبك لا خيار لي فيه، والحزن على فراقك فوق إرادتي وطاقاتي..

أمي يا كل نساء الدنيا وأجملهم.. مر عام على فراقك، لكنني ما زلت مع كل يوم أسمع صوتك المرتعش يتمتم بكلمات كحبات اللؤلؤ ورائحة الفل والريحان، يستمطر رحمات الرحمن، وإشراقة وجهك كنور الصبح أهتدي به في دروب حياتي.

رغم العلة كنا بظلك نحتمي، ورغم الوهن كنا بحضنك نلوذ، وعند الشدائد كنا برأيك نهتدي، هل لي بعد ذلك أن أنساك! تعلمت منك كيف يربى الرجال، وكيف يكون الرجل، حين كنت تسدين لي بما ترينه ثم لا تدفعينني إلى الالتزام بما ترينه، غير أن أتحمل عواقب اختياري تحمل الرجال دون ندم أو وهن، وعلمتني أن الندم على عمل قمت به ولم أصب، خير من الندم على عمل كنت أود أن أفعله ولم أقدم عليه، لأن الرجال يتعلمون مما يمرون به من تجارب، وأن تعلم السباحة لا يكون أبداً بالوقوف على الشاطئ، وأن الإخفاق في عمل قمت به لا يعني الفشل، ولكن الفشل حين أكف عن المحاولة مرة ثانية وثالثة ورابعة، فلولا دروب الفشل لما عرفنا طريق النجاح.

ما زلت أذكر حين حانت غربتي، كانت أرجلي تعجز عن الحركة وأجرها كمن يجر الجبال، وأنا أرى في عينيك بركان حزن تحجر تحاولين إخفاءه، وصوتاً تهدج يحاول الصمود دون جدوى ليدفعني لاستكمال دراستي، ولما أمسكت بيديك أقبلهما كأنما ثلج الشتاء قد تجمع عليهما، وتقولين لي: تذكر دوماً أن فرحتي وهنائي يوم ترجع لي رافع الرأس بعلمك.. وقلبك يتفطر كمداً وحزناً.

ورغم الغربة والفرقة كنت دوماً معي مرشداً ودليلاً، وصوتك يملأ أذني، وخطوات قدميّ أستمدها من خطواتك، ورغبتي في النجاح من فرحتك بنجاحي، وكأنني كنت نفسك ولم أكن نفسي، وكأن روحي قد تلبست روحك.

أمي يا قصة عمري، بيديك سطرت أيام حياتي، ولأن حياتي كانت هبة من حياتك، صرت بعد فراقك جسداً يفقد روحه.. ما أصعب فقدان الروح! مر عام على فراقك بألف عام، ما أصعبه، أحن في الشتاء إلى دفء حضنك، وحين الهجير إلى وارف ظلك، أحن إليك دوماً، فمكانك خالٍ عز أن يشغله غيرك ولو كانوا كثراً.

أمي سامحيني ليوم لم أكن فيه بجوارك حين كان يجب، ولنداء عز على أن ألبيه، ولدمعة سقطت من مقلتيك فلم أتلقها بيدي لأعطر بها جسدي، ولألم ألمّ بجسدك لم أستطع أن أحمله عنك، وأنت التي تحملت السير في طريق الآلام كي لا نتوجع.. سامحيني إن لم أبد لك يوماً كم أحبك، لأني أعلم أن قلبك كان جوار قلبي، ولأن لغة اللسان تتعطل أمام لغة القلوب، وسامحيني لفرط حزني على فراقك، فقد كنت روح المكان ومكان الروح. رحمة من الرحمن وجنات من الفردوس منزلتك هي دعواتي لك.

الإمارات والتنافسية العالمية.. مصطلحــات لهــا دلالات

لـم يعـد يمـر يـوم إلا وتخرج علينـا المؤسسـات الدوليـة والمراكـز البحثيـة المعنية بالتنميـة وواقعهـا، بتقاريـر توضـح واقـع مختلـف الـدول في هـذا العالـم المتنافس.

وإذا كان هنـاك مـن اختـار أن يتنافـس فـي الهـدم والتخريـب والقتـل والدمـار، فقـد اختـارت الإمـارات حكومـة وشـعباً ميـدان المنافسـة في البنـاء والعمـل والعطـاء والجهـد، وأكـرم بـه مـن ميـدان. ولا شـك أن المكانـة التي اكتسـبتها الإمـارات عالميـاً لـم تـأت هكـذا بيـن يـوم وليلـة، بـل جـاءت عبـر جهـد وعـرق وبـذل تراكـم خـلال تجربتهـا الممتـدة، فـكان الحصـاد.. حصـاد الرحيـق والخيـر والبركـة.

لـذا بـات مـن المألـوف أن تجـد الإمـارات فـي الصـدارة دائمـاً، مهمـا وأيـاً كانـت المراكـز البحثيـة أو التنمويـة، فعندمـا يكـون الحديـث عـن الإنجـاز فـلا بـد أن تجـد الإمـارات حاضـرة فـي تقاريرهـا.

لذلـك توقفـت أمـام حصـاد حكومـة دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة، ووقوعهـا ضمـن العشـر الأكثـر تنافسـية عالميـاً، فـي الكتـاب السـنوي الصـادر عـن المعهـد الدولـي للتنميـة الإداريـة فـي سويسـرا.

ولأن مجالات التنافس قد كثرت، وما حصدته الإمارات بات أكثر، آثرت أن أضع أمام شباب وطننا المعطاء دلالات لبعض المصطلحات في مجال التنافسية العالمية، لسببين: أولهما أن يدرك أبناؤنا حجم العطاء على مدار عقود، كيف كنا وكيف أصبحنا، وثانياً ليعضوا على ما حققته دولتنا من مكتسبات لا يجب التفريط فيها أو التراجع دونها. فماذا يعني أن تحتل الإمارات المركز الأول عالمياً؟

أولاً: في الكفاءة الحكومية؛ تعني الاستغلال الأمثل للموارد وتحقيق الحد الأكبر من كافة المدخلات، وهذه المدخلات متعددة، مثل رأس المال، والموارد المادية، والجهد البشري، والوقت المتاح، مع الحفاظ على الجودة وزيادتها.

ويمكن أن يقاس ذلك من خلال نظرة مقارنة لهذه العمليات في التجارب المماثلة، لنعرف أين نحن من غيرنا، وكذلك من خلال مقارنة الحاضر بما مضى، ومدى التجويد الذي تم في ذات العمليات، في الوقت الذي تجب فيه مراعاة ارتفاع مستوى توقعات وتطلعات المواطن، بالشكل الذي يجعل ما كان يلبي طموحاته في وقت مضي قد لا يؤدي نفس الدور في الوقت الحاضر، وهو ما يصعب من مهمة السائرين على طريق الكفاءة في اتباع طرق إبداعية غير مسبوقة.

كما أن الكفاءة تعني أن الخدمات التي تقدمها الحكومة تلبي أهدافها، وهذا يتم من خلال عمليات أربع: أولها الإبداع عبر طرح بدائل جديدة من خلال التفكير خارج الصندوق، فضلاً عن تحديد الممارسات الرائدة وتكييفها بما يساعد على تنفيذها، ثم تجيء الخطوة الثانية وهي توسيع نطاق الإبداع، ووضع آليات محددة وواضحة للاستفادة من الأفكار المبدعة.

وثالثاً توافر مقاييس واضحة ومحددة لقياسها، لكي يتم التعظيم من الممارسات ذات الكفاءة والتوقف عن الممارسات التي لا تحقق الهدف والغاية، ورابعاً أنه لا يمكن أن يتحقق ذلك دون الدفع بالقيادات ذات الكفاءة إلى المستويات العليا ورعاية الموهوبين.

ثانياً: في جودة القرار الحكومي؛ وهو من أهم أدوات القائد، والذي قد لا يكون أمامه اختيار من بين البدائل المطروحة سوى طرح بديل جديد، وأهمية القرار تأتي من قدرته على تحقيق الأهداف المحددة، كما أن جودة القرار الحكومي تعني الإدراك التام للمشكلة أو الموضوع الذي نحن بصدده، والحصول على كافة المعلومات المتعلقة به.

وهذا يتطلب توافر مصادر وقنوات يمكن من خلالها تداول المعلومة بسهولة، فضلاً عن إشراك العناصر المتأثرة بهذه القرارات في كافة المراحل، ثم الحرص على معرفة مواقفهم حيال تلك القرارات، وهو ما يضمن تحقيق الرضا العام والانسجام بين الحكومة والمواطن، كما أنه ضمانة لتنفيذ تلك القرارات باعتبارها تهدف إلى صالح المواطن بالدرجة الأولى، وهدفها تجويد حياته وتيسير حركتها، وهو ما يجعل المواطن ظهيراً قوياً للحكومة.

ثالثاً: غياب البيروقراطية؛ ذلك أن نجاح أي دائرة أو مؤسسة حكومية يتوقف على قدرتها على ضخ أفكار جديدة، تجود العمل وترتفع بمستوى الأداء وتبعده عن النمطية والتقليد، وأن تجد الأفكار المبدعة طريقها للتنفيذ دون أن يمر ذلك بإجراءات طويلة للدرجة التي تفقدها قيمتها الآنية وتقتل التفكير الإبداعي.

كما يعني سرعة اتخاذ القرار، ذلك أن الوتيرة المتسارعة للحياة والفرص المتاحة لم تعد تحتمل التباطؤ أو التراخي، وهذا لا يتلاءم مع عالم فتحت سماواته وأصبحت المعلومة تدور في أرجائه في ثوانٍ معدودة.

ولا شك أن سعي حكومة الإمارات للوصول إلى تقديم الخدمات عبر أجهزة الهاتف المحمول، وتصنيف الخدمات الحكومية كما تصنف الخدمات السياحية، يعبّر عن إرادة الفعل لدى القيادة للقضاء على البيروقراطية المعطلة والمعوقة والمستهلكة للجهد والوقت.

كما أن غياب البيروقراطية يعني أن اتخاذ القرارات الإدارية لا يتم من خلال تقارير مكتبية، وإنما عبر التواصل المستمر مع حركة الناس والتماهي مع طموحاتهم.

رابعاً: جودة النقل الجوي؛ والتي تعني أن يكون هناك تطوير مستمر في قطاع الطيران، سواء من حيث السياسات المتبعة وتوافقها مع أرقى المعايير الدولية، أو الإمكانات التقنية والبنية الفنية التحتية الفعالة لمراقبة الأداء وتقييمه، كما أنها تعني تبسيط الإجراءات والإبداع في مستوى الخدمات التي تقدم للمسافرين، والتوسع في شبكة الرحلات التي تتم تغطيتها عالمياً.

ولا شك أن وجود مشروع «دبي وورلد سنتر»، وهو الأكبر على مستوى العالم والذي يطبق مفهوم «المدينة المطار»، يؤكد حرص حكومة الإمارات على أن تظل في المقدمة عالمياً في مجال النقل الجوي.

خامساً: حسن إدارة المال العام؛ وهو الاستغلال الأمثل للموارد المالية وتعظيم مخرجاتها وتنوع مصادرها، مع وجود إدارة مالية وحسابية تحكمها أطر وقوانين محددة، تفرضها طبيعة مراقبة الأداء في كافة المستويات الإدارية.

سادساً: قوة مجلس الإدارة؛ يعني القدرة على وضع استراتيجية واضحة للوصول إلى الهدف، وإقناع العاملين بأهمية هذه الأهداف عبر إشراكهم في صياغتها، وهو الضامن لنجاحها واستمراريتها، مع وجود سياسة واضحة لمراقبة الأداء وتقييمه، والتأكد من سلامة العمليات المالية والمحاسبية، وتحديد المهام بين كل القطاعات بحيث تتكامل كل الإدارات الفرعية لتحقيق هدف واحد، بعيداً عن التداخل في المهام، فضلاً عن تحديد ضوابط أخلاقية وقواعد سلوكية حاكمة لضبط الأداء.

وما تطرقت إليه آنفاً ليس توضيحاً لمصطلحات فحسب، لكنها مصطلحات لها دلالات.

دبي وجهٌ آخر للتميّز

إذا أردت أن تـدرك سـر الحالـة التي يتغير فيهـا وجـه أمـة مـن الأمـم أو مجتمـع مـن المجتمعـات، فانظـر إلـى حالـة مؤسسـاته التعليميـة وكفـاءات الخريجيـن منهـا، والاسـتراتيجية التعليميـة التـي يتبعهـا، ومـدى أولويـات القضايـا التعليميـة بالنسـبة لباقي القضايـا المجتمعيـة، والبرامـج العلميـة المطروحـة في مختلف التخصصـات، وحالـة المعلـم الماديـة والعلميـة، فـإذا كانـت مؤشـرات الإجابـة عـن تلك التسـاؤلات إيجابيـة، فعليـك أن تطمئـن علـى حاضـره وتبشـر بمسـتقبله، وإذا كانـت الإجابـة غيـر ذلـك فاعلـم أنهـا أمـة فـي خطـر، حتـى لـو كانـت بنيتهـا الاقتصاديـة تبـدو قويـة.

ولقـد تعلمنـا أن عمليـات التنميـة والتحضـر، التـي تمـر بهـا الشـعوب، هـي عمليـات شـاملة ومتكاملـة، مرتبطـة بحركـة المجتمـع تأثيـراً وتأثـراً؛ بمعنـى أن التنميـة الحقيقيـة للمجتمـع لا تكـون فـي جانـب وتهمـل آخـر، لأن النظـام الاقتصـادي فـي المجتمـع يتأثـر ويؤثـر فـي النظـام الاجتماعـي، وكلاهمـا يؤثـر ويتأثـر بالنظـام التعليمـي، ولـم نجـد فـي تاريـخ الأمـم أن نهضـة اقتصاديـة قامـت دون بنيـة علميـة تعليميـة قويـة، كمـا أنـه مـن الصعوبـة بمكان أن تجد مجتمعاً بنيتـه الاقتصاديـة متهالكـة يحقـق تطـوراً علميـاً كبيـراً، كمـا أن التراجـع فـي مسـتوى التعليـم قريـن دائـم للتخلـف الاقتصـادي.

من هنا فإن التحضر الحقيقي للمجتمعات لا بد أن يراعي أبعاد العملية التنموية للمجتمع، والتي يعتبر التعليم نقطة البدء فيها، ورأس الحربة منها، والقاطرة التي تقود باقي مفردات عملية الانتقال المجتمعي من حال إلى حال أفضل.

والتجارب الدولية التي حققت طفرات حقيقية، كانت بدايتها الاهتمام بالتعليم، والشاهد أنه عندما سئل «جواهر لال نهرو»: لماذا تنفق الكثير من المال على التعليم وحالة الفقر في الهند تستوجب بناء الاقتصاد أولاً؟ كانت إجابته: «إن تردي الحالة الاقتصادية في الهند لم تجعل لنا خياراً إلا بمزيد من الإنفاق والاهتمام بالتعليم، لأن فيه خلاص الهند من مشكلاتها».

ولأن التاريخ خير معلم، والقادة الملهمون هم الذين يجيدون قراءته لتستخلص من حركته الدروس والعبر، من هنا جاءت خطوات القادة المؤسسين متسارعة للاهتمام بالتعليم، عبر التوسع في بناء المدارس وتشجيع الالتحاق بها، ثم بناء جامعة الإمارات لتمد الوطن بكوادر وطنية متخصصة تلبي احتياجات سوق العمل، لتبدأ مسيرة انتشار النور في ربوع الوطن.

أقول هذا بعد الاطلاع على التقرير الذي صدر عن هيئة المعرفة والتنمية البشرية في دبي، والذي جاء فيه أن نسبة الطلبة الملتحقين بمؤسسات التعليم العالي في الإمارة خلال العام الأكاديمي الحالي، زادت بمقدار 9.4٪ عن العام الدراسي المنصرم، ووصل عدد الطلبة ما يزيد على خمسين ألفاً، في 57 مؤسسة تعليمية تمنح درجات البكالوريوس والدراسات العليا.

علاوةً على تقديمها برامج في التعليم المهني، فضلاً عن النمو المتزايد في أعداد المدارس الخاصة. ولا شك أن النتائج التي تضمنها التقرير لها دلائل واضحة ومؤشرات جلية، يجب تفحصها بعناية حتى نعظم مكتسباتنا ونقيم تجربتنا.

وأول ما نستخلصه من نتائج التقرير الصادر عن هيئة المعرفة في دبي، أن شجرة التميز، التي غرست بذورها أيد كريمة وتولتها بالرعاية والسقيا، قد امتدت فروعها وآتت أكلها ليستظل الجميع بظلها، سواء أبناء الإمارات أو المقيمون على أرضها.

خاصة وأن نسبة 66٪ من الطلبة الملتحقين بمؤسسات التعليم العالي في دبي من الوافدين، مقابل 34٪ من أبناء الإمارات، وهو ما يعكس جودة العملية التعليمية وقدرتها على الجذب في ظل منافسة داخلية وإقليمية، وانعكس ذلك على نوعية الخريجين الذين بلغ عددهم ما يقارب 11 ألف خريج العام الماضي، من مختلف المؤسسات.

كما أن وجود 26 مؤسسة تعليم عال في دبي، كلها فروع لمؤسسات تعليم عال دولية، والعدد مرشح للزيادة، هو بمثابة استفتاء دولي على متانة البنية التعليمية والفنية التي تمتلكها دبي، فضلاً عن الثقة في جودة الأداء، خاصة وأن شهادات الخريجين تعتمد من المؤسسات التعليمية الأم، ولم تكن المؤسسات الدولية لتسمح بذلك لولا ثقتها في جودة العملية التعليمية، وهو ما يجعلها تعامل خريج الفرع معاملة المقر الأم، إن لم يكن أوفر حظاً، وهو ليس بالأمر اليسير في ظل توافر سوق عمل حي ومتنوع قادر على الاستيعاب.

كما أن ذلك التنوع يعكس بيئة تعليمية، تتنافس فيها كل مؤسسة على تقديم أفضل البرامج الأكاديمية وأكثرها تلبية لاحتياجات سوق العمل، وتوافقها مع الاتجاهات العلمية الحديثة، وهو ما يصب في مصلحة الدارسين والارتقاء بكفاءتهم العلمية ومهاراتهم العملية.

كما أن نسبة الملتحقين بمختلف التخصصات من الطالبات، تؤكد دور المرأة باعتبارها شريكة للرجل ومكوناً أصيلاً من مكونات المسيرة الحضارية التي

تشهدها الإمارات، وأن الكفاءة هي معيار المفاضلة، والكفاءة هي الفيصل بينها وبين غيرها في تولي الوظائف.

فضلاً عن ذلك فإن نسبة الوافدين والمقيمين المنتسبين لهذه المؤسسات التعليمية، لم يكن لها أن تصل إلى نسبة 66٪ لولا ثقافة التسامح وقبول الآخر، التي تطبعت بها الحياة في دبي، وأصبحت مكوناً أصيلاً من ثقافة أبنائها والمقيمين على أرضها، كما أنها نتاج طبيعي لحالة الأمن والأمان التي تفوق نظيراتها، بل إن حالة التوتر وعدم الاستقرار في بعض بلدان عالمنا العربي، جعلت دبي الواجهة المفضلة لهم كواحة للأمن والاستقرار في عالم مضطرب.

إن ثقافة التميز كما الفضيلة، كل لا يتجزأ، ومن اعتاد على أن يكون في الصدارة يصعب عليه أن يرضى بالمركز الثاني أو يسعد به، ودبي ببنيتها التحتية ومتانة اقتصادها ومرافقها الاتصالية والتكنولوجية، والتي تبوأت للعام الثالث على التوالي صدارة مدن المستقبل حسب تصنيف مجلة الاستثمار الأجنبية العالمية، وبعد أن تميز مطارها على مطار هيثرو قبلة الطيران العالمي في تعداد الركاب الذين يتم نقلهم حسب إحصائيات عام 2013.

وبعد أن فازت عن استحقاق وجدارة باستضافة أكبر المعارض الدولية وأقدمها في ظل منافسة شديدة، وبعد أن أصبحت الإقامة على أرضها، ولو لأيام قلائل، هي الجائزة الكبرى التي تقدمها الشركات العالمية للمتميزين من موظفيها.. تكشف اليوم بالتقرير الصادر عن هيئة المعرفة والتنمية البشرية، عن وجه آخر من أوجه التميز، والقادم بإذن الله أفضل.

فطوبي لمن أسس وبنى، وطوبى لمن حافظ ونمى، وطوبى لمن أحب هذا الوطن.

رائد التميز والسائرون على الـدرب

مـا أجمـل الحصـاد، حيـن ينضـج الثمـر ويخـرج مـن أكمامـه، وحيـن يـرى مـن غـرس البـذرة وتعهدهـا بالرعايـة والعنايـة نتـاج فكـره.. ومـا أجمـل الفكـرة حيـن يحولهـا النـاس مـن خواطـر وأمنيـات إلـى واقـع يلمسـه النـاس.. ومـا أجمـل الواقـع حيـن يلبـي طموحـات البشـر ويسـتطيع كل فـرد أن يخـرج مـن مخـزون أفـكاره إبداعـات يسـعد بهـا أصحابهـا..

ومـا أعظمهـا مـن سـعادة حيـن تبنـى علـى جهـدك وعرقـك وحيـن تتخطـى أفـكارك ذاتـك ليكرمـك مـن حولـك علـى مـا قدمـت وأحسـنت.. ومـا أجلـه مـن تكريـم حيـن يكـون مـن صاحـب الفكـرة وراعيهـا وقائـد مسيرة التميـز صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد آل مكتـوم، الـذي يرعـى ويكـرم اليـوم أصحـاب التميـز والسـائرين علـى دربـه.

اليـوم يكـرم رائـد التميـز السـائرين علـى دربـه، كيـف لا وهـو صاحـب الفكـرة منـذ انطـلاق مسـيرتها عـام 1997، وهـو يسـعى لتطويـر أداء الدوائـر الحكوميـة بمختلـف عناصرهـا، والبعـد عـن التقليديـة والرتابـة التـي تصيـب أصحابهـا بتكلـس

الفكر وعقم الإبداع وقتل الدافعية والعجز عن ابتكار أساليب جديدة، ما يجعل الإدارة عاجزة عن أن تنتج مبدعاً أو تشحذ طاقة أو أن تتقدم بصاحبها أو الدائرة التي يعمل فيها خطوة إلى الأمام.. كانت الصيحة إذاً، وكان النداء لأبناء الوطن أن هبوا للسير في طريق لا يعرفه غير قوي العزيمة.. صاحب البأس؛ طريق الرجال وبناء الأوطان.

وهنا درس كبير في التميز يجب التوقف أمامه لنتأمله، فكثيراً ما تدعو القيادات شعوبها لأفكار، ولكن قليل من يستطيع أن يحول الفكرة إلى واقع وأن يصبر عليها، وإذا حدث فإن القليل منهم من تنجح أفكارهم على أرض الواقع.

وهنا نعرف كذلك كيف أن الرؤية الواضحة ونفاذ البصيرة واستشراف القيادة للمستقبل، هي السبيل إلى تحويل الأفكار إلى خطط عمل، كما أن الجناح الآخر لطائر التميز، الذي يحلق عالياً يوماً بعد يوم، هو إيمان الشعب بالفكرة والعمل لها وبها، فهو المشارك في نجاحاتها، وهو الضامن لاستمرارها، وهنا ترسم لوحة جميلة مبدعة لتلاحم القيادة مع الشعب.

وكيف أنها تعزف لحن البناء بتناغم شديد، ليطرب العالم من حولنا ويسعون إلينا راغبين في معرفة عبقرية التجربة، بعدما أضحت دبي اليوم نموذجاً يتطلع إليه العالم بشغف وترقب، لأنها تخرج كل يوم الجديد من مكنون إبداعات أبنائها.

وما يستحق التوقف في برنامج دبي للأداء الحكومي المتميز، أنه فكرة وطنية خالصة، ونموذج رائد على مستوى العالم، كما العديد من الأفكار المبدعة التي نراها كل يوم في وطننا، لذا فإن شرف الالتحاق بركبه أصبح هدفاً لكل من يعمل في الدوائر والمؤسسات الحكومية، مما انعكس على مستوى أدائهم وعطائهم، ووفر بيئة مواتية للإبداع لا يحكمها التسلسل الإداري، ولكن جعل الكفاءة أسبق

من الركون لسنوات العمل، مما جعل الدوائر الحكومية بيوتاً للإبداع وصناعة المبدعين، عبر المنافسة المحمودة بين العاملين في الحقل الواحد.

إن كثيراً من الأفكار ما يلبث أن يخبو ويذبل، إلا أن برنامج دبي للأداء الحكومي يحمل في طياته أسباب قوته، لأنه برنامج له رؤية ورسالة تسعى لإحداث نقلة نوعية، ليس فقط في الأداء ولكن في نتائج أداء الدوائر الحكومية في دبي، لتصل إلى مستوى رائد عالمياً، وفق معايير ومقاييس محددة وغير جامدة، تستوعب تطورات العصر ولغته عبر التحديث الدائم، فضلاً على ذلك فهو برنامج لا يتعامل مع المعنيين به على أنهم آلات صماء مطلوب منهم تحقيق نتائج فحسب.

بل يحمل قيماً يسعى إلى غرسها بينهم، منها العدل والإنصاف وهو أساس الإبداع، والشفافية ليعلم كل فرد جوانب الإحسان وجوانب الضعف ليجبرها، والابتكار حيث لا مكان للأداء التقليدي، والعمل الجماعي فالفرد ضعيف بمفرده قوي بمن حوله، وروح المبادرة والنزاهة والتعلم المستمر وهي من سمات الناجحين دوماً.

ولأن تجربة دبي في الأداء الحكومي ليست شأناً خاصاً أو داخلياً، في وقت أصبح العالم من حولنا ينتظر ما ستقدمه دبي في شتى المجالات، ومن واقع تجربتي في تقييم الأداء، أود الإشارة إلى أنه لا يجب أن تتعامل المؤسسات باعتبار أن عملاءها هم الجمهور المحلي فقط، وتغفل آفاقاً أكبر حين تتسع دائرة الرؤية لتشمل غيرهم، بما ينعكس على صورة وطننا في الداخل والخارج.

ولقد كان لي شرف الانضمام إلى الكتيبة الوطنية من المقيّمين لفرق الشرف والبناء، وأتيح لي أن أتعامل مع الشباب وأطلع على أفكارهم، ولأن التميز شأن يرتبط بالهدف والرؤية والغاية، ولأن غايات حكومة دبي ليس لها حد يحدها،

ورؤيتها تشمل البشر قبل الحجر، وهدفها الحكومة الأذكى عالمياً خلال سنوات ثلاث، هنا تصبح معايير التميز قاسية والوصول إليها ليس بالأمر الهين، لذا حق للمتميزين أن يسعدوا مرتين: الأولى بتميزهم، والثانية لأن تميزهم جاء ضمن برنامج حكومة دبي، وهو ما يضيف إلى التميز تميزاً.

إن عبقرية برنامج التميز الحكومي أنه حول التنظير في مجال التنمية البشرية وإعداد القيادات الشابة ورعاية المبدعين، إلى ميدان عمل وتطبيق لا حدود تحده، فانطلق الشباب بأفكارهم يمنة ويسرة بحثاً عن الجديد، فأوجد لديهم الدافعية والقدرة على صناعة الفكرة فسلكوا طريق التميز، ومن ذاق طعم التميز لن يرتضي له بديلاً.

ولأن الفضيلة كل لا يتجزأ، فمن تميز في عمله لن يقبل بغير ذلك في حياته اليومية، لنجد أنفسنا في الأخير ليس فقط أمام أداء حكومي متميز، بل أمام فرد اعتاد على التميز، وهل تتقدم المجتمعات إلا بأفرادها لتكون المحصلة النهائية مجتمعاً متميزاً، تلك هي النتيجة الحتمية والمنطقية.. والتاريخ يخبرنا أن رقي الأمم كانت بدايته أفراداً تميزوا، كما أن انهيارها وتخلفها بدأ بأفراد تهاونوا وارتضوا الدنية في دنياهم.

تلك هي المعادلة العبقرية التي صنعتها القيادة الرشيدة، وهي تجني اليوم حصاد غرسها، فطوبى لمن وضع البذرة، وطوبى لمن تولاها بالسقيا والرعاية، وطوبى لمن أحب هذا الوطن.

الفن والقوة الناعمة للدولة

في عصر تغير فيه مفهوم القوة في العلوم السياسية، ولم تعد تقاس فيه قوة الدولة بمقدار ما تمتلكه من ترسانة عسكرية فحسب، وفي عصر لم تستطع الدول الكبرى أن تحقق ما تريد عبر استخدام القوة الصلبة، أو الخشنة وحدها، بعد أن تكبدت مليارات الدولارات، كما لم تعد القوة العسكرية وحدها قادرة على حسم المعارك، أصبح مصطلح القوة الناعمة للدولة يحظى باهتمام كبير من قبل السياسيين والخبراء في العلوم السياسية، وفي مقدمتهم «جوزيف ناي» أستاذ العلاقات الدولية في جامعة هارفارد، الذي يرى أن القوة الناعمة هي «القدرة على الحصول على ما تريد، عبر الإقناع، وليس الإكراه»، وأدواتها تتمثل في الثقافة السائدة، والقدرات الإعلامية، والمؤسسات التعليمية، والإمكانات الاتصالية أو التكنولوجية للدولة، وبنيتها التحتية، ومقدار ما تنفقه على كل فرد في المجال الثقافي، فضلاً عن السياسة الخارجية للدولة.

وفي تقديري أن اعتماد أي دولة على قوتها العسكرية فقط، أياً كانت قدراتها وحداثتها، يمثل خصماً من التأييد الدولي لها ومساندة مواقفها، لذا لم تغفل القوى الكبرى تاريخياً عن الاهتمام بقوة الخطاب الإعلامي، ومحاولة كسب

الرأي العام الدولي، من خلال الوصول إليه والتأثير فيه بقوة المنطق، وليس بمنطق القوة وحده، وإن كانت تملك ترسانة من الأسلحة.

ولأن قيادتنا الرشيدة في سعي دائم لأن تمتلك دولتنا كل أدوات القوة، سواء العسكرية أو الثقافية، في ظل بيئة إبداعية، جاء تأكيد صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي، رعاه الله، «أن الفن بجميع ألوانه وأنواعه يعكس ثقافة الشعوب وحضارتها وتاريخها، كما يعكس صور الطبيعة والجمال والبيئة لأي بلد كان، فهو مرآة حقيقية لتقدم الشعوب وتحضرها وتناغم أفرادها، بغض النظر عن العرق أو اللون أو الجنس، فالفن ذوق وأخلاق وإبداع، أكان شعراً أم تصويراً أم نحتاً أم رسماً أم موسيقى أم غناء»، وأن دبي ترنو لأن تكون ملتقى دائماً للفن والجمال والثقافة وكل الأنشطة المتصلة بها، لأن الثقافة تشكل العامل المشترك للتلاقي والتعايش بين الشعوب كافة.

وسموه بهذا المنطق وبتلك الرؤية، هو من وجّه بتحويل محطات مترو دبي إلى أكبر ساحة متاحف عالمياً، لعرض الأعمال والإبداعات الفنية والثقافية، مؤكداً أن «الإبداع والجمال جزء أساسي من ثقافتنا وهويتنا، وجزء من نسيج الحياة لدينا».

وعندي أن الفن يرقى بالنفس، ويهذب السلوك، وينمي لدى الإنسان القيم الجمالية، التي ترتقى بمشاعره وتجعله قادراً على الاستمتاع بصور الجمال من حوله، وهو عنوان حضارة الدولة، وهو الذاكرة المرئية لتاريخ الشعوب، التي لا يطالها تزييف أو تشويه أو عبث، والشاهد تلك الأعمال الفنية التي ما زالت شاهداً عبر العصور على حضارات قامت، ولم تزل آثارها باقية تخلد أصحابها.

ويقيناً أن الفن من أهم أدوات القوة الناعمة للدولة وتأثيرها في محيطها

الإقليمي والدولي. ألـم تكـن الدرامـا المصريـة، سـواء السـينمائية أو التلفزيونيـة، هي العامـل المهـم والحاسـم فـي نشـر الثقافـة المصريـة ومفرداتهـا فـي البـلاد العربيـة؟ وجعلـت صناعـة السـينما مـن القاهـرة هوليـوود الشـرق، وقبلـة لـكل الذيـن يريـدون أن يعرفهـم العالـم العربـي مـن المحيـط إلـى الخليـج.

ألـم يخلـد متحـف اللوفـر، وقـوس النصـر، وبـرج إيفـل فـي فرنسـا ثقافـة شـعب امتـدت لأجيـال متعاقبـة؟ ومـا زال تأثيـر فرنسـا الثقافـي يسـبق أي قـوة عسـكرية لهـا، وهـل يمكـن أن يتحـدث أحـد عـن إيطاليـا مـن دون أن يذكـر «ليونـاردو دا فينشـي»؟

ورغـم أنـه كان يجيـد مهنـاً عـدة، إلا أن لوحاتـه الفنيـة هـي التـي أبقـت علـى سـيرته كونـه فنانـاً عبقريـاً، وخاصـة الموناليـزا، والعشـاء الأخيـر، كمـا أنـه مثـل إحـدى محطـات عصـر النهضـة الأوروبيـة، بمـا يؤكـد أن النهضـة الفنيـة هـي نتـاج وملهـم ومـؤرخ للتقـدم فـي مختلـف مناحـي الحيـاة، بـل هـي عنـوان النهضـة لغيرهـا، فلـم يخبرنـا التاريـخ عـن أمـة ارتقـت فنيـاً وتعثـرت اقتصاديـاً واجتماعيـاً، ولكـن علـى الجانـب الآخـر عندمـا تتـردى حيـاة النـاس، ينعكـس ذلـك أول مـا ينعكـس علـى حياتهـم الثقافيـة بصفـة عامـة، والفنيـة علـى وجـه الخصـوص.

إن القيـم التـي تنشـئ المجتمعـات الحيـة، وتضمـن بقـاء نهضتهـا، ليسـت الماديـة فحسـب، فالقيـم غيـر الماديـة هـي شـريك ومكـون أسـاس لحضـارات الشـعوب، ومنهـا القيـم الجماليـة، التـي تعـد الفنـون أحـد أوعيتهـا.

إن تنميـة الحاسـة الفنيـة تسـاعد الفـرد علـى تـذوق الفـن والاسـتمتاع بـه، وتجعلـه ذا حـس مرهـف قـادر علـى رؤيـة الجمـال، وهـو مـا ينمـي لديـه ملـكات إبداعيـة لـم يكـن لهـا أن تخـرج لـولا توافـر بيئـة إبداعيـة مـن حولـه، والشـعوب التـي تحقـق تقدمـاً اقتصاديـاً بعيـداً عـن الميـدان الثقافـي والفنـي واسـتلهام قيمـه، يصبـح أبناؤهـا آلات المصانـع.

جسد بلا روح، بما ينعكس على سلوكهم فيما بينهم ومع غيرهم، كما أن الفن والثقافة هما صناعة تصديرية بالدرجة الأولى، وقد سبقا التمثيل الدبلوماسي بين الدول، فقبل افتتاح السفارات كان التواصل الثقافي والفني سباقاً بين الشعوب، كما أنه الشفرة التي تتمايز بها الشعوب عن بعضها وتتميز وتحفظ لكل شعب هويته وتراثه، لأنه منبع إلهام لا ينضب.

كما أنه ينمي في أصحابه العطاء وتأمل البيئة من حولهم، لأنه زادهم الذي يلتقطون من بين مفرداتها إبداعاته، لذا فالمثقف والفنان هما أبناء بيئتهما وفي التحام دائم مع مجتمعهما، كما أن إبداعاتهما يشاركهما في الاستمتاع بها من حولهما، وتلك قيمة أخرى.

وفي عصر زادت وتيرة تسارعه، وغلب على مفرداته التكوين المادي، تصبح رياض الثقافة والفن هي الواحة التي يجلس الفرد في ظلها الوارف، بعيداً عن هجير الحياة وصخبها الدائم، هنا تكون استراحة محارب يستعيد بها الفرد لياقته النفسية والذهنية، لكي يقدر على أن يكمل مشوار حياته، فالنفس تمل الرتابة، ومعظم القادة والمفكرين والعلماء بمختلف تخصصاتهم كان لهم، فضلاً عن إبداعاتهم في مجالاتهم الرسمية والعملية، ميدان آخر للإبداع، فمنهم الشاعر الفذ، والرسام المبدع، والروائي الملهم.

ولا شك في أن التنوع الثقافي وقبول الآخر الذي تعيشه دولتنا، يمثل إثراء للمكون الفني والثقافي، ويجعل منها جسراً ثقافياً وحضارياً بين الشرق والغرب، ورصيداً نوعياً يضيف إلى قوتنا قوة.

عندما يصبح الخيال واقعاً

«إن وظيفة القائد الأساسية هي استخراج أفضل الأفكار من فرق العمل، وتطبيقها في الواقع، لتحقيق سعادة ورضا الناس، وإننا بحاجة لأدوات جديدة، وطرق مختلفة، وإبداع مستمر، للاستمرار في بيئة تنافسية عالمية، تزداد قوة يوماً بعد يوم».

بهذه الرؤية الواضحة وهذا الطرح العميق، أسس صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي، رعاه الله، منهجاً في القيادة، دأب على الدق المنتظم على مفرداته، ذلك أن مجالات تطبيقه غير محددة بحدود الدوائر الحكومية والمؤسسات الرسمية للدولة، بل يستوعب في إطاره كافة مجالات الحياة، ومختلف مناشطها، مؤسساً بذلك مؤهلات القيادة للجيل الحالي، ولأجيال المستقبل.

وعندي أن هذه الرؤية ترتقي إلى مرتبة القانون، وكلمة قانون تعني أنها ثبتت صحتها للدرجة التي لا يتسرب إليها ظن أو شك، كما أنها تمثل حركة حاكمة، إذا توافرت لها مقدمات تحقق النتائج، حيث تخلص علوم الإدارة والقيادة إلى أن

أفضل السبل، لتحقيق خطط الدولة، ونجاح تنفيذها، واستمرارها، هي أن تتسع دائرة المشاركة في وضعها، وأن يكون الأفراد المعنيون بها جزءاً من الخطة نفسها، وذاك هو السبيل الوحيد، إن لم يكن الأوحد، للحفاظ على مكتسباتها، وضمان استمراريتها.

والقيادة الحقة هي التي تمتلك القدرة على الفرز، والالتقاط من بين ملايين المفردات، التي تتعامل معها، لتدفع بها، وتعطيها زخم التطبيق، وهنا تأتي قيمة القيادة، التي تنظر إلى الأفكار لا إلى الأشخاص، وأن قيمة الفكرة أهم من مصدرها، فالرجال يعرفون بالحق وليس الحق يعرف بالرجال، وهنا قيمة مضافة عندما يستشعر كل فرد أن فكرته مقدرة ومعتبرة، لتنفخ في روحه المعنوية، وتزيد من دافعيته، لينتج أفكاراً، بدلاً من أن ينتظر دائماً ما يقدم له من أفكار، وهذا هو الطريق لصناعة قادة جدد، بل وزرع الثقة في نفوس أبناء الوطن.

لذا كان إبداع القيادة في جلسات العصف الذهني، التي جعلت مؤسسات الدولة ليست فقط بيوتاً للإبداع وصناعة الأفكار، ولكن لتنفيذها كذلك، فما أصعب أن يحال بين الفكرة المبدعة، وبين تطبيقها، لتعم فائدتها، وتقر عين صاحبها.

إن من الآفات التي أصابت العديد من المؤسسات في عالمنا العربي، أن أصحاب الأفكار المبدعة لم يجدوا من ينصت إليهم أو يلتفت إلى أفكارهم، فقتل لديهم مجرد الرغبة في التفكير، وأصابهم الإحباط، واستشعروا الغربة في أوطانهم، ومنهم من هاجر إلى بلاد عاشت على أفكارهم، وارتقت بها، بعد أن أتاحت لهم البيئة المواتية.

ومن غير الممكن تطبيق الأفكار الجديدة بأدوات تقليدية، ولكن لا بد لتمام الإبداع من ابتكار السبل، التي توصل إلى الهدف، كما أن الإبداع لا يتوقف عند

الفكرة، ولكن هناك إبداع في التخطيط والتنفيذ، وهذا يتطلب من أبناء الرؤية، الذين يتحملون مسؤوليتهم الوطنية، أن يسابقوا الزمن في اكتساب مهارات جديدة والتعامل مع مفردات العصر بمهاراته ولغته وأدواته...

لأن الأهداف الكبيرة، التي تغير حياة البشر، لا يصلح معها الأداء التقليدي الرتيب، وهذا ما أكدته القيادة من أن الثبات على حال هو نوع من التراجع، لأننا نعيش عصراً، وتيرة حركته غير مسبوقة، ومن لم يستطع أن يغالب ليجد لنفسه وشعبه مكاناً يرضي طموحه، لن يكون تنازل عن حقه فقط، بل عن حق الأجيال القادمة.

ولأن الأمر على هذا النحو، كان إطلاق استراتيجية تحويل دبي لمدينة ذكية، التي تتضمن ستة محاور أساسية، و100 مبادرة في النقل والمواصلات والبنية التحتية والكهرباء والخدمات الاقتصادية والتخطيط العمراني، إضافة لتحويل 1000 خدمة حكومية لخدمات ذكية خلال السنوات الثلاث المقبلة، التي تأتي في السياق المنطقي للرؤية، التي تهدف إلى تحويل دبي من مدينة، نعيش على أرضها، إلى مدينة تعيش فينا ومعنا، من خلال تطوير جودة الحياة، وأن يشعر كل فرد يعيش على أرضها بذلك، وهنا تأتي أهمية الشراكة بين القطاعين العام والخاص، باعتبارهما جناحي مسيرة النهضة.

إن أهمية استراتيجية تحويل دبي لمدينة ذكية، تكمن في أنها لا تنظر فقط إلى المستقبل والأجيال القادمة، لكنها لا تنسى أهمية أن يلمس أبناء هذا الجيل حركة التطور، وتجويد الحياة كل لحظة.

من هنا تأتي أهمية ما قاله صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد في ومضاته، من أن «المستقبل يبدأ الآن وليس غداً»، وهو بذلك يؤكد أن هدف العمل الجاد والتطوير الدائم ليس فقط للأجيال القادمة، ولكن للجيل الحالي، لأن كثيراً

ممن يريدون الهروب من معضلات الواقع وتحدياته، يتحدثون عن المستقبل، ولكن شجاعة المسؤولية تتطلب أن تكون هناك عين على الحاضر، وعين ترقب القادم، وتستعد له.

ولا شك في أن إتاحة هذه الحالة من الرضا والأمل الدائم في أن الغد يحمل دائماً أنباء سارة، أمر صعب التحقق، لو لم تكن لغة القيادة ذاتها لغة تغذي هذه الروح في أبناء الوطن، وتجعل لحياتهم معنى، ولوجودهم قيمة، وأن كلمة مستحيل لا وجود لها في قاموس الرجال، الذين تعلو همتهم، وتصغر أمامهم مهما كانت وعورة طرق الصعود، لتسري هذه الروح في جسد الوطن فيظل فتياً بفتوة أبنائه، وقدرتهم، وهو ما أكده صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد حين قال: «إننا قادرون على تحقيق كل ما نتخيله»..

وهل كانت الأعمال الخالدة في تاريخ الشعوب قاطبة إلا أحلاماً في خيال قادتها؟ وهل تفردت القيادات وتميزت إلا بقدرتها على الحلم، والعمل على تحويله إلى واقع، وتحمل المخاطرة والعنت في سبيل ذلك؟ فلم يكن أبداً طريق النهوض ممهداً ومفروشاً بالورود، إنما تروى شجرته دائماً بالعرق والجهد، الذي لا يعرف الكلل أو الملل، مستنداً إلى الثقة بعون الله، ثم أبناء الوطن وقدراتهم.

هذه هي الروح التي غيرت خريطة منطقتنا، حين حول المؤسسون الإمارات المتصالحة إلى الإمارات العربية المتحدة، وبهذه الروح وتلك الطاقة وضع جيل المؤسسين ثوابت البناء، التي بها حافظ ونما من تربى في كنفهم، فأضحت تجربتنا في الاتحاد والنهضة نموذجاً يحترم ويحتذى، وبهذه الروح وحدها يمكن أن يصبح الخيال واقعاً.

الاتصال المؤسسي وإدارة السمعـة

مـن الصعب على الإنسـان أن يكـوّن خبراتـه الحياتيـة، بكافة أشكالها وتعرجاتها وتفاصيلهـا، عبـر المـرور بتجربـة شـخصية، كمـا أنـه مـن الصعـب أن تنطلـق أحكامـه علـى مـا يحيـط بـه، عبـر تجربـة ذاتيـة تخصـه وحـده، وإلا فإنـه سـيحتاج إلـى مئـات السـنوات، التـي تضـاف إلـى عمـره، لتكتمـل تجربتـه، وتتسـع دائـرة معرفتـه. مـن هنـا كانـت أهميـة الاتصـال بكافـة أشـكاله..

ومختلـف وسـائله، الـذي كشـف الزمـن وذهـب بالإنسـان إلـى عوالـم، لـم يكـن لـه أن يذهـب إليهـا مـن دونـه، فقـد اسـتطاع أن يصعـد بـه علـى سـطح القمـر، وهـو جالـس علـى أريكتـه، كمـا اسـتطاع أن يغـوص بـه فـي أعمـاق البحـار مـن دون أن تبتـل أقدامـه، وطـاف بـه بيـن بقـاع المعمـورة ليحيطـه علمـاً بعـادات وتقاليـد وثقافـات مختلـف الشـعوب مـن دون أن يلتقـي بهـم، كمـا قامـت وسـائل الاتصـال بـدور مراقـب البيئـة، الـذي يخبـر الإنسـان بحالـة الطبيعـة حولـه، وفـي مختلـف البلـدان، ليأخـذ الحيطـة والحـذر.

لـكل ذلـك أصبحـت أدوات الاتصـال وأشـكاله ـ سـواء الجماهيريـة التـي تتوجـه

إلى الجماهير مجتمعة، أو الشخصية التي تتجه إلى أفراد بعينهم ـ قريناً للفرد لا يمكن أن يعيش من دونها، فالإنسان بطبعه كائن اتصالي للدرجة، التي جعلت الحبس الانفرادي من أقسى درجات العقاب التي تقع على الفرد، كما أن الاتصال لم يتوقف دوره عند هذا الحد..

لكن من أهم الأدوار التي قام بها وما زال إدارة السمعة وصناعة الصورة. ولأن الإمارات تسعى إلى أن تكون مصدرة لأفضل الممارسات العالمية، كان المنتدى الدولي للاتصال الحكومي، الذي عقد في الشارقة مؤخراً، يهدف إلى جلب أفضل الممارسات الدولية في قطاع الاتصال الحكومي، وبناء منظومة جديدة في فكر الاتصال الحكومي، تستفيد منها المؤسسات الحكومية والعاملون في قطاع الاتصال، ليس فقط في دولة الإمارات والمنطقة العربية فحسب، وإنما في العالم أيضاً.

ومن المعلوم في علم الاتصال، أن الكثير من سلوكاتنا تجاه مختلف القضايا والمؤسسات لا يتم وفق ما تقوم به فقط من أدوار، ولكن وفق ما نراه نحن، وما هو مطبوع لدينا من صور حولها، فنحن لا نرى الأشياء كما تحدث، ولكن كما نفسرها نحن، كما أننا نضيف إليها من ذواتنا، ولذلك قال الشاعر إيليا أبو ماضي: «كن جميلاً ترى الوجود جميلاً»؛ أي أن الرؤية نابعة مما هو مطبوع في أنفسنا حول ما نراه، لذا فقد يكون الحدث واحداً، ولكن تختلف حوله التفسيرات والتأويلات.

ولا شك في أن إدارة السمعة هي أحد أهم المفاهيم الحديثة، التي تتم عبر الاتصال المؤسسي المستمر، لتكريس سمعة طيبة للمؤسسة، للدرجة التي تجعل جمهور المتعاملين ينظر إليها باعتبارها مؤسسة وطنية صالحة، من خلال ما تقدمه له من تسهيلات وخدمات، ما يجعل جمهورها يقف بجانبها ويساندها عند تعرضها للعثرات أو الأزمات.

كما أن إدارة السمعة لا تعني فقط التوجه إلى الجمهور الخارجي، وإغفال الجمهور الداخلي، وهم العاملون في المؤسسة، على اعتبار أن توفير بيئة مواتية ومناخ محفز، من شأنه أن يحقق الرضا لدى العاملين في المؤسسة، ما يشعرهم بالفخر بالعمل لدى المؤسسة، ولذلك انعكاساته على سلوكهم مع جمهور المؤسسة الخارجي، باعتبار أنها حلقات متصلة ومكملة لبعضها بعضاً، ففاقد الشيء لا يعطيه.

وفي ظل اتساع مجال الأعمال، وما ترتب عليه من وجود كيانات مؤسسية متعددة الجنسيات، فضلاً عن المنافسة الكبيرة، كان لا بد أن تستخدم المؤسسات أياً كان مجال عملها، أكثر وسائل الاتصال تأثيراً وتحقيقاً لأهدافها، وتكوين رصيد لها من السمعة الطيبة في البيئة، التي تعمل في إطارها، ذلك أن السمعة الطيبة للمؤسسة، تنعكس ليس فقط على جمهورها، ولكن على تعاملاتها مع كافة المنظمات والهيئات الرسمية وغير الرسمية، كما أنها الضمانة لانضمام شرائح جديدة لجمهورها.

ومن خلال بعض المشاهدات، هناك الكثير من المؤسسات والدوائر، التي تقوم بعمل جاد ومتميز، غير أنها لم تصل به بعد إلى قطاع كبير من الجمهور، أو أنها توجه رسالتها الاتصالية إلى شريحة متجاهلة شرائح أخرى، قد تكون أكثر تأثيراً، خاصة أن محصلة السمعة الطيبة للمؤسسات العاملة في مختلف الميادين، تصب في الأخير في مصلحة المجتمع وصورة الدولة، باعتبار المؤسسات مكوناً مهماً وفاعلاً في تنمية منظومة الأداء، وهو ما أكده نيكولاس جورجيس، الشريك التنفيذي في معهد السمعة، حين قال: «تعتبر السمعة أهم مقياس لنجاح الشركات والمدن والدول، وفقاً لإحصاءات أجريت في عام 2011، والدليل أن 70٪ تقريباً من سمعة الدول تعتمد على الحكومة والشعب في آن».

ومن المقطوع به يقيناً أن الاتصال مهما كانت فاعليته، لن يكفي وحده لترسيخ سمعة طيبة للمؤسسة، ما لم يصاحب ذلك عمل جاد وحقيقي على أرض الواقع، يلمسه الجمهور، لذا فإن على المؤسسة تحمل مسؤوليتها الاجتماعية، تجاه المجتمع بصفة عامة وجمهورها على وجه الخصوص، من خلال برامج واضحة ومؤثرة، تسهم في إسعاد ورفاهية المحيطين بها، من خلال المساهمة في دعم البحث العلمي، والحفاظ على البيئة، والمشاركة في الفعاليات المجتمعية، والتخفيف من معاناة بعض المتعثرين، باعتبار ذلك شكلاً من أشكال التعبير عن الامتنان للدعم المجتمعي، الذي لولاه لما كان نجاح المؤسسات ذاتها. هنا تنشأ حالة من الرضا المجتمعي الذي يتحول إلى ولاء عاطفي، يربط المؤسسة بالجمهور، الذي يحافظ بالتبعية على تعامله معها، وعدم التحول عنها عند أصعب الظروف.

كذلك فإن إحدى أهم أدوات إدارة سمعة المنظمة، هي ما تقدمه من خدمة حقيقية ترضي جمهورها، وهو ما أكده صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، رعاه الله، حين قال: «قيمة المسؤول ما ينجزه في خدمة الناس»، فضلاً عن وضع قاعدة غاية في الأهمية في مجال إدارة السمعة، وهي قوله: «أهم من الخدمة طريقة تقديمها، ورضا المتعاملين»، حيث إن الرقي في تقديم الخدمة لا يسعد فقط جمهورها، لأن السعادة حالة وقتية، ولكن يرتقي به إلى الرضا عن أدائها، وهي حالة أكثر ديمومة من السعادة.

قمة الإبداع وعبقرية التجربة

أصبح موعد انعقاد القمة الحكومية السنوي محط أنظار كل الراغبين في نهضة وبناء مجتمعاتهم، لذا فقد تخطت القمة الحكومية الحدود الجغرافية للإمارات، لتصبح منتدى عالمياً لصناعة الأفكار وتبادل الخبرات، ليس على المستوى الإقليمي فقط، ولكن على المستوى العالمي، وهذا ملمح يجب النظر إليه، لأن عبقرية التجربة الإماراتية في الإنجاز الحكومي.

تأتي من أنها تخففت من كافة الأثقال التي تحد من انطلاقها، فلم تتلون بلون إيديولوجيا يجعلها تسير في مسار واحد مهملة أي تجارب ناجحة بعيدة عن هذا التوجه، فانفتحت على كل التجارب الدولية بعقل مفتوح، فراحت تأخذ الحكمة أياً كان مصدرها، ولم تهمل صوت أبنائها المبدعين، وأكد على ذلك صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، حين قال: سُئلت من أين تأتي بأفكارك؟ فأجبت: منكم ومن أفواه الناس وممن أزورهم في أماكن عملهم.

الجانب الآخر أن نموذج العمل الحكومي في الإمارات تحرر من جمود المصطلحات الخشبية، التي تستخدمها عادة المؤسسات الرسمية في كثير من

الدول، والغامض منها يفوق الواضح، وغير المفهوم يربو على المفهوم، وكأنه مقصود ألا يفهم المواطن منه شيئاً لكي يسلم بصعوبة المشهد الذي يفوق قدرته على الفهم والاستيعاب.

وكانت النتيجة هي أن الحكومات أصبحت تعمل في واد ببنياتها ولغتها وأرقامها، والجمهور المعني بمخرجاتها في واد آخر، وانعدم التفاعل والتواصل الواجب، وصارت الشعوب لا تعرف عند الأزمات كيف تساعد حكوماتها، لأنها تسمع دائماً أنه لا أزمة، وكأنها أمر مخجل، على الرغم من أنه يغرق فيها حتى الرقبة، وعند الإنجازات لا يرى غير أرقام لا يدرك دلالاتها، ولا يتعدى تأثيرها مداد الحبر الذي كتبت به، ولا يرى أثراً لها في مجريات حياته اليومية.

من هنا كانت عبقرية التجربة الإماراتية في وضوح هدف القيادة، الذي عبرت عنه في بداية القمة الثانية، وهو صناعة الأمل، كما حددت المهمة الرئيسية لعمل الحكومة بوضوح، وهو الانتقال من رضا المتعاملين إلى إسعادهم، وهو ما يمثل جوهر العلاقة التي يجب أن تسود بين الحكومات والمواطنين، حيث يتطلع المتعاملون للحصول على أفضل الخدمات بسهولة ويسر، مما يفرض تحدياً على الحكومات لتلبية هذه التطلعات من خلال قنوات إبداعية، ووسائط ذكية، وفتح آفاق تفاعلية، واستخدام وسائط ذكية، تصل إلى المتعاملين وتحقق لهم السعادة.

هذا الوضوح في الرؤية يعتبر المرجعية التي يقاس عليها مدى تحقيق الأهداف، دون الدخول في طلاسم اللغة ومتاهات الأرقام والنسب التي لا يعني المواطن منها إلا ما ينعكس على مجريات حياته اليومية في تعاملاته. ولذلك لم يكن محض مصادفة أن تتصدر الإمارات القياسات الدولية فيما يتعلق بالرضا عن الخدمات، أو الشفافية، أو سعادة شعبها.

الإشكالية الأخرى التي تعودنا عليها من البيروقراطية الحكومية في العالم العربي، هي انسداد قنوات التواصل بين المستويات الإدارية من أسفل إلى أعلى، أو مرورها بمرشحات تقضي في طريقها على كل فكرة مبدعة قبل أن تصل إلى صاحب القرار، إن لم تقض على الدافعية للفكر المبدع في الأساس، فضلاً عن صعوبة الاتصال الأفقي والتنسيق بين الإدارات بعضها وبعض، والعمل كجزر منعزلة مما يبدد الجهد والوقت ويصنع التضارب، وهو ما تجاوزته التجربة الحكومية الإماراتية باتباع سياسة الباب المفتوح، التي تجعل الوصول إلى القيادة الحكومية في أعلى مستوياتها أمراً متاحاً، فضلاً عن سعي القيادة نفسها إلى أصحاب الأفكار ورعايتها منذ أن تكون فكرة، إلى أن تصبح عملاً كبيراً ينفع أبناء الوطن ويضيف إلى رصيده الحضاري، وآية ذلك الدكتورة مريم المنصوري التي ابتعثتها الدولة لدراسة الطب في أميركا ورعتها طوال فترات الدراسة، لتعود وقد حصلت على براءة اختراع أنبوب للقسطرة فريد من نوعه عالمياً..

فضلاً عن التنقيب عن التميز وأصحابه، ونشر ثقافته، ورصد الجوائز لأصاحبه في مختلف دوائر ومؤسسات الدولة.

ولأن الإمارات كانت دوماً حاضرة في محيطها العربي والإقليمي حيثما كان المجال، لإضافة رصيد نوعي للمواطن العربي، بل والإنسان في عمومه، تجد الإمارات قرينة له، لذا فقد خرجت القمة الحكومية الثانية من الإطار الوطني إلى المحيط العربي، لتتلاقح الأفكار وتتبادل الخبرات والتجارب مع الأشقاء والأصدقاء، لما فيه صالح الأوطان والمواطنين في كل بلد، فتحولت من قمة حكومية إلى منتدى عالمي لصناعة مستقبل أفضل للبشر، وملتقى سنوي لتبادل الخبرات، وتجمع معرفي محلي وعالمي لمناقشة أفضل السياسات وآخر التطورات والاتجاهات الحديثة، لتحقيق رفاهية وخير المجتمعات.

ولا شك أن هذا الحضور الكبير لمختلف المستويات الإدارية، له دلالة يجب التوقف عندها، لأننا اعتدنا في العمل الحكومي العربي أن تكون أروقة التخطيط وصناعة القرارات شديدة الضيق، بحيث لا تستوعب إلا نفراً قليلًا، دون أن يتم إشراك القطاعات كافة بمختلف مستوياتها الإدارية لكي يتحملوا بالتبعية نتيجة قراراتهم، وهو ما تجاوزته القمة الحكومية.

وهذه رسالة واضحة للدوائر كافة بأهمية إشراك الجميع في الرؤية والاستراتيجية التي تتفرع عنها الخطط، لأنهم في الأخير هم من سينفذونها ويتولون إيصالها للجماهير، وهو الضمانة الكبرى لإنجاحها واستمرارها.

إن عبقرية التجربة الإمارتية تتضح أكثر إذا فتحنا عدسة الرؤية لنرى المشهد الإقليمي والدولي، لنرى غيرنا لنعرف أين نحن.. ولا شك أننا سنجد من حولنا قمماً عديدة تعقد لحقن الدماء ووقف الخراب والتدمير والقتل الذي قضى على الأخضر واليابس، قمماً تعقد لوقف نزف الدماء الذي لم يترك طفلاً ولا امرأة، وهو ما يصيبنا كثيراً بالأسى والحزن، الذي لا يبدده غير هذه الصورة المشرقة لوطن يعقد كل عام قمة ليحقق لشعبه وشعوب أمته المزيد من الرضا والسعادة، عبر البناء لا الهدم والتعمير لا التدمير..

وهذه هي عبقرية التجربة الإماراتية، أن بوصلتها دائماً متجهة لما فيه صالح الشعوب ونماء البشرية، والتي جاءت من الوضوح الشديد في الرؤية وتوحد الهدف، حيث إن الإمارات لديها أفضل فريق عمل واحد، طلابه رجال، وموظفوه قادته، غايتهم واحدة وهي صناعة الأمل وإسعاد الناس.. وأكرم بها من غاية.

الخدمة الوطنية .. ميدان العزة والشرف

الوطنية الحقة ليست كلمات تغنى أو شعارات تردد، لكنها آثار تخلد سيرة، ومسيرة أفعال ومواقف وشواهد تحكي قصة وطن، وتضحيات بالنفس والمال وجهد يبذل، لذا فإن الوطنية في أسمى معانيها تعني أن يكون حب الوطن وتلبية ندائه سابقة على كل نداء، وأن يكون ترابه أغلى من التبر، وأن تبذل النفس فداء له هينة رخيصة، لهذا بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بذل نفسه دفاعاً عن أرضه بجزاء الشهداء، كما اعتبر أن التولي والتخاذل يوم الزحف من الكبائر التي توجب عقاب الله، لأنها خيانة وتفريط في حق الأرض، التي أقلتنا وحنت علينا بإخراج ما استودعها الله من خيرات لننعم بها ولنرد لها الجميل حين نذود عنها.. كل هذا يؤكد حرمة الوطن وقدسيته، التي تقترن مع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

وعلى الرغم من أن الإمارات العربية المتحدة انتهجت السلمية خياراً في التعامل مع جيرانها، سواء على المستوى العربي أو الإقليمي أو الدولي وفي معالجة كل ما يواجهها من تحديات، إلا أن الحق يحتاج دائماً إلى قوة تحفظه

وتصونه، بل إن القوة هي الداعم الأكبر للنهج السلمي وتعظيمه، وهي الضامن الأكبر لمنع العدوان.. هنا تكون قوة الردع هي الأبرز كما يسميها العسكريون؛ والتي تعني أن قوة الدولة هي أكبر ضمان لعدم الاعتداء عليها، أو هي فن استخدام الوسائل والقوى لتحقيق الهدف دون الوصول إلى مرحلة الاشتباك، ومنع أي قوة معادية من اتخاذ فعل أو إجراء إزاء موقف معين.

لذا فإن قانون الخدمة الوطنية الإلزامي، والذي تفرض بمقتضاه الخدمة الوطنية على كل مواطن من الذكور الذين أنهوا الثانوية العامة أو أتموا 18 عاماً، يعد في علم الاستراتيجية فن تعبئة وتوجيه لموارد الدولة ومصادر قوتها بكل أشكالها، لحماية وتدعيم مصالحها والحفاظ عليها من أي مصدر من مصادر التهديد، وقوة الدولة البشرية المدربة، والتي تكون على جاهزية عالية، على رأس هذه المصادر وفي مقدمتها.

ولا شك أن هذا القرار استقبله أبناء الوطن بفرحة كبيرة، ظهرت في مجالسهم وتغريداتهم، التي تابعتها وتناقلتها الصحف والقنوات الإخبارية في العالم. وأرصد هنا بعض ما نشرته قناة «الحرة» العربية عن مواطن يدعى عبدالله الشحي، حين قال: «قرار الخدمة الوطنية الذي أقره مجلس الوزراء، يتطلب من شباب الإمارات إجابة واحدة فقط هي.. أبشر يا أغلى وطن»، والزرعوني يقول: «الخدمة الوطنية شرف لكل مواطن إماراتي سواء كان ذكراً أو أنثى، وسام نضعه على صدورنا من أجل رفعة الوطن وحمايته، نحن درع للوطن». لقد حان الوقت الذي يشارك فيه كل أبناء الوطن في تحمل مسؤوليتهم الوطنية، والحفاظ على مكتسباته، والدفاع عن مقدراته التي ينعم بخيرها أبناؤه.

ولأن الوطنية لا تعرف التفرقة على أساس النوع، أو تقتصر على فرد دون آخر، كما أن المرأة في وطننا كانت شريكاً أساسياً للرجل في رحلة البناء وما زال

دورها مقدراً في مختلف المجالات، لذا فإن فتح باب الالتحاق بالخدمة الوطنية وجعله اختيارياً للإناث، جاء لأنهن شريكات في محبة الوطن ومسيرة التنمية.

وفي تقديري أن الخدمة الوطنية لا تتوقف عند أداء واجب مقدس، ولكن تأهيل الرجل لهذا الواجب من اعتياد الانضباط، وصقل الشخصية، والاعتماد على النفس، والالتزام الخلقي، وتلقي المعارف والعلوم، وبناء الفكر، سينعكس على شخصيته وأدائه على مدار حياته، خاصة وأن هذه المرحلة هي التي تتكون فيها الشخصية، ويمتد تأثيرها إلى فترات طويلة من عمر الإنسان، وبذلك ينشأ لدينا جيل تربى في ميدان البطولة، ولا شك أن لذلك انعكاساته على كافة المؤسسات والدوائر التي سيلتحقون بها في المجتمع المدني، من سلوكيات اعتادوها خلال فترة خدمتهم الوطنية.

إن عبقرية هذا القرار تأتي من أنه فتح الباب لكي يعبر أبناء الوطن عن محبتهم لوطنهم، بالعمل الجاد من خلال الذود عن حياضه، والدفاع عن حدوده، والمحافظة على استقلاله، وأكرم به من شرف لا يدانيه شرف، كما أنه مثل رافداً جديداً يسهم في تنشئة شباب الوطن في مرحلة من أهم مراحلهم العمرية.

إن القيم التي يعيشها من ينتمي للخدمة الوطنية، من التضحية وبذل النفس والاعتماد على الذات، هي باب واسع من أبواب التنمية البشرية والاستثمار في الإنسان، كما أنها تمثل رصيداً إضافياً للعيون الساهرة التي تحافظ على ما حققه الوطن من إنجازات، خاصة وأن هذا الجيل هو من سيحمل راية الوطن وهم قادة المستقبل.

إن لكل مرحلة في حياة الشعوب متطلبات تحتاجها طبيعة التحديات التي تواجهها، ومسيرة اتحاد دولتنا مرت بمرحلة التأسيس ووضع الركائز القوية التي تضمن ديمومته وترسخه عاماً بعد عام، وفيها تحمل المؤسسون الصعاب

وتوحدت الرايات في سبيل أن ترفرف راية واحدة يستظل بظلها الجميع. والآن وبعد مرور ما يزيد على أربعة عقود، يتأكد للقاصي والداني يوماً بعد يوم نفاذ بصيرتهم، وبعد نظرهم، وقراءتهم للتاريخ واستيعاب دروسه، التي تؤكد أن الاتحاد هو السبيل للبقاء والطريق إلى النصر.. آية ذلك أوروبا وكيف توحدت على ما كان بين دولها من قتل ودمار، إلا أنها تجاوزت خلافاتها وضمدت جراحها ليصبح الاتحاد الأوروبي كياناً واحداً.

ثم انتقلت دولتنا إلى مرحلة أخرى تلت مرحلة الاتحاد، وهي مرحلة بناء الدولة، وتكوين المؤسسات، وتوحيد القوات لمواجهة التحديات والتغلب عليها واحداً تلو الآخر، في ملحمة عظيمة، ليشتد العود ويقوى، ويسلم الجيل المؤسس الراية إلى الجيل الذي تربى على عين المؤسسين، وتبدأ الدولة مرحلة الانطلاق الذي لا يعرف حداً، والمنافسة على الرقم واحد من خلال الحفاظ على الأمانة وتعظيم المكتسبات، ولتسطر دولتنا كل يوم صفحة جديدة من صفحات المجد والفخار..

ومرحلة كهذه تعاظمت فيها الإنجازات وارتفع البنيان وتفرد، تتطلب إضافة نوعية، وتجميعاً لكافة أدوات الدولة وتعظيم قوتها، لذلك فإن قانون الخدمة الوطنية مطلب أساس لطبيعة المرحلة، وإفساح المجال لأبناء الوطن للتعبير عن محبتهم لوطنهم في ميدان الشرف والعزة.

الإمارات وصناعة الفضاء

كان للعولمة، التي ترسم خريطة العالم في شتى المجالات، تجلياتها، كما أنها ألقت بظلالها على النظام العالمي في الفكر والثقافة والاقتصاد والسياسة والفن والتكنولوجيا، وما يشغل الناس من قضايا تتخطى حدودهم المحلية أو الإقليمية.

وما تبع ذلك من انفجار معلوماتي يعجز المرء عن متابعته، وتغيرت موازين القوى وأدوات التأثير، فلم تعد القوة العسكرية هي الأداة الوحيدة التي تقاس قوة الدولة على أساسها، كما لم تعد ميادين القتال هي ساحة التنافس والغلبة.

ولم يعد للتعداد البشري التأثير نفسه الذي أصبح يقاس بالخصائص النوعية له، لأن قوة الفكر أصبحت تسبق فكرة القوة، كما أن الأرض لم تعد هي دائرة السباق الوحيدة، ولكن أصبح الفضاء الرحب ميداناً آخر، من يتحكم فيه تكون له الغلبة على الأرض.

ومن يكتفي بالنظر تحت قدميه دون أن يرنو ببصره إلى أعلى، فعليه أن يرضى بأن يكون في موقع المفعول به دائماً، وأن تكون حركته ردات للفعل ما دام عجز عن الأخذ بزمام المبادرة، معتقداً أنه بعيد عما سيحدث من تداعيات أو أنه غير مقصود بها، وبالتالي فهو غير معني بها كذلك.

ولأن الإمارات تدرك طبيعة العصر الذي تعيشه، وتعرف لغته وحجم التحديات التي تواجهها، كانت قيادتها، وهي تقف على أرض تزداد صلابتها بتوحد أبنائها يوماً بعد يوم، تستشرف المستقبل، وتتسع دائرة الرؤية للفضاء، الذي أصبح أهم أدوات القوة الناعمة للدولة، فضلاً عن كونه أحد أهم أبواب الحفاظ على مسيرة البناء للدولة واستدامتها.

لذا كان إطلاق «دبي سات1-» عام 2009، بإشراف مجموعة من أبناء الإمارات المهندسين، الذين شاركوا في بناء وإعداد 30٪ من هذا المشروع الرائد، ثم «دبي سات2-» والذي تم إطلاقه عام 2013، وهو الجيل الأكثر تطوراً والذي اتسعت فيه المشاركة الوطنية.

إن هذه الإنجازات الكبيرة والنوعية تكشف بجلاء عن مجموعة من المرتكزات في إسهام ومنافسة الإمارات في ولوج الفضاء، منها أن سياسة الاستثمار في العنصر البشري عبر سنوات مرت قد آتت أكلها، وآية ذلك أنه منذ إطلاق القمر الصناعي الأول كانت لأبناء الإمارات شراكتهم الفنية الفاعلة، سواء في التصنيع أو من خلال التشغيل عبر «مؤسسة الإمارات للعلوم والتقنية المتقدمة إياست».

إلى أن أصبح زمام الأمر في أيديهم عبر القمر الثالث «خليفة سات»، الذي أطلق صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم إشارة البدء لتصنيعه منذ أيام، والمتوقع إطلاقه عام 2017 بأيدٍ إماراتية خالصة من مهندسين ومهندسات، ليصبح أول قمر يتم بناؤه بأيدٍ عربية 100٪.

إن مشاركة أبناء الإمارات في النسخة الأولى والثانية، وتحملهم المسؤولية كاملة في القمر الثالث، تعطينا ثقة كبيرة في قدرات أبنائنا من مهندسين وعلماء، وأن الكفاءات الوطنية قادرة على تحمل المسؤولية، كما تكشف بجلاء عن ثقة القيادة في أبناء الوطن، وتهيئة البيئة المواتية لتفجير طاقاتهم المبدعة، مستندة إلى تراث علمي زاخر.

أكد عليه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد حين قال: «إن العلماء العرب والمسلمين قدموا للعالم العديد من الإنجازات العلمية والإنسانية في السابق، وما زلنا نؤمن بأن الروح الإبداعية لهؤلاء العلماء السلف تجري في عروق أبنائهم، وأن جميع الشباب العرب فيهم المبدعون والمتفوقون والمبادرون، ونحن نعمل على إعداد وتهيئة البيئة المناسبة لهم كي يحققوا أهداف الأمة».

إن هذا المشروع التقني لا يتوقف مداه عند إطلاق القمر «خليفة سات»، بعون الله، عام 2017، ولكن تسبقه مرحلة بناء بنية تحتية تكنولوجية حديثة على أرض الإمارات يتم إنجازها 2015، لننتقل من مرحلة استيراد واستهلاك التكنولوجيا، إلى مرحلة إنتاجها بسواعد وخبرات وطنية وتوطينها، ولتمثل قاعدة انطلاق في مجال صناعة الفضاء والمنافسة فيها.

ولتكون الإمارات رأس الحربة التي تفتح الطريق لعالمها العربي في الولوج إلى مجال الفضاء، وأن تحتل المكان اللائق بتاريخها وحضارتها في السماء، لكي تحافظ على هويتها وتاريخها ومسيرتها التنموية على الأرض، وأن أبواب الإمارات ستظل مفتوحة للتعاون مع الأشقاء العرب، في أروع أشكال التكامل العربي وأكثرها احتياجاً.

إن دخول وطننا مجال الفضاء على أكتاف أبنائه، يتطلب أن تقوم مؤسساتنا ومعاهدنا ومراكز البحوث الوطنية بتحمل مسؤوليتها الوطنية، في أن تلبي برامجها الأكاديمية متطلبات المرحلة، لتخرج لنا كوادر مؤهلة تسهم في مسيرة التنمية، وأن يعي أبناؤنا حاجة البلاد إلى مزيد من التخصصات العلمية الدقيقة، التي يتجنبها الكثير منهم متجهين إلى الدراسات الإنسانية، وهي مهمة كذلك، إلا أن المؤشرات في هذا الخصوص تحتاج إلى بحث متعمق، كما أن سياسة الابتعاث إلى الخارج ينبغي أن تتماشى كذلك مع متطلبات المرحلة.

كما يجب على وسائل الإعلام إشاعة الثقافة العلمية وتبسيطها، وإلقاء الضوء على أهمية الأقمار الصناعية التي أطلقتها الإمارات، وكيف أن بياناتها تسهم في العديد من التطبيقات المدنية مثل: تخطيط المدن، والتطوير العمراني، والبحوث العلمية، والاتصالات الهاتفية، والنقل، والمواصلات، والهندسة المدنية، والإنشاءات، ورسم الخرائط، والبحوث الجيولوجية، إلى جانب تأثير انعكاسات الأشعة الشمسية على الأرض والمسطحات المائية، إضافة إلى المراقبة والتنبؤ بالضباب، وكيفية استخدام صور الأقمار الصناعية للتنبؤ بالعواصف الرملية.

إن عبقرية التجربة الإماراتية في التنمية، والتي أصبحت محط أنظار ودراسة العديد من البلدان الساعية إلى النهوض، والنموذج النهضوي الإماراتي بات ملهماً لتلك البلدان التي قطعت مسافات كبيرة على طريق التحديث لها، لأنها تسير في خطوط متناغمة بتراتبية واعية.

إن المعضلة الكبرى التي واجهت شعوبنا العربية، هي أن القيادات الجديدة، عند توليها السلطة، تهيل الرماد على إنجازات من سبقها، وتعلن بدء مرحلة جديدة بتوجهات تراها صواباً..

وهكذا دواليك، حتى تكتشف الشعوب أنها ما زالت تحجل في المكان نفسه ولم تفارقه بعد، غير أن من أركان نهضتنا أن ربان سفينة الوطن وقادته يضربون المثل كل يوم في الوفاء للمؤسسين، وهو ما أكد عليه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حين قال: «هذا غرس زايد وراشد، واليوم نجني ثمر عملهما وبنائهما للإنسان»، ليعطينا درساً كيف يكون البناء.

فطوبى لمن أسس وبنى، وطوبى لمن حافظ ونمى، وطوبى لمن أحب هذا الوطن.

خير الناس أنفعهم للناس

بناء المجتمعات وتقدمها له جناحان، هما جناح الدولة، بمؤسساتها الرسمية ودوائرها الحكومية، والتي تدير رحى عملية التنمية والبناء بجهود كبيرة وأعباء ضخمة، أما الجناح الآخر، فهو جناح القطاع الخاص، باعتباره المكمل أو المساعد على عملية البناء، وأياً ما كانت قدرات الدولة الاقتصادية وغنى مواردها.

فإن مساهمة القطاع الخاص في مسيرة الدولة وتقدمها له دلالات كثيرة، تفوق في تأثيرها البعد الاقتصادي، أولها، دور المسؤولية الاجتماعية لهذا القطاع، وهو واجب بلا شك يقع على عاتق العامل به تجاه الوطن، الذي احتضنه ورعاه ونعم بخيره، كما أن أبناء الوطن هم الذين آزروه حتى حقق نجاحاته، ومن دون مساندتهم له، لم يكن ليكون شيئاً مذكوراً، فالمجتمع هو الذي يعطي الشرعية الحقيقية لكافة الأنشطة الاقتصادية وغيرها، عبر موافقته عليها، أو غير ذلك حين يعترض على نشاطها.

كما أن مساهمة القطاع الخاص في مسيرة التنمية، تعبير جلي عن الانتماء للوطن، فالانتماء يعني العطاء، كما أن شكر النعمة يكون ببذلها للغير، وأن تمتد

آثارها لغيري ممن هم حولي، حتى يسعد الآخرون بنجاحاتي، ويدفعوا في سبيل ذلك، كيف لا؟، وآثارها تمتد إليهم.

وهذا هو البعد الأخلاقي في الممارسات الاقتصادية، وهذا الذي يجعل من الجمهور سنداً لتلك المؤسسات، وينظر إلى أنشطتها بعين الاعتبار والتقدير، وعند حدوث خطأ ما خلال ممارستها لأعمالها، يتجاوزه الجمهور، بما لها عنده من سيرة مشرقة، حتى إن تلك الصورة الطيبة تجد صداها عند تعامل تلك المؤسسات الخاصة مع مختلف مؤسسات الدولة، تيسر لها أمورها، باعتبارها مواطناً صالحاً.

الحق أن تلك الأفكار ألحت على خاطري خلال حضوري حفل تخريج الدفع الأولى من برنامج «الإنجاز للتأهيل وسوق العمل»، الذي أطلقته كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، استجابة إلى مبادرة «أبشر»، التي أعلن عنها صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، حفظه الله، واتخذت من مقولة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، رعاه الله: «على الشباب أن يتزودوا بالعلم والمعرفة، لأنهما السلاح الوحيد والدائم والقوي في هذه الحياة»، شعاراً لها، وذلك بالتعاون مع كليات التقنية العليا.

هذا البرنامج يهدف إلى إعداد وتأهيل الكوادر الوطنية من المواطنات الحاصلات على شهادة الثانوية العامة، وذلك في إطار تعزيز قيم المسؤولية الوطنية والمجتمعية، والحرص على إتاحة الفرصة للمواطنات اللاتي لم يتسن لهن إتمام تحصيلهن العلمي.

وقد وفر برنامج «إنجاز»، من خلال فروعه، فرص التدريب والتأهيل على المهارات الأساسية اللازمة لسوق العمل في الدولة، لما يقرب من مئتي طالبة من إمارة أبوظبي ودبي والإمارات الشمالية، وما يقرب من خمسمئة طالبة في فرع الفجيرة والمنطقة الشرقية.

كما يضمن البرنامج، من خلال قسم مختص، توفير فرص عمل لجميع الخريجات من البرنامج، عبر إبرام العديد من الاتفاقيات الاستراتيجية مع الدوائر والمؤسسات الحكومية والخاصة في الدولة، وقد استطاع منذ انطلاقه عام 2013، أن يوفر فرص عمل لما يقرب من 98 ٪ من الخريجات.

الجدير بالذكر، أنه عند استكمال متطلبات البرنامج، تمنح الطالبات المشاركات شهادة «إنجاز للتأهيل لسوق العمل»، كما تمنح الخريجات فرصة إكمال دراستهن الجامعية في كليات التقنية العليا، بعد توافر بعض الشروط.

في تقديري أن إنشاء برنامج «إنجاز للتأهيل لسوق العمل»، جاء نتيجة لوعي رئيس مجلس أمناء كلية الدراسات الإسلامية، السيد جمعة الماجد، بضرورة تعاون القطاع الخاص على النهوض والبناء، وأن يردوا الجميل لهذا الوطن المعطاء، من خلال مساعدة شريحة من بنات الإمارات، لم يتمكنّ من إتمام تحصيلهن العلمي بعد الثانوية العامة، وهن جزء من المجتمع، وبعض من ثروة الوطن البشرية، وأن استثمار هذه الثروة سيسهم في دفع عجلة التنمية والنهضة في كل المجالات.

إن الدور قد جاء على القطاع الخاص، الذي نعم بخير هذا الوطن المعطاء، أن يبذل في سبيله، عبر برامج تنموية تفيد أبناءه وتعبر عن وفائهم لهذا الوطن والأرض الطيبة، التي احتوتهم وحنت عليهم حتى اشتد العود.

ومن ينظر في تجارب الدول الكبرى، يجد شراكة القطاع الخاص ومبادراته حاضرة دوماً، والشاهد أن أكبر الجامعات الأميركية، التي تتصدر قائمة الجامعات الأفضل عالمياً «هارفارد»، هي جامعة خاصة، أقاموها فحافظوا على تقدمها.

إن الخطط التنموية تتم لترقية الإنسان وعن طريقه، كما أنه القادر على الحفاظ عليها، أي أنه طرف أصيل في إنجاحها، لذا، فقد حان الوقت أن يسهم

المخلصون من أبناء الوطن، كل في مجاله، بالوقت والجهد والمال والبذل والفكر، أياً كان حجم الدور الذي يؤديه، وحجم المسؤولية التي يتحملها، وعبر تكاتف الجهود، نرسم أجمل صورة لأغلى وطن، فما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط.

وكما قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «خير الناس، أنفعهم للناس».

جائزة محمد بن راشد للمعرفة وقصب السبق

تواجه أمتنا العربية العديد من التحديات في طريقها للنهوض، غير أن التحدي الحقيقي الذي يواجهها ليس كما يبدو التحدي التكنولوجي باعتبار أن التكنولوجيا هي مرحلة لها ما قبلها، وما قبلها هي المعرفة والعلم والابتكار الذي يصل بنا في الأخير إلى المنتج الذي يسهم في الارتقاء بحياة البشر وتجويدها.

ذلك يعني أن المعرفة هي الأساس الذي يتم البناء عليه، والمجتمعات الغنية معرفياً، بما تملكه من طاقات قادرة على الإنتاج والتجديد، هي المجتمعات الحية التي تتمثل ثروتها الحقيقة في عقول أبنائها وقدراتهم على العطاء، وهي المجتمعات التي تستطيع أن تعظم من ثرواتها مهما كانت قليلة.

كما أن الحضارات العظيمة قامت على أساس معرفي ميزها عن غيرها وجعل لها مكانة لا تدانيها غيرها من الأمم، فضلاً على أن قوة أي عمل يأتي من أساسه المعرفي، فإذا كان منطلقاً من قاعدة معرفية متينة كان النجاح حليفاً له، لأنه في غياب المعرفة ينعدم الابتكار وتحدث العشوائية والارتباك التي لا تصنع تقدماً ولا تقيم حضارة.

كما أن الفجوة الحقيقية بين الدول المتقدمة وغيرها من الدول هي بالأساس فجوة معرفية جعلت من العالم النامي في موقع المفعول به غالباً باعتبار أنه يعيش على أفكار غيره، وهو من أخطر أشكال الأسر الحضاري الذي يجعلنا ننتظر دائماً من يفكر لنا.

وبالتكرار والممارسة يصاب الفرد بالعجز عن مجرد التفكير والمحاولة وتتضاءل قدراته الذاتية، باعتبار أن التفكير والبحث عن المعرفة وإنتاجها وتطبيقها بشكل ابتكاري هو نوع من الرياضة الذهنية التي تحتاج إلى محفزات.

لذا، فإن إطلاق جائزة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، بهدف تشجيع المعنيين والعاملين في مجال المعرفة، وتحفيزهم على الإبداع والابتكار في تطوير مسارات نقل ونشر وإنماء المعرفة حول العالم.

جاءت تعبيراً عن وعي بطبيعة التحديات التي تواجه أمتنا العربية، في أن الحاضر والمستقبل لن يكون فيه متسع للعقول المجدبة وأصحاب الأفكار الفقيرة والتعامل مع مجريات العصر بنمطية أو بعشوائية، وأن تحقيق التقدم والإنجاز لا يمر عبر بوابة ضربة الحظ، لكنه قائم على المعرفة الابتكارية القادرة على تقديم مفردات بعيدة عن النمطية.

كما أن إطلاق سموه لجائزة المعرفة جاء منطقياً في ترتيبه، حيث إنه جاء في سياق بيئة مواتية لتحقيقه، وحالة من العمل المستمر جرت على مدار سنوات بحثاً عن التميز وتكريم أصحابه وتقديمهم لغيرهم، فضلاً عن إرادة سياسية فاعلة لا ترضى بغير المركز الأول في كافة المجالات.

إن مجتمع المعرفة هو المجتمع الذي تتسابق فيه العقول مجتمعة، كل يدلي بدلوه ليسهم مع غيره في الارتقاء بالمجتمع في كل متناسق من خلال تلاقي الأفكار وتناقل المعلومة التي يضيف إليها الآخر من فكره وابتكاره، بحيث

يبدأ كل فرد من حيث انتهى غيره، هنا تتكون البيئة المواتية للإبداع القادرة على استنهاض الطاقات الفكرية والجهود المعرفية بحثاً وإنتاجاً لكافة أفراد المجتمع، وهنا يحقق الفرد ذاته ويشعر بقيمة الدور الذي يؤديه.

كما أن الاقتصاد المعرفي أصبح السمة السائدة للمجتمعات المعاصرة، والذي عرّفه برنامج الأمم المتحدة الإنمائي بأنه: نشر المعرفة وإنتاجها وتوظيفها بكفاية في جميع مجالات النشاط المجتمعي الاقتصادي، والمجتمع المدني، والسياسة، والحياة الخاصة، وصولاً لترقية الحالة الإنسانية باطراد؛ أي إقامة التنمية الإنسانية، ويتطلب الأمر بناء القدرات البشرية الممكنة، والتوزيع الناجح للقدرات البشرية.

إن المعرفة هي الموجه الأهم والأكبر لبناء اقتصاد الدول وتعظيم قدراتها، كما أن الأساس المعرفي هو الأساس في اتخاذ القرارات الاقتصادية الحاسمة في عالم ترامت أطرافه، واقتناص فرص النجاح لا يمكن أن يكون بعيداً عن المعرفة، لذا فإن اقتصاديات المعرفة هي المحرك الأساس للمنافسة الاقتصادية من خلال زيادة الإنتاج والبحث الدائم عن الأفكار الابتكارية والتي من شأنها إضافة قيم نوعية للمنتج.

وفي تقديري أنه سيكون لهذه الجائزة ما بعده من تأثير في المنظومة التعليمية والبحثية في الدولة، وبخاصة أن من أهدافها تفعيل وتطوير الجامعات ومراكز الفضاء والأبحاث في شتى المجالات، إضافة إلى الاستفادة من ناشري المعرفة المخترعين الذين غيروا وجه العالم بابتكاراتهم واختراعاتهم.

إن المجتمع الذي يمتلك ناصية المعرفة، والقادر على إنتاجها وتطويرها وتطبيقها، والذي يجعل من الفكر الإنساني رأس المال الحقيقي، هو المجتمع الذي يملك حاضره والتخطيط لمستقبله.

وكشأن سموه دائماً فيما يطلق من مبادرات فهذه هي المرة الأولى التي تخصص فيها جائزة للإنسانية جمعاء في مجال المعرفة الإنسانية، حققت بها الإمارات، كما هي دوماً، قصب السبق باعتبارها الجائزة الأكبر في مجالها، وفضل السبق لا يدانيه فضل.

بلادي لك روحي ودمي

تلك هي أنشودة الحب التي يرددها أبناء الإمارات لوطن كان دوماً كما الأم الرؤوم التي تحنو على أولادها، وتلك هي الشجرة الوارفة التي يستظل بها كل من ألهبه حر القيظ.. فكانت بنفسها تحميه، وإلى جذعها تستند بلادي. يا شربة الري حين الهجير، ونفخة العافية حين تعز الحياة وتوشك الروح على النزوع، يا من هواها لنا شفاء، والمقام على أرضها يطيب.. أربعة وأربعون عاماً على اتحادك، وسنة الله أن السنين تنال منا، غير أن مرور الأعوام عليك يزيدك قوة وفتوة، كيف لا ومن بناك عرف كيف يكون الأساس، ومن تولى الراية عرف كيف يكون النماء.

بلادي يا أنشودة الخير وأهازيج السلام بت عاصمة للعطاء، ومن فيض عطائك تعلم الإنسان معنى العطاء. أنا المتيم بك العاشق لكل حبة رمل من رمالك، أربعة وأربعون عاماً قد مرت على اتحاد نحن به أقوى وعليه أحرص من كل وقت مضى، فما نراه كل يوم من حولنا لأوطان تنشطر، ومقدرات وخيرات شعوب تهدر..

وفـرص للتنميـة تضيـع، غيـر أننـا بفضـل مـن اللـه الـذي قيـض لنـا قيـادة تعـرف طريقهـا وتحـدد لشعبها غاياتـه، قيـادة أدركـت منـذ عقـود أنـه تأبـى الرمـاح إذا اجتمعـن تكسـرا......وإذا افترقـن تكسـرت أحـادا، قيـادة أدركـت أن محبـة الشعـب هـي الحصـن الحصيـن والسـد المنيـع أمـام كل تحـدٍ وإن عظـم، فكـان بيتـك يـا وطنـي دائمـاً متوحـداً.

بـلادي يـا لحـن العـزة وأنشـودة الشـرف والفخـار، مـن شـراييني صنعـت لـك أوتـاراً أعـزف عليهـا لحـن الخلـود، فأنـت فـي الخلـود آيـة، كيـف لا وعطـاؤك قـد تجـاوز أبنـاءك، فصـرت مـلاذاً للخائفيـن..

وعونـاً للساعين، وسيفاً بتاراً على الظالمين، لـذا عظـم حبـك فـي قلـوب كل من بك لاذ ومنك طلب العون وإليك نظر فكنت دوماً عند الموعد وعلى العهد.

موطنـي حبـك فـي قلبـي يعـزف لحنـاً يزيـل الهمـوم، بـلادي بـلادي لـك قلبـي، لـك عقلـي، لـكل كلـي، وأنـا الواقـف دائمـاً علـى بابـك أستمـع دومـاً لجميـل ندائـك لألبـي وألبـي وألبـى.. أيـا وطنـاً عـز فعززنـا، ويـا وطنـاً حنـا فحنونـا، ويـا وطنـاً طلـب العـلا فكنـا للعـلا جنـوداً وعليـه شـهوداً.

أربعـة وأربعـون عامـاً، ومـن سـنة اللـه فـي الكـون أن السـنين تنـال مـن القـوة والفتـوة غيـر أنـك مـع كل عـام بـل كل يـوم تـزاد شـباباً بشـبابك، وتـزداد فتـوة بقـوة أبنائـك؛ أسـود الوغـى وفرسـان التميـز وطـلاب الابتـكار، يـا وطنـاً لا يرضـى بغيـر المركـز الأول بديـلًا، ولا يعـرف غيـر الابتـكار طريقـاً.

بـلادي مـرت بـك أحـداث جسـام كيـف لا؟ وهـل تصقـل الشـعوب إلا الصعـاب، وهـل يظهـر صلابـة العـود إلا الشـدائد، فأطـل أبنـاؤك يعلـون أصواتهـم أننـا لهـا وأننـا علـى العهـد، فـكان المشـهد الـذي أسـعد كل منتـمٍ لترابـك حيـن تلاحمـت القيـادة مـع شـعبها لتجديـد العهـد والوعـد، مردديـن قصيـدة الانتمـاء، إن وطنـاً لا تحميـه وطـن لا تسـتحق أن تعيـش فيـه..

وأنت يا بلادي بطيب مقامك لم توصدي يوماً بابك في وجه من قصدك، فصرت الحبيبة القريبة.. الغنية البهية.. القوية الفتية.. الأمينة السخية.. العطوفة الرؤوفة.. على كل من التحف سماءك، وتوسد ترابك، وعاش في كنفك، فصار الكل أبناءك.

بلادي اعذريني إن قصر قلمي وتناثرت كلماتي فباتت عن وصفك عاجزة، وعن حبك غير ناجزة، وفي سرد حلو صفاتك غير منجزة، فكم من محب تلعثم، فمن محبتك لنا تعلمنا كيف يكون الحب، ومن فيض عطائك عرفنا كم نحن في جنبك مقصرين، ومن شدة بأسك ورفعة شأنك تعلمنا العزة، وصار التحدي ميداننا..

ومغالبة الصعاب عنواننا، وبغير الصدارة لا نرتضي، فصار العالم ينظر إليك بكل التقدير والفخار، وصرت أنت الملهمة، أنت أنت المعلمة، صرت نوراً يبذر الأرض حباً وخيراً، ويوم كان الهدم لغة من حولك كان البناء لغتك، ويوم كانت الفرقة تنفث شرها كان الاتحاد طريقك، ويوم كان الظلم مطية غيرك حملت ميزان العدل، ويوم نادى المنادي حي على العطاء كانت مبادرات الخير تزرع في أرضك الطيبة لتثمر خيراً وعدلاً ونماء.

بلادي لك قلبي، لك روحي، لك كلي، فأنا منك، وبك، ورغم أني طفت العالم من شرقه لغربه، غير أني لم أسعد يوماً إلا بقربك، رمالك لؤلؤ يزين الصدور، ونخيلك أجمل من أجمل زهور، وحبك لحن نردده جيلاً بعد جيل، بلادي لك روحي ودمي.

مجلس ذكي لقائد الحكومة الذكية

القيادة الحقة لا تختار بين البدائل التي تطرح أمامها فحسب، لكنها تطرح بدائل جديدة غير مطروحة وغير مطروقة، وخارج صندوق التفكير النمطي أو المتوقع، كما أنها القيادة التي تستطيع بقوة المنطق وجلاء البيان أن تجعل من حولها يتفاعل مع أطروحاتها سواء من القائمين على تفعيلها واستمراريتها حتى تؤتي ثمارها، أو هؤلاء المستهدفون بهذه الأفكار وإن بدت كما قلت غير متوقعة، وهل القيادة الحقة تبحر دائماً في المناطق الدافئة أم أنها تحمل حلماً تؤمن به.

أقول هذا بعد أن أطلق صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم «مجلس محمد بن راشد الذكي»، ليكون أكبر منصة ذكية تضم 30 دائرة حكومية في دبي، هدفها فتح قنوات التواصل بين القيادة السياسية وبين الجمهور على مدار الساعة، بإشراف مباشر من سموه، بما يعني أن كل فرد يستطيع أن يصل بفكرته أو رأيه أو ملاحظاته.

والحق أن ذلك ليس بجديد على سموه الذي يعد من القادة الأكثر استخداماً

لوسائل التواصل الجديدة في التفاعل مع شعبه، هذا التواصل الذي هو إرث ثمين كرسه المؤسسون ويحرص على استمراره وتعميقه من تربوا على أعينهم باستخدام كافة الوسائل الحديثة التي تفسح المجال للجمهور للتواصل بشكل أكثر فاعلية وهو ما يتوافق ولغة العصر، وهو ما أكده سموه قائلاً: «أبوابنا كانت وستبقى مفتوحة وقنوات التواصل معنا مفتوحة، واليوم نضيف قناة جديدة ومجلساً جديداً يضم جميع الجهات الحكومية معنا لتلقي الآراء والاقتراحات والاستماع للملاحظات».

ولا شك أن هذا النمط من القيادة هو الحافز والدافع إلى تحقيق الإنجاز ومواجهة كافة التحديات بسند من فكر مجتمعي يعبر عن أفكار ورغبات واحتياجات الجمهور.

إن الآفة التي أصابت المسؤولين في جزء كبير من أمتنا العربية أنهم معزولون عما يحتاج إليه الناس، ومصابون بصمم مقصود عمّن حولهم وهو ما جعل المسؤول في واد والشارع في واد آخر، وكانت النتيجة الحتمية تلك الفوضى التي نشهدها في الشارع العربي.

إن قدرة الجمهور على التعبير عن رأيه تشعره بأنه يملك كافة الخدمات التي هو معني بها من الأساس، كما أن إحساسه بأن صوته مسموع، وكلمته مقروءة، وملاحظاته لها أثر في الممارسات اليومية، وفكرته تؤخذ بعين الاعتبار من القيادة في أعلى مستوياتها هذا الإحساس يرسخ لديه القيمة الحقيقية للمواطنة، وأنه مشارك بالفعل في الإنجازات المحققة على الأرض، وهو ما يدفعه للحفاظ عليها وتنميتها.

إن دبي التي انطلقت من حدائقها نسائم التميز فصارت اليوم ثقافة في حدائقنا السبع، تطلق اليوم المجلس الذكي الذي يجب أن يحتذي به كل

مسؤول في وزارة أو دائرة أو مؤسسة حكومية أو خاصة، كل على قدر حاجته وحدود مسؤوليته والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها، وعندما يدرك كل صاحب مسؤولية أن هناك من يتابعه وأن المعني بالخدمة يستطيع أن يصل بصوته إلى أعلى مستويات المسؤولية ينعكس ذلك على مستويات الأداء المقدم وهو ما يعظم من أثر ما يقدم للجمهور.

ولا شك أن إطلاق صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد للمجلس الذكي هو نموذج حي لكيفية تطويع التكنولوجيا الجديدة لتحسين جودة حياة الناس وتعزيز الراحة وتوفير الرفاهية للجميع، وتلك هي حالة التوازن التي استطاعت أن تحققها الإمارات العربية بامتياز حين حافظت على الحالة الفريدة من التواصل بين القائد وشعبه، وعمقت ذلك من خلال تطويع وسائل التواصل الجديدة لتحقيق ذات الهدف، كما أنه تجسيد لمبادرة سموه في الاستخدام الإيجابي لتلك التكنولوجيا بعيداً عن جوانبها السلبية.

إن تأكيد سموه على أن الأفكار ليست حكراً على أحد وليس لها وقت محدد هي مقولة عبقرية تستحق التوقف أمامها طويلاً، حيث أكدتها كافة الدراسات المتعلقة بآليات الإبداع وطبيعة الأفكار المبدعة التي خلصت فيها إلى أن أصحاب الأفكار المبدعة لا يتفاعلون معها بالقدر الكافي إلا عندما يدركون أن هناك من يستمع إليها، فما بالك بمن ينتظرها ويدفع بها! كما أن التجارب أثبتت أن وقت الفكرة المبدعة وتوقيتها لا يرتبطان بحالة منتظمة وهذا يتطلب تدوينها في الحال، فما بالك بمن يستطيع أن يدفع بها إلى القيادة مباشرة، وهو ما يبعد عن أسباب وأد الإبداع عندما يتم التعامل بها عبر المرور بقنوات روتينية قد تفقد الفكرة وهجها والدافعية إليها، ذلك أن الإبداع وهو حالة استثنائية لا يمكن التعامل معها بأدوات تقليدية، لذا أطلق قائد الحكومة الذكية «المجلس الذكي».

حتى تكتمل الصورة

تابعت كما تابع أولياء الأمور وعشرات الأسر المقاطع التي تُصوّر حوادث اعتداء من معلمين على طلابهم في الفصول الدراسية، واستهجنتها ورفضتها كما أنكرها معظم من شاهدوها، سواء بين الناس أو المسؤولين والمعنيين في وزارة التربية والتعليم، باعتبار أن ما أقدم عليه المعلم يتنافى مع أصول مهنة التدريس التي تتطلب من المعلم أن يحمل بين جنبيه صفات خاصة توهله للعمل بهذه المهنة، التي هي من أشرف المهن وأهمها، كيف لا؟ وهو من يربي أجيالاً في مراحل التكوين الأولى، والتجارب في السن المبكرة تحفر في الذاكرة طويلاً.

وعلى الرغم من الرفض الواسع الذي قُوبلت به هذه المقاطع، إلا أنني أود استكمال بعض جوانب الصورة التي لم تُظهرها المقاطع المتداولة كوني والداً لأبناء في مراحل التدريس المختلفة، إضافة إلى عملي في حقل التعليم.

وأعود لأؤكد أن التصرف الذي قام به المعلم مرفوض مهما كانت المبررات التي دفعته للقيام به، ومهما كانت درجة الاستفزاز التي تعرض لها من طلابه، باعتبار أنه مربٍ قبل أن يكون معلماً، والمربي يجب أن يتحلى بصفات نفسية

تفوق غيره، وما يقبل من غيره كرد للفعل في مختلف المواقف قد لا يقبل منه، كما لا يجوز للطبيب الذي يصاب بإرهاق في غرفة العمليات أن يدع الجريح ويستريح مهما بلغ به التعب، أو أن يغادر الغرفة عند حدوث نزف للجرح ويصاب بالهلع، شأنه في ذلك شأن المقاتل على جبهات القتال، يجب أن يجعل شرف المهنة يسمو فوق كل تصرف ينال من قدسية مهنة طالما نظر المجتمع لأصحابها ومازال بكثير من الاعتزاز والتقدير.

هذه الصورة التي لا يجب أن تهتز أو تشوه لتصرف هنا أو حادث هناك واعتباره تياراً عاماً، وإلا فإننا بذلك نغمط جهود القطاع الأكبر من المعلمين الذين يبذلون الجهد والوقت في إمداد المجتمع بالخيرين من أبنائه، وتلك الصورة المشرقة عن علاقة الطالب بمعلمه المفعمة بالمحبة والمحاطة بسياج من الاحترام والتقدير، وإن شذ عنها البعض معلمين أو طلاباً.

لذا فإن هناك بعض الجوانب التي يجب النظر إليها بقليل من الهدوء حتى تكون نظرتنا جلية وحكمنا منصفاً في عصر أصبحت فيه الصورة المرئية تلعب الدور الأكبر في تشكيل الرأي العام، ولم تعد فيه المؤسسات الإعلامية الرسمية وحدها تنتج المادة الإعلامية بالقواعد المهنية المتعارف عليها وأبسطها التأكد من مصداقية ما يتم نشره.

ولأن الأمر كذلك فقد يحدث الاستخدام غير الرشيد لهذه الوسائل فتختلط الصورة للدرجة التي يحدث فيها تشويش للرأي العام في ظل غياب آليات محددة يمكن التأكد فيها من مصداقية ما يتم نشره أو إذاعته، وفي حالتنا هذه لم ينف أحد ما حدث ولكن لم يخبرنا أحد عن المقدمات التي جعلت المعلم يصل إلى هذه الحالة المرفوضة، ولم يخبرنا أحد عن التصرف الذي قام به الطالب تجاه معلمه، فضلاً عن أن التصوير عبر الجهاز المحمول تم من قبل حدوث حالة التعدي على الطالب من قبل زملاء له، وكأنه كان هناك سيناريو

معد للوصول بالمعلم إلى هذه الحالة، وعندما يصل به تلاميذه إلى نقطة الإثارة تقوم الكاميرات لتسجيل اللحظة، ثم لم يخبرنا أحد عن طبيعة سلوك الطالب المعتدى عليه مع زملائه ومعلميه، حتى ندرك طبيعة شخصيته ومستوى تحصيله العلمي وأسباب تعنيف المعلم له.

كما أنه من الأهمية بمكان، ونحن نتعامل مع هكذا موقف، أن نذهب بعيداً للرؤية بصورة أعمق لدراسة حجم الأعباء الملقاة على كاهل المعلم والضغوط المهنية، وبخاصة أن حالة المعلم النفسية لها تأثير في مستوى أدائه للعمل، وهناك دراسة علمية للباحث عدنان فرح تؤكد أنه ومن بين العوامل المسببة لإحباط المعلم وإجهاده النفسي تدخل الآباء في عمل المعلمين.

فكثير من الآباء يجادلون المعلمين في عملهم، ويخطئونهم في أساليب تعاملهم مع أبنائهم، ويتشككون في قدراتهم وكفاءتهم، مما يهز ثقة المعلم في نفسه، ويقلل من كون التعليم مهنة مغلقة ويحولونها إلى مهنة مكشوفة يتزاحم فيها غير المؤهلين.

وتؤدي هذه الضغوط إلى سلب المعلم هويته المهنية المتخصصة دون غيره من المهن الأخرى في المجتمع، وهو ما يؤكد أهمية مساندة المعلم حتى يؤدي دوره على الوجه الأكمل. كما أنه من الأهمية بمكان أن تغرس الأسرة في نفوس أبنائها احترام المعلم حتى تظل هيبته ومكانته الأدبية قوة رادعة تحول دون تكرار صورة لا نود أن نراها في مدارسنا، وأن تظل علاقة التلميذ بمعلمه بعيدة عن كل ما يشوبها، كما أسعدني أن تفتح وزارة التربية والتعليم خطاً ساخناً مع طلبة المدارس، لرصد التجاوزات وإن كنت أود أن يفتح خط آخر مع المعلمين.

أعود فأكرر رفضي لسلوك المعلم، ولكل سلوك لا يليق أن يقع في محاريب العلم، غير أني أردت إلقاء الضوء ولو قليلاً على الوجه الآخر حتى تكتمل الصورة.

مواقف كاشفة في المشهـد الوطنــي

لا تستطيع أن تعرف حقيقة الرجال أو تخبر أصالة معدنهم أو شدة بأسهم إلا عبر المواقف الحاسمة، هذه المواقف تسمى المواقف الكاشفة وبخاصة إذا تعلق الأمر بقضايا وطنهم، وعلى الرغم من الصعاب وما تتركه من آلام، فإنه من المؤكد أن أمة لا يقابل أبناؤها التحديات ببأس وعزم هي أمة يفتقد أبناؤها الكثير، ذلك أن المواقف الصعبة هي التي تكشف عن القيم الحقيقية للشعوب، كما النار التي تنقي الذهب من كل ما دخل عليه، ليخرج أكثر نقاءً وأغلى ثمناً.

ولقد كان أبناء الإمارات دوماً عند الموعد، واتضح ذلك جلياً في الأيام الماضية، والتي أستطيع أن أطلق عليها، رغم صعوبتها، «عرس في حب الوطن»، زف خلاله خيرة أبناء الشعب، كيف لا وهم من قدموا أرواحهم في سبيله. إن شهداء الحق الذين ضحوا بدمائهم تلبية لنداء الوطن يكشفون بتضحياتهم اليوم كيف أنهم نذروا أنفسهم فداءً للوطن وولاءً لقيادته.

إن هذه الدماء الغالية، التي روت أرض العروبة، تكشف أن نهج الإمارات الثابت في الدفاع عن قضايا أمتها العربية من المحيط إلى الخليج، والتي لم

تغب عنها يوماً، ومن يرجع إلى الوراء قليلاً سيجد الإمارات حاضرة دوماً، ولم تدر الظهر يوماً لنداء أمتها الإسلامية والعربية التي إذا أصاب الوهن بقعة منها تداعت لها وتآزرت معها، ورغم شدة المصاب إلا أن من يدقق في المشهد يدرك من اللحظة الأولى عظم التلاحم بين أبناء الإمارات قيادة وشعباً.

إن الشدائد تكشف عن معادن الرجال، وما قدمه أبناء الإمارات من أرواحهم تلبية لنداء الوطن، وما بذلوه من دماء زكية، بثت روحاً جديدة بين أبناء الإمارات وأسرهم، والشاهد ما قاله والد الشهيد محمد إسماعيل البلوشي: إنه تلقى نبأ استشهاد ابنه بسعادة وفرح، ولم يكن للحزن مساحة في محيط أسرته وبين جيرانه، الذين توافدوا على منزله فور تلقي الخبر، لديه 9 أبناء 8 ذكور وابنة واحدة، مؤكداً أن الأبناء جميعهم رهن إشارة الدولة، وسوف تجتهد الأسرة على إلحاقهم بالخدمة العسكرية لخدمة الوطن الذي قدم وما زال يعطي أبناءه الكثير.

لقد توقفت كما توقف الكثير أمام ابن بار من أبناء الإمارات، وهو مازال في جراحه، يرجو من صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة، أن يفك جبس قدمه ليعود إلى ربعه، إن تلك المواقف تكشف عن حقيقة أبناء الإمارات وعلاقتهم بقيادتهم، التي كانت حاضرة بين الجرحى تطببهم، وفي بيوت الشهداء تشد من أزر أسرهم في مشهد أبوي ندر أن ترى مثله، فإذا بذويهم أبطال كما الأبناء، وآية ذلك والشاهد عليه تلك الصلابة التي أبداها آباء الشهداء وأبناؤهم.

لقد توقفت طويلاً أمام كلمات الوالدة الكريمة التي أكدت فيها أم الشهيد أن دم ابنها ليس أغلى من الوطن، مشيرة إلى أن حزن الفراق يكون على من توفاه الله بصورة أو أخرى، ولكن ليس على الشهيد الذي ينال الكرامة والشرف في الدنيا والآخرة.

تلك هي المرأة الإماراتية التي تكشف عنها المحن فتتحول إلى منح ودروس مدادها العطاء، إن أماً تؤمن بتلك المبادئ جديرة هي لا شك بأن تنجب رجالاً بحق، فكانت حياتهم حباً لوطنهم واستشهادهم في سبيله فأنعم بها وأكرم. وتلك هي المرأة الإماراتية التي نعتز بها وبمن ربت ورعت وبما قدمت وبذلت فكانت شقيقة للرجل في ميدان البناء، ولم ترتض إلا أن يكون لها نصيب في ميدان العزة والشرف.

إن صور جنازات الشرف والعزة التي شملت ربوع الإمارات وما قدمه فلذات أكباد الوطن تاج عز على جبين الوطن المعطاء، الذي يستحق بذل الغالي والنفيس ذوداً عنه في المنشط والمكره، وإن شهداء الوطن أضحوا قناديل تضيء دروب العزة والفخار، وقدوة يحتذى بها لأبناء الإمارات ولأمتهم الإسلامية والعربية، وتجسيداً لقيم التجرد والثبات على المبدأ ونصرة الحق التي ترسخت في دولة الإمارات منذ عهد المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه، ومن تربى في مدرسته وحمل الراية من بعده.

إن الوطن المعطاء لم ولن ينسى تضحيات أبنائه، وستبقى تضحياتهم خالدة محفورة بمداد من عطاء، وتضحية يشع منها نور الكرامة والعزة، وسيظل أبناء الإمارات يتسابقون على الالتحاق بمصنع الرجال، قواتنا المسلحة ميدان الفخر والشرف.

قائد القرن 21

إن إعـداد القـادة الذيـن يمتلكـون مهـارات نوعيـة، ورعايتهـم والعنايـة بهـم هـو العامـل الحاسـم في حاضـر الشعـوب ومستقبلهـم، ذلـك أن القيـادة الواعيـة المدركـة لفـرص النجـاح، القـادرة على اتخـاذ القـرار من خـلال استيعـاب الحـاضر واستشـراف المسـتقبل، فضـلاً عـن قدرتهـا علـى العمـل الجماعـي، وقيـادة فريـق عمـل مسـتندة إلـى فهـم عميـق لطبيعـة مـا تؤديـه وقـدرة على التحليـل، تلـك هـي العملـة النـادرة التـي يجـب التنقيـب عنهـا والعنايـة بهـا، ذلـك أنـه مهمـا كانـت مهـارات وقـدرات الجمـوع مـن النـاس إلا أنهـا تحتـاج إلـى مـن يحـدد الهـدف، ويسـتنفر الطاقـات، ويسـند المهـام، ويعـرف القـدرات، ويصقـل المهـارات، ويقيـم الإداء، وهـو العنصـر الفاعـل والمؤثـر فـي حيـاة النـاس.

ولأن القائـد الحقيقـي المـدرك لمعنـى القيـادة وأهميتهـا هـو الحريـص علـى إعـداد جيـل مـن القـادة المزوديـن بمهـارات تناسـب عصرهـم، مـن هنـا جـاء إطـلاق صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد آل مكتـوم «نمـوذج قائـد القـرن الــ 21»، الـذي صممتـه حكومـة الإمـارات ليمثـل نقلـة نوعيـة فـي مجـال بنـاء القـدرات وإعـداد الكفـاءات

والقيادات في الحكومة الاتحادية، والذي يتميز بالتركيز على المستوى الوطني، وبناء شبكة علاقات فعالة بين القيادات الحكومية، وتعزيز العلاقة مع القطاع الخاص، ذلك أن القيادة الحقيقة هي التي لديها القدرة على إشراك كل الأفراد في كل الأشياء، في الوقت الذي تعتمد فيه على قدر من التفويض والحركة الذاتية عبر مجموعات من العمل، لديها القدرة على الإدارة الذاتية.

فالمركزية الشديدة تقتل المبادرة، وتحد من الإبداع، وتنشر الاتكالية وانتظار القرارات الفوقية أو الحل من الخارج دون تنشيط الذهن أو مواجهة المعضلات، كما أن المركزية الإدارية الشديدة تطيل أمد اتخاذ القرار وهو ما يؤثر في كفاءة المواجهة التي تتطلب مرونة كبيرة يجب إتاحتها لمن هم في الميدان، وهو ما يزيد من فاعلية الأداء.

كذلك إن قائد القرن 21 ليس هو ذلك القائد الذي يدير المؤسسة أو الدائرة من خلال تقارير دورية ترفع إليه من قنوات محددة يأخذ من خلالها قراراته، لكنها القيادة التي تعتمد على الإدارة المرئية أو الإدارة الميدانية من أرض الواقع وليست الإدارة المكتبية، وهو بذلك يفهم بشكل كبير حقيقة العمل ويلم بكافة جوانبه، كما يشارك بفكره من معه، وهو ما يؤسس لبيئة إيجابية محفزة قادرة على الإنجاز ومواجهة التحديات، كما أنه يؤسس بذلك لثقافة الإنصات الإيجابي لآراء العاملين معه، مع القدرة على وزن وتقييم مختلف الرؤى، والتدخل بفاعلية لتحقيق الصائب منها، كما أنها القيادة التي تهتم كثيراً بالعمل القائم على التخطيط ووضوح الرؤية.

ذلك أن الحماس الزائد والرغبة في الإنجاز قد يدفع البعض إلى عدم إعطاء مرحلة التخطيط ما تستحقه، تحت عامل الرغبة في قطف الثمرة، غير أن ذلك نوع من التسرع غير المحمود، ذلك أن التخطيط الجيد وإن طالت مدته هو الضمانة للتنفيذ الجيد، وإدراك كل فرد في فريق العمل لمهامه بوضوح، كما أنه

يزيد من ثقة الفرد بقيادته، ويمنع الازدواجية، ويساعد على تقييم كل مرحلة من مراحل العمل، وإلقاء الضوء على نقاط الضعف والقصور، الذي يمكن تداركه من خلال خطط بديلة يتم وضعها مسبقاً، وهو ما أكده صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد حين قال: «إن تقييم الأداء ومتابعته نهج ثابت في حكومة الإمارات، الهدف منه تطوير كفاءة العمل الحكومي، ورفع مستوى الخدمات التي نقدمها، في سبيل تحقيق السعادة للناس والاستجابة لطموحهم ومتطلباتهم بالشكل الأمثل. ونؤمن بأنه من أجل تحقيق أفضل النتائج التي تتوافق مع طموحنا في الوصول إلى المراكز الأولى عالمياً، فلا بد من تقييم وتحديث خطط العمل وأولوياته بشكل دوري».

إن المراكز الأولى التي تطمح دولة الإمارات العربية المتحدة أن تتصدرها دائماً هي أمر لا يمكن تحقيقه إلا بقيادات وطنية خالصة، تعرف العاملين معها، وتنصت إليهم، وتشعر بشعورهم، وتفهم ميولهم، وتقدر جهودهم، وتمدهم بالمعلومات، مراعية مبدأ الفروق الفردية، تعتمد سياسة الباب المفتوح، والفكر المنفتح، وأن الحكمة ضالتها مهما كان مصدرها فهي أحق بها.

وإذا كان نهج قيادتنا الرشيدة يجعل من إسعاد الشعب غاية، فإن قيادة القرن 21 تدرك من هذا المنطلق أن دورها يتمثل أولاً وقبل كل شيء في مساعدة الآخرين وتقديم الرعاية لهم، وهي بذلك لا تطرح أفكاراً وتطلب من غيرها أن ينفذها مرغماً، بل هي القادرة على التقاط الأفكار من غيرها وبلورتها وإعطائها قوة الدفع القيادي، وتلك هي القيمة الحقيقية للقيادة المستقبلية، كما أنها القادرة على إيجاد بيئة مواتية لإطلاق الأفراد خبراتهم الشخصية، وإشاعة جو من التحدي بينهم، قيادة قادرة على العمل تحت ظروف استثنائية، ولا تخشى طرح المشكلات بل ترى أن الأخطاء هي طرق جديدة للتعلم، وأن معرفتها بداية الوصول إلى الهدف مهما كانت درجة صعوبته ووعورة الطريق المؤدية إليه.

لاءات الإمارات

في عالم مضطرب، ومشهد مرتبك، ورؤى مشوشة، عالم غلب عليه منطق القوة وغابت عنه قوة المنطق، في هذه الحالة التي اختلط فيه الحابل بالنابل، تخرج الإمارات كشعاع من نور يهتدي به الناس، وبمرتكزات الخلاص من هذا المشهد الذي بات يصيب معظم أبناء أمتنا بالهم والحزن، هنا يعلو صوت الإمارات لتنادي من حولها أن أنصتوا إلى صوت العقل والحكمة، وألا تتعاملوا مع العرض دون المرض، إن هذا المشهد الذي لا تعاني منه أمتنا العربية فحسب بل العالم من شرقه إلى غربه، يرجع في الجانب الأعظم منه إلى حالة من الرغبة في إقصاء الآخر وعدم القدرة على قبوله أو الإنصات إليه، وحالة اللد في الكراهية النابعة من التمييز بين الناس على أساس من العرق أو الدين أو المذهب.

هنا تكون الإمارات حاضرة لتعلن عن لاءاتها وهي لا للتمييز لا للكراهية، وعندما تعلن الإمارات عن نبذ التمييز وجب أن ينصت إليها العالم من أدناه إلى أدناه، ذلك أن الإمارات تجربة قائمة وماثلة حين يكون على أرضها ما يربو

على مئتي جنسية من مختلف بقاع العالم، لم يشعروا يوماً بأن المفاضلة بينهم قائمة على العرق أو الدين، وحين تقول الإمارات لا للكراهية فهي متسقة غاية الاتساق مع واقعها، وصادقة تمام الصدق مع تجربتها، ذلك أن قصة الاتحاد ذاتها هي قصة الوحدة بديلة عن الفرقة، والمحبة بديلة عن التخاصم والتشاحن، والسلام بديل عن الصراع، ومصلحة الشعوب بديل عن مجد الأفراد، قصة الاتحاد هي قصة التعايش بدل إقصاء الآخر ونفيه، وهي قصة الأمل الماثلة عندما يسود التشاؤم بين الأجيال.

والإمارات في دعوتها لنبذ التمييز والكراهية لم تكتف بأن يكون ذلك عبر دعوات عاطفية، أو نداءات إنسانية، أو مواثيق شرف قد تختلف من مجتمع إلى مجتمع أو من حين إلى آخر، وقد يلتزم بها البعض أو لا يلتزم، ولكن تم ذلك من خلال قانون أصدرته القيادة الرشيدة، ويقضي بتجريم الأفعال المرتبطة بازدراء الأديان ومقدساتها، ومكافحة كافة أشكال التمييز، ونبذ خطاب الكراهية عبر مختلف وسائل وطرق التعبير.

والحق أن الخطوط العريضة للقانون تسد باباً من أوسع أبواب الفتنة وأكثرها ولوجاً من هؤلاء الراغبين في سكب الزيت على النار، وبث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد أو بين البشر، في عالم تقاربت المسافات بين أفراده، غير أنه ضاقت نفوس بعضهم ببعض.

كما حظر القانون الإساءة إلى الذات الإلهية أو الأديان أو الأنبياء أو الرسل أو الكتب السماوية أو دور العبادة، وهو بذلك يضع خطوطاً فاصلة واضحة جلية بين حرية التعبير وبين غياب العقل وموت الضمير ومسخ النفس والتطاول الذي يؤذي مشاعر الغير، فأكثر الفتن التي حدثت في عالمنا جاءت بين الخلط بين الحرية غير المسؤولة وبين ما يجب أن يلتزم به الفرد تجاه الآخرين، وهو

الخطر الداهم الذي أشعل نار الفتنة في معظم المجتمعات، تلك النار التي لم تزل مستعرة في مناطق من العالم حولنا، كما أنه فتح الباب على مصراعيه أمام تجار الفتن لبث الفرقة والانقسام بين الناس، ولبث أفكارهم التي لا تنمو وتنتعش إلا في الأجواء الفاسدة، ولا تطرب لها إلا النفوس العفنة التي لا تتربح إلا من نشر الفرقة بين البشر.

إن التعامل مع الإنسان كونه إنساناً هو من أسمى معاني الإنسانية، والرسول صلى الله عليه وسلم عندما مرت به جنازة وكان جالساً فقام واقفاً، فقيل له يا رسول الله إنها ليهودي، قال: «أو ليست نفساً»، وكأني بالشيخ زايد رحمه الله يقتدي برسول الله حين طلبت بعض القبائل الأفريقية مد يد العون لإصلاح بعض شؤون حياتهم فلبى طلبهم، فذكر له بعض من حوله أنها قبائل غير مسلمة، فقال قولاً واحداً: «إن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا وخلقهم، كلكم لآدم وآدم من تراب»، ذلك هو الفكر العاصم من كل بلاء، وتلك هي النفس التي أمرنا ربنا أن نزكيها من أدرانها ومن وحل الأرض.

إن غياب القانون، الذي يعيد الحق لكل من وقع عليه غبن أو تمييز أو اعتداء على دينه ومقدساته، يؤجج نار الفتنة والسلوك غير المنضبط، كما أن صنائع المعروف من شيم الرجال، والأمم العظيمة هي التي تنشر الخير في محيطها، والإمارات لم تكتف بأن تبذل الخير على أرضها وفي محيطها بل حملت راية السبق وقالت لا للتمييز، لا للكراهية، لا للفتنة، لا للنعرات، لا للتفتيش داخل عقول البشر، لا للتحريض، تلك لاءات الإمارات التي رسختها بقانون سبقت به غيرها من أدعياء حقوق الإنسان التي لا يعرفون منها غير الاسم.

وطـن لا تحميـه لا تستحق أن تعيش فيه

الوطـن، تلك الكلمـة التي تتكـون مـن حـروف خمسـة، غيـر أنهـا تسـتدعي معهـا معانـي، مـن فـرط تزاحمهـا يعجـز اللسـان مهمـا أوتـي مـن فصاحـة أن يتكلـم عنهـا، والقلـم مهمـا وهبـه اللـه مـن جريـان أن يخطهـا فـي كلمـات جامعـة مانعـة، والفكـر مهمـا كانـت حكمتـه أن يحيـط بهـا، ذلـك أن الوطـن هـو السـياج الحامـي الـذي يشـعر الفـرد بـأن لـه جذوراً يرتكـز عليهـا تشـده إلـى الأرض وتصلـب عـوده، وأنـه ورقـة فـي شـجرة تغـرس جذورهـا فـي أعمـاق تربـة روتهـا الأجيـال بالعـرق، ورعتهـا بالعمـل الـذي لا يتوقـف، والجهـد الـذي لا يعـرف الكلـل أو الملـل، والتجـرد الـذي تلاشـى معـه كل مجـد فـردي، أمـلاً فـي غـد أكثـر إشـراقاً لنـا ولأبنائنـا.

لـذا، اسـتوقفتني بطويـل تأمـل، كلمـات صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد فـي لقائـه خـلال هـذا الشـهر الكريـم، والـذي أوشـك أن يودعنـا، إن الدولـة مهمـا عظمـت مواردهـا الماليـة، وعـلا بنيانهـا واتسـعت رقعتهـا، لا تسـتقيم أبـداً دون تضحيـات وعطـاءات أبنائهـا وبناتهـا، فالوطـن بحاجـة إلـى طاقـات وسـواعد وعقـول أبنائـه فـي كل موقـع، وفـي كل زمـان ومـكان، لنحفـظ للوطـن هيبتـه وكرامـة شـعبه

واستقلاله واحترامه بين الدول، مذكراً بقول مأثور «وطن لا تحميه، وطن لا تستحق أن تعيش فيه».

والحق أنها رسالة جامعة لأبناء الوطن كافة، بأن السياج الآمن الذي يحفظ للوطن مكتسباته والثروة الحقيقية له، التي لا تنضب أبداً وتتجدد دوماً، هي أبناؤه القادرون على البذل والعطاء في سبيل رفعة شأن وطنهم.

ومحبة الوطن لا اختيار للفرد فيها، فهو مجبول عليها، تولد مع ميلاده كمحبته لأمه، وهل للمجبول اختيار؟ آية ذلك والشاهد عليه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في طريق الهجرة من مكة إلى المدينة، نظر خلفه مخاطباً أم القرى قائلاً: «والله إنك أحب بقاع الأرض إلى نفسي، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت».

ولأن محبة الوطن فطرة، كان الموت دونه من أعلى مراتب الشهادة، كما أن التولي حين يحتاج الوطن أبناءه، من الكبائر، والكيد له ومساعدة من يريدون به الشر خيانة عظمى، لذا، فإن حب الوطن والدفاع عنه عندنا ليس من المروءة أو الواجب فحسب، بل هو عندنا دين وعبادة نتقرب بها إلى الله، ونرجو بها الدرجات العلا.

ولأن لكل أمر علامات، فإن التضحية بالنفس والمال وكل غال ونفيس، هي العنوان الأكبر لحب الأوطان والذود عنها، ذلك أن بناء الأوطان، لا يتم إلا بتضحيات أبنائها، التي تتعدد أشكالها وتتنوع ميادينها، تلك التضحيات التي تستخرج من طاقات الشعوب أفضل ما لديها. أين تلك الحضارات التي شيدت على مدار التاريخ دون تضحيات من أبنائها؟

وكما أن بذل الروح دون الوطن من أسمى درجات التضحية، لأنها أغلى ما يملكه الإنسان، غير أن حماية الوطن لها أبواب شتى، ولقد قام اتحاد الإمارات

على التضحية ابتداء، حين استظلت قيادات الإمارات تحت راية الاتحاد، وحين كان الاتحاد هو التحدي الأكبر، كانت التضحية لبناء دولة موحدة قوية، ومع كل يوم كبرت فيه شجرة الاتحاد، عظم معها البذل والعطاء، بحجم التحديات التي واجهت بناء دولة حديثة، غدت نموذجاً يحتذى به، وتبوأت مكانها في مقدم الأمم، ورياح الخير والنماء تهب من أرضها، ليسعد بها أبناؤها والمقيمون عليها، بل وشملت بطيبها أرجاء المعمورة.

وفي تقديري، أن من أسمى صور حماية الوطن، أن يتحمل أبناؤه مسؤوليتهم في دفع مسيرة التنمية، باعتبار أن للتقدم جناحين، أحدهما يتمثل في الدور الذي تقوم به المؤسسات والدوائر الرسمية للدولة، والآخر تقوم به المؤسسات الأهلية والخاصة، التي نشأت في كنفه ونعمت بخيراته، ووجب عليها أن ترد له الجميل، وآية ذلك، تلك المبادرة النموذج التي قام بها رجل الأعمال عبد الله الغرير، وتبرعه بثلث ثروته إلى مؤسسة تعليمية لأغراض خيرية، وهو نموذج لرجل الأعمال الذي ينشغل بواقع أمته، وتطبيق عملي لكيفية حماية الأوطان بالعلم، فبالعلم يحيا الوطن.

إنه من الأهمية بمكان، أن يدرك كل فرد من أبناء الوطن، أنه على ثغر من ثغوره، وعليه أن يحذر أن يؤتى منه، مهما كان مجال عمله وطبيعة مسؤوليته، وحماية الوطن تتطلب من طلاب الجامعات أن تكون تخصصاتهم الجامعية، هي ما يحتاج إليه بناء وطنهم، لا ما يرغبونها هم فحسب، ومن الجامعات، أن ترفد المجتمع بكوادر وطنية تمتلك مهارات نوعية قادرة على التميز والابتكار، كما تتطلب من المراكز البحثية، أن تضع معوقات التنمية على مائدة البحث العلمي، لتقدم خطط عمل قائمة على الحلول المبتكرة والأفكار غير المسبوقة. وإذا كان وطن لا تحميه، لا تستحق أن تعيش فيه، فإن وطناً أظلك بظله ونعمت بخيره، جدير بأن تفنى دونه.

زايد والقيادة بالعطاء

في شهر العطاء والخير تهيم النفس بمشاعر سامية، ويجول الفكر بخطراته، والعقل بنظراته حول قادة ارتبط ذكرهم بالخير، وما قضوه في رحلتهم مع الحياة بالعطاء على من حولهم، وأول من يشخص أمامك في العصر الحديث هو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله، وأكثر ما يحير أي كاتب يتصدر للكتابة عن سيرة ومسيرة الشيخ زايد، طيب الله ثراه، هو من أين يبدأ، وأي زهرة من بستان عطائه يقطف، وما هو الجانب الذي يتحدث فيه عن مناقبه، التي يعز علينا إحصاؤها؟

هل يكون عن زايد الإنسان، الذي أحب شعبه فبادله شعبه حباً بحب وعطاء بعطاء، أم زايد القائد المؤسس، الذي صنع تاريخاً وأسس دولة باتت نموذجاً ينظر إليه القاصي والداني بكل التقدير والاحترام، التي تجاوزت في مراحل التطور، التي تحدثت عنه النظريات العلمية للدرجة التي جعلت من علماء التنمية يعيدون النظر في تراتبية المراحل التي تمر بها الدول، هذه الدولة التي كان قال الشيبة عندما قال له الشيخ زايد، رحمه الله، ما رأيك في أن نقيم دولة

لهـا دسـتور ومؤسسـات حاكمـة منظمـة تأخـذ مكانهـا ومكانتهـا بيـن دول العالـم، فكانـت إجابـة الرجـل: «عندمـا تسـير الناقـة علـى ظهرهـا»، وهـو فـي ذلـك يتحـدث مـن منطلـق الصعوبـات التـي يراهـا والتحديـات التـي يحياهـا مـن قسـوة الصحـراء، وشـح المـوارد، ورقـة العيـش، والنـاس تبحـث عـن أساسـيات الحيـاة مـن عـلاج ومسكن وطعـام، فكيـف يكـون الحديـث عـن بنـاء دولـة، ومـا هـو السـبيل إلـى ذلـك، تلـك هـي مدرسـة زايـد فـي القيـادة التـي أسسـها وتعلـم فـي رحابهـا القـادة، قيـادة لا تـرى فـي التحديـات غيـر فرصـة جديـدة للنجـاح والاسـتمتاع بالتغلـب عليهـا، قيـادة تضـع الهـدف الـذي تؤمـن بـه، وتـرى نتائجـه شـاخصة أمامهـا فـي حيـن ينظـر إليـه الآخـرون باعتبارهـا دربـاً مـن التمنـي والأحـلام، نعـم أحـلام، وهـل تصـح قيـادة مـن دون أن تملـك الحلـم، وهـل مـا يعيشـه أبنـاء الإمـارات مـن واقـع بـات أمـلاً للغيـر أن يعيشـوا علـى أرضـه، ألـم يكـن واقـع اليـوم هـو حلـم الأمـس؟

تمـر الأيـام ويلتقـي الشـيخ زايـد، رحمـه اللـه، بالرجـل نفسـه، الـذي حدثـه مـن قبـل، ويسـأله كيـف الحـال الآن؟ فيـرد «الناقـة تسـير الآن علـى ظهرهـا»! هكـذا أقـر كل مـن كان يـرى دولـة الإمـارات الحلـم المسـتحيل حتـى غـدت الآن التجربـة الوحدويـة الناجحـة فـي العالـم العربـي، ومـن ينظـر إلـى المشـهد العربـي الآن مـن المحيـط إلـى الخليـج يـدرك كيـف هـي حكمـة المؤسـس، وكأنـه كان يستشـرف المسـتقبل.

ومـا يجعلـك تتوقـف كثيـراً أن زايـد الخيـر جعـل مـن العطـاء منهـج قيـادة، وأسـس مدرسـة مـن العطـاء منـذ البدايـة حيـن قـال: «إذا كـان اللـه، عـز وجـل، قـد مـن علينـا بالثـروة فـإن أول مـا نلتـزم بـه لإرضـاء اللـه وشـكره هـو أن نوجـه هـذه الثـروة لإصـلاح البـلاد، ونسـوق الخيـر إلـى شـعبها»، ولـم تقتصـر أياديـه الخيـرة علـى أبنـاء شـعبه، الـذي نظـر إليهـم باعتبارهـم أبنـاءه، فحسـب، بـل امتـد عطـاؤه إلـى النطـاق الإقليمـي لأمتنـا العربـي، وآثـاره شـاهدة وشـاخصة فـي ربـوع الخيـر لمـدن تحمـل اسـمه، لتخلـد قيـادة أحبهـا أبنـاء أمتهـا العربيـة فخلـدوا ذكراهـا فـي

قلوبهم، فومضات الخير قائمة في مستشفى يعالج من تجمعت عليهم الآلام، وعز عليهم العلاج، أو مدرسة تعلم أبناء أمتنا، أو أراض شاسعة تحولت من صحراء قاسية إلى مساحات خضراء انعكس خيرها على قلوب من انتفعوا بها، أو مسجد يذكر فيه اسم الله، ويرتفع فيه نداء الله أكبر فيجيب الناس داعي الخير، كما امتد عطاؤه، رحمه الله، إلى العالم كله، فلا تجد من يحتاج إلى الغوث إلا وزايد الخير حاضر يلبي النداء تعبيراً عن وحدة الضمير الإنساني ووحدة المصير، «فكلكم لآدم وآدم من تراب».

ومن الأهمية بمكان لمن ينظر إلى تجربة العطاء الإنساني لزايد الخير أنه أسس دولة باتت في مقدمة دول العالم عطاء للبشرية من دون النظر لعرق أو دين أو لغة، وسار على الدرب الخلف، الذين حملوا الراية من بعده، وهو ما أكده صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، رعاه الله، قائلاً: إن دولتنا، بقيادة صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، حفظه الله، ماضية على طريق الآباء المؤسسين، الذين رسموه لنا وسلكوه من أجل مد يد العون والمساعدة، والعمل على مكافحة الفقر والجوع، ومساعدة المعوزين حول العالم، دون النظر إلى جنسياتهم أو لونهم أو ديانتهم، فطوبي لمن أسس، وطوبى لمن حافظ، وطوبى لمن كان عوناً لأبناء أمته والإنسان أياً كانت هويته.

يا مبادرات الخير هبي

يأتي رمضان وتأتي معه نفحات الخير بنسماتها العطرة لتستقبلها نفوس جبلت على الخير، ولأن الإمارات قيادة وشعباً يعرفون كيف يحددون مساراتهم، ولأنهم تمرسوا على السير في طريق البناء لا الهدم، العطاء لا المنع، الإيثار لا الشح، التراحم لا التباغض، اللين لا البطش، وآخر هذه النسائم التي هبت مع نسمات شهر الصوم والعطاء مبادرة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي، «مبادرة الإمارات لصلة الأيتام والقصر»، مؤكداً: «أن مجتمعنا الإماراتي نموذج عالمي للتراحم والتماسك والتآلف بين جميع فئات المجتمع، وهذه ميزة بارزة نابعة من تمسكنا بسماحة الدين الإسلامي الذي يحضنا على التراحم، وارتباطنا الوثيق بعاداتنا الوطنية والعربية العريقة، إننا نريد للجميع في مجتمع الإمارات أن يكونوا جزءاً من عملية البناء المستمر للوطن، ولهذا نحرص دائماً على تقديم الدعم لجميع الفئات، بما فيها فئة الأيتام والقصر».

يقول الصالحون: «إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك، فانظر فيما أقامك».

فأصحاب النفوس الطيبة والهمم العالية يبحثون دائماً عن بذر الخير في قلوب من حولهم، لتصبح أشجاراً جذورها في قلوبهم، وفروعها تتسامى بسمو تلك القيم التي تنتشر بين الناس، لتوسع من نفوسهم وتجعلها رحبة، وتتشابك أيديهم، وليصبحوا على قلب رجل واحد. إن نفوس البشر جبلت على الخير، غير أنها تحتاج بين الحين والآخر إلى إيقاظه وتجديده وفتح آفاق للسير فيه، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا»، ولا شك أن مبادرة سموه هي نداء لشعب أن حي على العطاء، ولتكن الانطلاقة من شهر القرآن لمسح دمعة اليتيم وتضميد آلام القصر،وهذه المبادرة في تقديري هي تدريب عملي على العطاء، وتطبيق لقيم قد يكون للفرد اتجاه إيجابي نحوها.

إن هذه المبادرة الكريمة، وإن كانت تُدخل السعادة على قلوب الأيتام والقصر، غير أنها تدخل مزيداً من السعادة على المشاركين فيها، لأنها ترسخ لديهم شعوراً نفسياً بقيمة ما يصنعونه، وهو ما يزيد من تقديرهم لذواتهم، وهو الأمر الذي ينعكس على علاقتهم بمحيطهم الأسري والاجتماعي، كما أنها تمثل حالة من إعادة التأهيل النفسي للأيتام والقصر، ليصبحوا أشخاصاً مفيدين لمجتمعهم قادرين على المشاركة والعطاء.

كما أن هذه المبادرة فريدة ليس في اسمها فحسب، ولكن في آليات تنفيذها وعلميتها الشديدة التي تنتقل من التعامل مع الأيتام، ليس من منطلق العطف والإحسان فحسب، غير أن مبادرة سموه تتدرج في التعامل مع احتياجات الأيتام والقصر حتى نصل بهم إلى تكوين شخصياتهم بطريقة سوية، فضلاً عن إتاحة المجال لكل منهم للتعبير عن مهاراتهم وإبداعاتهم، لتكون هذه الطاقات رصيداً نوعياً إضافياً للمجتمع، حيث إنها تعاملت مع اليتيم وفق هرم الاحتياجات الإنسانية الذي يبدأ بالاحتياجات الأساسية من الرعاية، ثم الانتقال

إلى الاحتياجات الاجتماعية التي تشمل إحساس اليتيم أو القاصر بأنه ينتمي إلى مجموعة إنسانية، أو أنه غصن في شجرة كبيرة، وهو ما ينعكس على إحساسه بالأمان النفسي، ثم الانتقال إلى تقدير من حوله له، وليس عطفهم وكفى، وهو ما يزيد من تقديره لذاته، ويعمق من ثقته بقدرته على العطاء والإنجاز، ثم الانتقال من مرحلة المشاركة إلى مرحلة تحقيق الذات.

واللافت أنها اعتمدت في جانب كبير منها على الشباب، حيث أتاحت المبادرة خيارات عدة للعطاء، منها السماح للمواطنين الشباب القدوة بالارتباط كإخوة بالأيتام والقصر، لتقديم النصح والإرشاد لهم، وفق نظام واضح يتضمن اختيار الأخوة ومعايير الأنشطة ومدة الارتباط، ويوفر الخيار الثاني آلية تسمح للمواطنين الشباب القدوة بتوفير الرعاية الدراسية للأيتام والقصر لعدد من الساعات في المدرسة التي يدرسون فيها، ما يتيح الفرصة للتطوع وقتاً أقل. طوبى لمن بذر الخير، وطوبى لمن بذل الخير، وطوبى لأبناء وطن يجعلون من الخير طريقهم ومبتغاهم.

عندمـا يكـون إسعـاد الناس سياسة حكومية

عندمـا أكـد صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد آل مكتـوم نائـب رئيـس الدولـة رئيس مجلس الـوزراء حاكـم دبـي، رعـاه اللـه، علـى أن «إسـعاد النـاس مهمـة لا تحتمـل التأجيـل»، كشـف بجـلاء عـن الغايـة الكبـرى والهـدف السـامي الـذي يجب أن تسـعى إلـى تحقيقـه كافـة الدوائـر والمؤسسـات الحكوميـة، ومـا يجـب أن يحرص على تحقيقه كل فرد في فرق العمل الحكومي، ولا شـك أن هـذه المقولـة الجامعـة تلخـص فلسـفة العمـل الحكومـي، وتصـل بدقـة إلـى النقطـة الرئيسـة، كمـا أنهـا خلاصـة كافـة النظريـات التـي تعلقـت بالتنميـة والتطـور، وهـي أن مـا يبـذل مـن جهـد لا قيمـة حقيقيـة لـه إلا عندمـا يستشـعره النـاس فـي حركتهـم اليوميـة.

وعندمـا أطلـق سـموه مبـادرة فريـدة مـن نوعهـا لقيـاس سـعادة أفـراد الجمهـور ورضاهـم عـن الخدمـات الحكوميـة المقدمـة لهـم، لـم يشـأ أن يكـون ذلـك الرصـد بعـد مـرور أعـوام أو عنـد الانتهـاء مـن خطـط خمسـية أو عشـرية، كمـا هـو معتـاد فـي السياسـات الحكوميـة مـن حولنـا. ولأن الفكـر الحكومـي غيـر المعتـاد، والـذي دأبـت قيادتـه علـى أن تفكـر خـارج الصنـدوق، كمـا لـم تعتـد أن تختـار بيـن بدائـل مطروحـة

بل تطرح بنفسها البديل الجديد، أرادت القيادة الحريصة على أن يتم الرصد بشكل يومي عبر توزيع أجهزة إلكترونية في جميع الدوائر الحكومية تكون مرتبطة بشبكة مركزية تقوم برصد هذا المؤشر، وإرسال تقارير بشكل يومي لمتخذي القرار لرصد المناطق الجغرافية والحكومية الأكثر سعادة ورضا عن الخدمات الحكومية، بهدف تطوير الخدمات وتحسينها، ومدى سعادة الجمهور عن الخدمات المقدمة في زمن تسارعت فيه الخطى، ولم يعد يحتمل أن يتم قياس العمل الحكومي غير التقليدي بأساليب تقليدية.

إن إسعاد الشعب يكرس لديه قيمة الانتماء للوطن والولاء لقيادته. فعلى الرغم من أنها حالة نفسية ترتبط بالعاطفة، إلا أن أبعادها تنعكس على حركته اليومية، فعندما يشعر المواطن بأن قيادته تسعى لتحقيق ما فيه الخير له فإنه يفخر بانتمائه إلى تلك الأرض ويضحي بالغالي والنفيس من أجلها، كيف لا وهو لم يجنِ من ثمارها غير العزة والكرامة.

والشاهد أن أخطر الأمراض التي أصابت بعض الشعوب من حولنا هي الغربة في الوطن، عندما لا يكون لما يراه أو يسمعه أثر في حياته اليومية، وهو ما ينعكس على علاقة الناس بعضهم ببعض، فضلاً عن علاقاتهم مع غيرهم، وتاريخ الإمارات وواقعها يبرهن على أن حالة الرضا التي يستشعرها المواطن عن نفسه ومجتمعه انعكست على اتساع نفسه لقبول الآخر أياً كانت ثقافته وعقيدته، فضرب المثل في السلام المجتمعي، وتكامل الحضارات بدلاً من صراعها، وتلك طاقة نفسية لا تتأتى للعديد من الشعوب التي تدعي التحضر والتمدن، في الوقت الذي تتعصب فيه إلى حد العداء والعنف لعنصرها أو عرقها أو عقيدتها أو لغتها وتنفي وجود الآخر.

كما أن السعادة ذاتها تزود الفرد بالطاقة الإيجابية، التي تجعل ما بداخله جميلاً فيرى الوجود من حوله جميلاً، وهي التي تجعله يضيء دائماً شمعة

بـدلاً مـن أن يلعـن الظـلام، تلـك السـعادة تمـد المواطـن بقـدرة علـى الفعـل ورغبـة فـي البنـاء، كمـا أنهـا تستفز لديـه طاقـات لـم يكـن لهـا أن تكـون عنـد انعـدام ثقتـه بذاتـه وعزوفـه عمـا حولـه.

علـى الجانـب الآخـر، فـإن مـا يجعـل سياسـة الحكومـة الإماراتية متفـردة هـو أنهـا عندمـا تعلـن عـن إسـعاد الشـعب فإنهـا لا تتوقـف عنـد القـول، ولكنـه ينتقـل إلـى مربـع التحقـق برؤيـة واضحـة وبعمـل شـاق لا يلمسـه المواطـن فحسـب ولكـن المواطـن والمقيـم، فشـجرة الخيـر فـي الإمـارات تمتـد أغصانهـا لينعـم بظلهـا المواطـن والمقيـم علـى أرضهـا، وهـو مـا جعلهـا مـن أكثـر بقـاع الأرض رغبـة فـي الإقامـة فيهـا بيـن الشـباب العـرب، الذيـن هـم أمـل الأمـة ومسـتقبلها، الـذي يرونـه يتحقـق علـى أرض الإمـارات.

وفـي تقديـري، فـإن إطـلاق مصطلـح إسـعاد النـاس لـم يـأت هكـذا، غيـر أنـه كان نتاجـاً لمنظومـة عمـل كبيـرة عبـر سـنوات سـعت إلـى التميـز الـذي أصبـح عمـلاً يوميـاً فـي كافـة الدوائـر والمؤسسـات الحكوميـة لتحقيـق الرضـا المجتمعـي عـن الأداء، ثـم نتجـاوز مرحلـة التميـز إلـى الابتـكار، لينتقـل معهـا الرضـا إلـى مربـع السـعادة، ليتضـح أن تحقيـق السـعادة للمواطـن لـم يكـن عبـر الدفقـات الشـعورية والحماسـة الوطنيـة ولكـن عبـر رؤيـة جليـة واضحـة، ومنظومـة عمـل متناغمـة، وطاقـة بـذل لا تعـرف الكلـل أو الملـل.

وأحـدث حبـة أضيفـت إلـى عقـد السـعادة هـو برنامـج «سـعادة» للرعايـة الصحيـة فـي دبـي، والـذي ينعـم فيـه مـا يقـرب مـن 130 ألفـاً مـن مواطنيهـا بغطـاء صحـي متميـز، وهـو مـا يشـجّع الكثيـر مـن المرضـى علـى اختيـار الخدمـات المحليـة للرعايـة الصحيـة بـدلاً مـن السـفر للعـلاج فـي الخـارج، وبالتالـي تقليـل التكاليـف الماليـة التـي تتحملهـا الجهـات الحكوميـة.

وقد كشفت دراسة استقصائية أجراها معهد غالوب، أن اثنين من كل خمسة إماراتيين يفضلون العلاج في الخارج، ومصدر السعادة من تطبيق هذا البرنامج لا يأتي من تطبيق أفضل الممارسات المتبعة عالمياً فحسب، ولكن حينما يتلقى المريض علاجه بين أفراد عائلته وأهل بيته وعلى أرض وطنه، لا شك أن ذلك يعد من أسباب التعجيل بشفائه ويزيد من ثقته بقدرات المرافق الصحية والبنية التحتية لها، كما أنه ينعكس على تطوير الأداء المهني ذاته والارتقاء بالمنظومة الصحية عبر المنافسة في التجويد والتميز، وأثر ذلك في مستقبل السياحة العلاجية في الإمارات.

وما يستحق التوقف كثيراً أن من سيحدد حجم الإنجاز ومدى تحقيقه ليسوا مديري الدوائر أو مقدمي الخدمات، لكن المعنيين بالخدمة أنفسهم وهم الناس، فهم المعنيون بها والمستفيدون منها والضابطون لحركتها ومداها، ولأن سموه من أكد غير مرة في ومضات من فكره أنه عندما تطور الحكومات نفسها وخدماتها لتسهيل حياة الناس فإنها تحقق لهم الراحة والسعادة، وعندما تخلق الفرص لأبناء الوطن فإنها تحقق لهم السعادة، وعندما تقدم الحكومات أفضل أنظمة التعليم لأبناء الوطن فإنها تزودهم بأهم أسلحة بناء مستقبلهم ليكونوا سعداء، وعندما تقدم الحكومات رعاية صحية متميزة فلا شيء أكثر إسعاداً للمريض من الشفاء والراحة، فصار سموه صانعاً للسعادة وجعل منها الغاية لسياسة الحكومة.

التمكين للعربية حفاظ على الهوية

عندما نقول «أمة» أول ما يُنسب إليها هي اللغة التي تتحدث بها باعتبارها مكوناً أساسياً لهويتها التي تتميز بها عن غيرها، كما أن دساتير الدول تحدّد اللغة التي يتواصل بها أفراد شعبها، والمستخدمة في المكاتبات والمؤسسات الرسمية.

وعندما نقول «اللغة الأم» فإن ذلك يعني أن هناك رباطاً سرياً يربط بين اللغة وأهلها ويفطرهم على حبها، كما أن التمسك بها هو من دروب البر، والبعد عنها إلى غيرها هو العقوق بعينه الذي لا ينتج عنه غير الفشل، وعبر التاريخ ودروسه خير شاهد. هل بمقدور أحد أن يغير أمّه أو يتبرأ منها؟، لعمري إن ذلك من علامات الهوان.

واللغة في تقديري هي أهم أدوات تمتين النسيج المجتمعي والحفاظ على قوته ووحدته لأننا لا نتواصل بها فحسب، بل نفكر كذلك بها ونبدع من خلالها وندرك ما حولنا من أحداث ومواقف مستعينين بتراكيبها. أرأيت حين يرتفع العلم خفاقاً لتخشع معه حواس الفرد وتتزايد دقات القلب لأن دلالاته كبيرة،

كذلك اللغة فهي الكاشفة لكينونة الفرد وثقافته وتاريخه، ولذا قيل إن العربية اللسان ـ إذا ضاعت أو فقدت تغيبت معها ملامحها.

ولم يقص علينا التاريخ أنّ أمة شيّدت حضارة بغير لغتها، أو أن أمة أهملت لغتها كان لها شأن، بل إن هناك رباطاً وثيقاً بين تحضّر الأمم والاهتمام باللغة، كما أن ضحالة اللغة وفقرها كان دوماً الكاشف لحالة تأخر الأمم وتراجعها في مجالات شتى، لأن الحضارة قائمة على الفكر الإنساني واللغة هي أهم أدوات الفكر وهي الحضارة، كما أن الثراء الحضاري هو انعكاس للثراء اللغوي وغناه، كما أن الصراع الإنساني اقترن دوماً بالصراع اللغوي، والمعارك العسكرية قد تنتهي وتمحى آثارها أو تداعياتها إلا أن المعارك الثقافية تمتد آثارها عبر أجيال مختلفة حتى وإن رحل الغازي بقواته، غير أن إقامة الحواجز النفسية بين الفرد ولغته هي البداية للتأثير في فكره، كما أنها بداية التراجع والتخلف وانعدام الثقة بالنفس.

التعامل مع اللغة العربية لا يتوقف عند كونها لغة تصون الهوية، بل إن لغتنا هي لغة الوحي التي أنزل الله بها القرآن ونشرها بين الناس من الدين، والله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظها، وهذا يعني أن حمايتها والتمكين لها هو لون من ألوان التعبد والتقرب إلى الله.

الاهتمام باللغة العربية، باعتبارها مكوناً أساساً للهوية، ليس حالة خاصة بنا، إذ إن كل الأمم التي لها تاريخ وحضارة تعتز بلغتها وتنبري للدفاع عنها، فالصينيون لم يحقّقوا ما حقّقوا من تقدم اقتصادي بغير لغتهم، والألمان لم يتقدموا بغير الألمانية، وكذلك بالنسبة للفرنسيين وغيرهم، بل إن هناك من أحيا لغة ماتت مثل العبرية.

إننا لا ينبغي أن تتوقف دعواتنا عند حد التمسك بلغتنا الجميلة ولكن يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك لتعليمها لغير الناطقين بها ـ وهم يكفوننا مؤنة

البحث عنهم لأنهم بيننا لفترات تمتد إلى سنوات بدلاً من تحريفها للتواصل مع بعضهم - باعتبار أنها إحدى أدوات الحضور والتأثير الثقافي لأي أمة.

لا شك أن هجر اللغة العربية يعني هجر الثقافة بما له من تداعيات على أجيال قادمة صار بينها وبين لغتها الأصيلة حاجز في ظل تحديات العولمة وما تفرضه من لغات أجنبية، وتحديات وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام الجديد وما أنتجته من لغة المؤانسة التي تمثل خطراً بالغاً على جيل بأكمله، ولقد واجهت الدعوات التي نادت بالكتابة بالعامية في أوائل القرن العشرين معارضة شديدة باعتبار أن توثيق العامية يمثل خطراً شديداً على الفصحى، ولنتأمل اللغة التي يتخاطب بها الشباب العربي عبر وسائل التواصل الاجتماعي حيث لا ترقى حتى إلى العامية فضلاً عن حروفها غير العربية في الأساس.

لذلك لم تهدف مبادرة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد للتمكين للغة العربية وجعلها اللغة الرسمية في الدوائر والمؤسسات إلى الحفاظ على اللغة فحسب، بل الحفاظ على الهوية الوطنية، كما أن جائزة محمد بن راشد للغة العربية هي إحدى آليات التمكين والتقدير لجهود العاملين في ميدان اللغة العربية، سواء كان عبر جهود مؤسسية أو مبادرات فردية، إضافة إلى تعزيز مكانة اللغة العربية في المناهج الدراسية، وتشجيع ثقافة القراءة باللغة العربية وهو ما أكد عليه سموه حين أطلق ميثاق اللغة العربية قائلاً: «إن لغتنا العربية هي لغة حية غنية نابضة بالحياة، بقيت محافظة على أصالتها لأكثر من ألفي عام، وتتميز بقدرتها على مواكبة الحاضر والمستقبل، والمساهمة في الحفاظ على اللغة العربية هي قيمة إسلامية وفريضة وطنية، وترسيخ لهويتنا وجذورنا التاريخية»، هذا الإعلان عن ميثاق اللغة العربية ما هو إلا إعلان وفاء للغتنا الأم، التي باتت تعاني الاغتراب بين أبنائها، وما هو إلا دليل على المضي قدماً في مسيرة الحضارة على نهج الواثق من خطاه والمتمسك بجذوره وهويته الأصيلة.

الإمارات حلم الشباب العربي

للعام الرابع على التوالي تنفرد وتتفرد الإمارات بالمركز الأول في قائمة الدول المفضلة للشباب العربي للعيش والإقامة، فضلاً عن كونها النموذج التنموي الناجح كما يراها الشباب العربي، وذلك وفقاً للاستطلاع الذي أجرته الشركتان الدوليتان (أصداء بيرسون مارستيلر) و (بين شوين بيرلاند)، والذي اشتمل على 16 دولة عربية.

ولا شك أن هذا الاستطلاع يكشف بجلاء عن جوانب يجب دراستها والوقوف أمامها وتأملها، لا لنفخر بها فحسب، وإن كان الفخر هنا أمراً واجباً ومحموداً، والاعتزاز بهذه النتيجة وما تحملها من أبعاد ليس فقط على مستوى شعب وأبناء الإمارات ولكن على مستوى عالمنا العربي الغارق في الصراع، والذي علت فيه أصوات الرصاص، وغابت فيه أصوات المصانع، كما ارتفع فيه الصراخ، وتوارى فيه الفكر، وصار فيه البأس بين أبناء الوطن الواحد أقوى من البأس على أعدائه، ومصالح الأفراد سبقت مصالح الشعب.

علت بين أبناء أمتنا العربية أصوات الفرقة والانفصال بين شركاء الوطن

الواحد والبيت الواحد، وغابت فيه دعوات الوحدة والترابط، عالمنا العربي الذي استشرى فيه الهدم وانعدم فيه البناء وصار أبناء الوطن الواحد أشد على بعضهم من أعدائهم، مجتمعنا العربي الذي سدت فيه الآفاق أمام الشباب وسدت الأبواب، إلا باب الصراع، فولجوه حتى صار العنف والقتل حرفة يتكسب بها البعض لحساب البعض.

كما أن ضوءاً في آخر النفق المظلم لم يظهر ليمني به أبناء أمتنا أنفسهم بغد أفضل، أو أن شمس النهار ستأتي يوماً لتزيل عتمة الليل الذي خيم عليهم، هنا يمد شباب أمتنا أبصارهم خارج حدود أوطانهم لنموذج يمكن أن يعطيهم أملاً في المستقبل لتطلع عليهم إمارات الخير والنماء، إمارات العطاء والحب، إمارات العمل والجهد، إمارات الوحدة والترابط، إمارات الأمل في أن هناك نموذجاً يمكن أن ينهل من تجربته كل الراغبين في بناء أوطانهم، ومن روح اتحاده كل الراغبين في الحفاظ على سلامة ووحدة أراضيهم، ومن محبة الشعب لقيادته كل الباحثين عن الطريق إلى التوافق بينهم وبين المنوط بهم حمايتهم وتلبية حاجتهم، فإذا بهم يمطرونهم ببراميل الموت، وإذا بمن وجب عليه توفير الطعام والكساء يترك مواطنيه يعانون قسوة البرد ولفح الهجير وشح الطعام ونقص المياه.

لذا فإن نتائج هذا الاستبيان ليست مجرد أرقام ومعلومات، ولكنها تكشف بجلاء أن شباب أمتنا العربية يعون أين مصلحة وطنهم، كما يرغبون بصدق في أن يحيوا حياة كريمة مستقرة ينعمون فيها بإنسانيتهم وكرامتهم. إن القيمة الكبرى من هذه النتائج تأتي من طبيعة العينة وهم الشباب.

حيث أجريت على 3500 من الشبان والفتيات من الفئة العمرية بين 18 إلى 34، أي أن هذه نتيجة رؤية أهل المستقبل وأصحاب الغد وقادته، كما أنها

تعكس بجلاء أن شباب أمتنا يصوتون للتنمية والاستقرار وتتجه بوصلتهم إلى حيث يكون النماء والكرامة، كما زهرة العباد تتجه حيث يكون ضوء الشمس، وأن رؤيتهم لم تتوقف عند حد الإعجاب، ولكن رغبتهم في الإقامة على أرض الإمارات وتلك شهادة أخرى.

فقد يعجب الفرد بنموذج تنموي ولكن لا يستطيع أن يكون جزءاً منه، أما في حالتنا فإن ذلك يعني أن البعد الاجتماعي والبيئة المواتية لم تكن بعيدة أو منسية، وأن التطور في الإمارات لم يكن تطوراً في الحجر، ولكن كان الإنسان بروحه وحياته، وإن شئت وسعادته، جزءاً أصيلاً وغاية كبرى للتنمية والتطور، فهو صاحبها ومنفذها والضامن لها والمنتفع بها، لذا فهي عملية شاملة ومتكاملة.

إن نتائج هذا الاستفتاء ترسخ أن تجربة الإمارات التنموية رغم وطنيتها إلا أنها تخطت حدودها وصارت نموذجاً إقليمياً يود شباب أمتنا الاحتذاء به، والإمارات بذلك تقدم خدمة جليلة لشباب أمتنا في أن ما يحلمون به يمكن تحقيقه، وأن تحقيقه ليس مستحيلاً، والشاهد هو ما يتحقق أمامهم بنموذج الإمارات.

كما أن تجربة الإمارات تعكس أهمية القيادة بإعطاء الأمل وليس تكريس الإحباط، إن ما تحقق على أرض الإمارات لم يكن ليتحقق فقط لأنها تملك الموارد المالية الأكبر، لأن هناك من يملك مقدرات الإمارات الاقتصادية، لكن سر التجربة يكمن في قيادة تحرص على إعطاء الأمل في أن الغد أفضل، قيادة تمنح شباب وطنها الثقة بالنفس والقدرة على التميز والإنجاز، حتى إنه لم يعد للعمل التقليدي مكان، السر هو قوة الإرادة وليس إرادة القوة والبطش، إن غلق أبواب الأمل في وجه الشباب يفتح أمامهم أبواب العنف ويجعلهم عرضة للتأثيرات في عالم تتجاذبهم فيه مختلف التيارات.

إنها ليست المرة الأولى التي تتوج فيها الإمارات درة تاج أمتها العربية، ليس من قبل أبنائها فحسب، بل من أبناء الوطن العربي وشبابه، بل الثانية والثالثة والرابعة، وهو استفتاء إقليمي على أن الإمارات قد عرفت طريقها، وأن التنمية التي تتحقق على أرضها تسير وفق خطوات ثابتة، تتأكد كل يوم، ذلك أن الحفاظ على القمة لمدة أربعة أعوام أصعب بكثير من الوصول إليها، وإن العمل القائم على الرؤية والتخطيط هو الطريق إلى الرفاه الاجتماعي وسعادة الشعوب.

بعــد إعمــار الأرض
الإمارات تعمر الفضاء

لأن همم الرجال لا تعرف حدوداً، وطموحات الكبار لا محطة وصول لها تشير إلى نهاية انطلاقتها، يأتي إطلاق صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، رعاه الله، شارة البداية لدخول العرب عصر الفضاء، بإعلان سموه بدء الإعداد لإطلاق أول مسبار عربي إسلامي لاستكشاف كوكب المريخ، وليدشن في الوقت ذاته جولة جديدة من جولات التحدي، وحبة إضافية تضاف إلى عقد الإنجازات، وليسطر صفحة جديدة من كتاب المجد والسؤدد الإماراتي، الذي بات مرجعاً لأصحاب العزم الراغبين في الالتحاق بموكب الظفر والنصر.

ولا شك في أن لهذه الانطلاقة، التي تخطت حدود الكرة الأرضية محلقة ومستكشفة كوكباً آخر، دلالات كبيرة تتطلب أن نتوقف عندها ليدرك، ليس أبناء الإمارات فحسب، بل العالم العربي والإسلامي كثيراً من الملامح منها:

أنه على الرغم من الصورة المضطربة والمرتبكة والمتداخلة والتي يخيم على من يتأملها التشاؤم لجانب كبير من الحالة العربية، إلا أن هذه الانطلاقة

تمثل طاقة ضوء تنير جزءاً كبيراً من الواقع العربي، بأننا كأمة عربية قادرون على المنافسة في السباق الحضاري والمعرفي العالمي، وخصوصاً أن إدارة وكالات الفضاء العالمية لم تخلُ يوماً من عالم عربي، كما أن مساهمة الباحثين العرب لم تكن عن الفضاء ببعيدة.

كما أن هذا التحدي يفتح الباب واسعاً لجيل الشباب ليعبر عن قدراته، وليثبت ذاته، ويحمل مسؤوليته في المشاركة في النهوض بوطنه وأمته، ويمده بطاقة خلاقة تجعله يزداد أملاً في واقع أقوى وغد مشرق، بعيداً عن الطاقة السلبية التي تصيبه بالعجز حين يكون الكلام بديلاً عن الفعل، وحين يكون اليأس بديلاً عن الأمل، وحين يكون الاكتفاء بالرفض دون تقديم البديل، إنها اللحظة التي يثبت شباب أمتنا العربية قدراتهم وأن يكرسوا طاقاتهم لما فيه خدمة لوطنهم وصالح أمتهم، ذلك أن من يسيطر على الفضاء يملك الكلمة على الأرض.

ولأن الأمر جد لا هزل، وكشأن كل ما يقدم عليه دائماً حدد سموه أن المسبار الإماراتي سيصل إلى المريخ في 2021، بما يعني ذلك أن السنوات الست المقبلة ستكون سنوات جد وعمل وعرق وعلو همة على طريق استكمال بناء جيل من أبناء الإمارات المسلحين بعلوم الفضاء، ذلك العلم الذي لم يعد ترفاً، بل بات فرض عين على أبناء الإمارات، إجادته والنبوغ فيه وليس الإلمام به فحسب.

كما أن هذه الخطوة لها ما بعدها، ذلك أنه يهيئ الفرصة لتوطين تكنولوجيا الفضاء من خلال قطاع فضائي وطني، بما لذلك من انعكاسات على البرامج الأكاديمية التي ستطرح في الكليات ذات التخصص، وعلى وعي أبناء الوطن بما تتطلبه المرحلة الراهنة سواء على مستوى التخصصات الجامعية أو الأبحاث والدراسات العليا في مجال هندسة الطيران والفضاء، فضلاً عن انعكاساته على بنية الاقتصاد الإماراتي وجوانب القوة فيه فضلاً عن تنوعه.

من هنا كان النداء موجهاً إلى الشباب أن حيَّ على الابتكار، وواجهوا التحديات فصارعوها وصرعوها، وهذا النداء جاء تتويجاً لسنوات من الإعداد والتجهيز والتدريب والاستثمار في ثروتنا البشرية.

ومن يستدعِ الأحداث يرَ نداء التميز قد صدحت به القيادة منذ ما يقرب من ثلاثة عقود، ذلك الذي كان حلماً ثم أصبح وظيفة، ومر بمراحل لن تنتهي بإعلان 2015 عام الابتكار، ليؤكد ذلك أنها لم ولن تكون انطلاقة حماسية عفوية لكنها تراتبية العمل المبني على رؤية استراتيجية واضحة لقيادة غنية بحب شعبها ووطنها، إنها الثقة المطلقة التي أكدتها القيادة غير مرة على قدرات أبناء الإمارات وجاهزيتهم الدائمة والدفع بهم إلى الصفوف المتقدمة لحمل الراية وتحمل المسؤولية في كل المجالات، وأن يكونوا على مستوى المرحلة التاريخية التي تمر بها أمتهم، والتحديات التي تواجهها للحفاظ على المكتسبات الوطنية.

كما أنه يأتي متسقاً مع رحلة التنمية الشاملة والمتكاملة والمستدامة لدولة الإمارات التي تميزت وأبدعت وابتكرت فيها الإمارات، وأصبحت النموذج الذي يعطي الأمل لأبناء الأمة العربية، حتى باتت الوجهة المفضلة وفق الإحصاءات الرسمية، وبات شعبها الأكثر رضا وسعادة من بين شعوب العالم.

ولأن القيادة الرشيدة لم تكن يوماً بعيدة عن شعبها كان طرحها اختيار اسم المسبار والحضور الطاغي لأبناء الإمارات من خلال تفاعلهم لهو استفتاء جديد ـ يتعمق مع كل خطوة تخطوها الإمارات على طريق التقدم ـ على الاعتزاز بالقيادة التاريخية للشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه، وتعبيراً عن إدراك أبناء الوطن لقيمة هذا العمل الكبير والحرص على المساهمة فيه كل حسب طاقته.

إن الدرس الأكبر من دخول الإمارات عصر الفضاء هو أنه عندما يدمن

الآخرون الهدم يشمر أبناء الإمارات عن سواعدهم للبناء، وعندما يبرع الآخرون في شق الصف وتمزيق النسيج الوطني بدعوى الطائفية أو المذهبية أو العرقية تؤسس الإمارات للمشروع الوطني الذي يوحد الهدف بين كل أبناء الوطن.

وعندما يعلو صوت أزيز الطائرات ودوي المدافع من حولنا تجد في الإمارات يداً تعمر ويداً تحمي الوطن، وفي الوقت الذي تهون فيه أرواح الناس وأعراضهم وكرامتهم على من وجب عليه حمايتهم ورعايتها من قادتها تجد أبناء الإمارات الأكثر سعادة ورضا، وفي الوقت الذي يتقاتل فيه الناس على الأرض التي ضاقت بهم تنطلق الإمارات إلى الفضاء.

قمـــة الابتكـــار ..
والاستثمار في الإنسان

أبدأ من حيث انتهى إليه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، في ختام القمة الحكومية، حين هنأ الحضور كافة بهذه القمة الاستثنائية، التي أطلق عليها قمة الابتكار .. قمة الازدهار.. قمة لا تعرف الانكسار.

والحق أن سموه بهذه الألقاب والملامح الثلاثة لخص المحاور الرئيسة التي دارت فعاليات هذه القمة حولها ودقت عليها دقاً منتظماً، ولا شك أن ذلك يأتي منسجماً مع تخصيص دولة الإمارات عام 2015 عاماً للابتكار، يقدم فيها أبناء الإمارات أفضل ما لديهم، متنافسين في مضمار الإبداع، شباباً وشيباً، في سبيل تجويد حياة أبناء الوطن والمقيمين على أرضه.

ولاشك أن حضور شباب الجامعات وتكريم المبدعين منهم، في ختام فعاليات القمة، ورعاية أفكارهم وابتكاراتهم، وتحويلها إلى واقع عملي، لهو دافع كبير لاستمرارهم في إخراج المزيد من جعبة تميزهم، وهي رسالة تتخطى حدود دولة الإمارات إلى الشقيق والصديق.

ذلك أن أشد ما عانى منه الشباب في عالمنا العربي هو إهمال أفكارهم أو الإنصات إليهم حتى قتل لديهم الطموح وتعطلت أدمغتهم عن التفكير بفعل ظروف ضاغطة حالت دون تحقيق ذواتهم.

وهو ما أكد عليه سموه حين قال: إن المشاركة الواسعة في الجائزة تؤشر إلى أن الحكومات بدأت تغير نظرتها إلى الطريقة التي تقدم بها خدماتها، وأن الجائزة التي أطلقناها بدأت في تحقيق أهدافها، في تسهيل حياة البشر، واختصار أوقاتهم، وخلق بيئة أفضل لهم، وهو ما يؤكد الدور الإيجابي الذي تقوم به الإمارات في محيطها العربي والدولي باعتبارها واحة للرفاه الإنساني.

إن تفرد هذه القمة واستثنائيتها عن طبيعة العمل الحكومي المعتاد، في أنها تمثل طاقة دافعة لمرحلة قادمة يتم الكشف فيها عن التحديات المقبلة وكيف يتم الاستعداد لها.

ومن يجيد قراءة لغة الجسد حين أكد صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، بكلمات واضحة لا لبس فيها، وبنبرة تحمل الثقة، قائلاً: «إننا لا نخشى التحديات لكننا نبحث عنها لنهزمها»، تبين وكأن التحديات فريسة يسعد بها محترفو مواجهتها، ولا يشعرون بكامل السعادة حين تكون طبيعة الأعمال خالية منها باعتبارها تخرج مخزون الطاقة الإيجابي لدى الفرد، الذي تحدث عنه سموه، تلك الطاقة التي بثها في الحضور لمواجهة غد أكثر تحدياً.

وهذا الذي أكد عليه سمو الشيخ محمد بن زايد في كلمة ضافية واضحة، جابت بعقولنا الماضي وما كابده الجيل المؤسس حتى صرنا إلى ما نحن إليه من نموذج في التنمية يتطلع إليه العالم وكل راغب في تلمس طرق الرخاء والسعادة لشعبه.

غير أنه وهو يستعرض مجالات الريادة لدولة الإمارات وتجاربها الناجحة

في مختلف المجالات، مشيراً إلى مطار دبي الذي بات الأول عالمياً متخطياً أسماء كبيرة في بلدان عريقة، وهو ما يؤكد مصادر قوة الاقتصاد الإماراتي وتنوع مصادره.

إن كافة النظريات المتعلقة بالتنمية تؤكد أن التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية وكفاءة مخرجات التعليم صنوان لا يفترقان، ولا يمكن تحقيق تنمية حقيقية أو الاستفادة من نتائجها دون أن يصحبها مستوى تعليمي قادر على الحفاظ على مكتسباتها، فضلاً عن أن النظريات أثبتت أن العائد المادي من الاستثمار في مجال التعليم يفوق الاستثمار في المجالات الاقتصادية بثلاثة أضعاف.

ولا شك أن ما حدث في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، والتحول من تعظيم رأس المال المادي، باعتباره المحرك للتنمية كما كان يرى «كينز»، إلى تعظيم رأس المال البشري، ولا شك أن تجربة بناء اقتصاديات ألمانيا واليابان بعد الحرب قامت على مبدأ قيمة الاستثمار في الإنسان باعتباره محرك التنمية وصانعها والهدف منها، ومن هنا كان البحث الدائم عن النظام التعليمي الأفضل الذي يخرج جيلاً قادراً على بناء الدولة.

إن القيمة الحقيقة للتعليم هي تربية جيل قادر على الإحاطة بمعطيات بيئته واستخلاص ما فيها من أسباب قوتهم وتجويد حياتهم عبر تعظيم مواردها وإن كانت شحيحة، وإلا فما هي الموارد الطبيعية التي تتفرد بها اليابان! غير الإنسان الذي جعل من اليابان هذه المعجزة الاقتصادية.

إن ما أشار إليه بوضوح صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد هو أهمية التعليم في تكوين الإنسان القادر على صناعة التنمية وتوطينها وليس شراء مظاهرها، ضارباً المثل بالتجربة المتميزة لمصنع «ستراتا» لإنتاج قطع غيار

الطائـرات لشـركتي بوينـج وإيربـاص، والـذي تشـغل المـرأة الإماراتيـة 83٪ مـن قوتـه العاملـة.

وكذلـك قـدرة أبنـاء الإمـارات علـى تشـغيل وإدارة كبريـات الشـركات العالميـة فـي قطاعـات الموانـئ والنقـل، وهـو مـا يؤكـد أن التعليـم وإذا كان واجبـاً علـى الدولـة وحقـاً مـن حقـوق أبنائهـا إلا أنـه اسـتثمار علـى المـدى البعيـد، وفـي تقديـري يخطـئ مـن يظـن أنـه خدمـة مـن الخدمـات الاجتماعيـة، وبخاصـة أنـه مـن أهـم مؤشـرات التنميـة سـواء مـن حيـث الكـم والجـودة.

والحـق أن العائـد مـن الاسـتثمار فـي التعليـم ليـس هـو العائـد المـادي فحسـب بـل هنـاك عوائـد أخـرى متمثلـة فـي الارتقـاء بالفكـر والمعرفـة، إضافـة إلـى تهذيـب النفـس وتقويـم السـلوك، والقضـاء علـى كافـة معوقـات التنميـة، وانفتـاح الفكـر، وقبـول الآخـر، والقـدرة علـى الحـوار باسـتخدام قـوة الفكـرة وليـس فكـرة القـوة، وهـو مـا ينعكـس بـدوره علـى انخفـاض معـدلات الجريمـة.

والحفـاظ علـى أمـن المجتمـع، وكل مـا مـن شـأنه تقويـض السـلم المجتمعـي أو تكديـر الأمـن العـام، ويدعـم المواطنـة الإيجابيـة القائمـة علـى أهميـة إدراك الفـرد لـدوره تجـاه أسـرته ووطنـه دون الاكتفـاء بالتغنـي بالـولاء للوطـن دون القيـام بفعـل إيجابـي.

إن اسـتثنائية القمـة الحكوميـة فـي نسـختها الجديـدة جـاءت مـن أنهـا كانـت قمـة كاشـفة لحجـم التحديـات التـي نواجههـا والسـبيل إلـى تجاوزهـا، وآليـات المواجهـة التـي سـيكون الإنسـان فـي موقـع القلـب منهـا.

رسالة استثنائية من قائد استثنائي

توقفت كما توقف الملايين في داخل الإمارات وخارجها أمام الرسالة الشخصية والمفاجئة التي بعث بها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، إلى فريق العمل بحكومة الإمارات ـ وهو اللقب الذي فضل سموه أن يصفهم به ـ وهذه الرسالة بمثابة حدث استثنائي على مستوى حكومات العالم، ولا يتكرر إلا من شخص استثنائي.

فلم يحدث أن خاطب نائب رئيس دولة رئيس مجلس وزراء، العاملين في الدولة برسالة شخصية تحمل هذه العناوين الكثيرة التي تستحق التوقف أمامها طويلاً، لتكشف لنا بجلاء عن شخصية صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، وأن ما حدث في الإمارات من نهضة شاملة لم يكن وليد المصادفة، إنما كان نتاج فكر قيادة تعرف كيف تفجر طاقات العاملين وتشحذ الهمم وتخرج من كل فرد أفضل ما لديه.

ولاشك أن سموه عودنا دائماً على مثل هذه المبادرات الإنسانية الرائدة وغير المسبوقة، ألم يبعث برسالة تهنئة بالعيد لكل مواطن ووافد على أرض

الإمـارات، ولا ننسـى أن سـموه مـن القـادة المعدوديـن علـى مسـتوى العالـم الأكثر استخداماً لوسـائل التواصـل الاجتماعـي فـي التوجـه إلـى شـعبه، لـذا فـإن هـذه الرسـالة تأتـي فـي السـياق الطبيعـي لأسـلوب ارتضـت بـه القيـادة لنفسـها أن تلتصـق بشـعبها، وأن الشـعب هـو الظهيـر القـوي الـذي تنطلـق بـه ومعـه، وهـذه هـي الشـرعية الحقيقيـة.

وفـي تقديـري أن هـذه الرسـالة تؤسـس لمدرسـة جديـدة فـي القيـادة وترسـخ لأهميـة الحافـز الإنسـاني، فقـد يكـون التقديـر فـي بعـض الأحيـان ماديـاً، وهـو مهـم، غيـر أن الأهـم هـو القيمـة النفسـية التـي تبعـث الـروح داخـل الفـرد وتجعلـه يخـرج مـن مخـزون طاقتـه المزيـد وتحقـق لديـه مـا يسـمى بالرضـا الوظيفـي، عندمـا يأتـي التقديـر مـن قمـة الهـرم القيـادي، كمـا أنـه درس لمختلـف القيـادات وعلـى كل المسـتويات فـي منهـج القيـادة التكاملـي الـذي لا يقبـل بالقصـور أو التقصيـر ويعاقـب المخطـئ.

غيـر أنـه يقـول للمحسـن فـي ذات الوقـت قـد أحسـنت وتشـعره بقيمـة مـا يقـوم بـه مـن عمـل سـواء صغـرت مسـؤوليته أم كبـرت، إنهـا إدارة الإنسـان الـذي يتكـون مـن جسـد وروح، وكمـا أن للجسـد متطلبـات فكذلـك الـروح التـي إذا مـا شـعرت بالرضـا والتقديـر صنعـت المعجـزات، تلـك هـي عبقريـة القيـادة، وهـذا أحـد أهـم أسـرار المعجـزة الإماراتيـة.

والمتأمـل يجـد أن الرسـالة تحمـل بيـن طياتهـا دلالات كثيـرة تجعلـك تـدرك مدى إلمـام صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد، بطبيعـة عمـل مختلـف الفئـات التـي بدأهـا بالمعلـم، كمـا أنهـا تبعـث برسـالة أنـه معهـم وليـس بعيـداً عنهـم، لأن سـموه رجـل ميـدان فـي المقـام الأول، قلمـا يمـر يـوم دون أن يكـون بيـن النـاس لأنـه أحبهـم فبادلـوا سـموه حبـاً بحـب وعطـاء بعطـاء وبـذلاً ببـذل ووفـاء بوفـاء، «وهـل جـزاء الإحسـان إلا الإحسـان».

هذا القرب من العاملين الذين حياهم صاحب السمو في بدء رسالته «بإخواني وأخواتي»، ولم يقل الإخوة والأخوات على إطلاقها، وفي هذا التقريب، كما يقول أهل اللغة، حميمية وود، ثم أردف «بفريق عملي» ولم يقل العاملين.

لأن روح الفريق هي القيمة التي أرسى دعائمها سموه، ولم يكن لهذه الإنجازات أن تتم في غيابها وهي التي جعلت الكل في واحد، والغاية والهدف واحد، ثم قوله «فريق عملي في الحكومة» لأنه لم يكن يوماً بعيداً عنهم، كيف وهو الذي تربى في مدرسة الحب والعطاء.

كما أن تشديد سموه في رسالته أن العمل ليس باباً للرزق هي عقد أن أبناء الإمارات قد تجاوزوا هذه المرحلة، وأن العيش الكريم الذي يعيشه أبناء الوطن بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بقيادة سخرها الله لخدمة أبناء الوطن، يلقي ذلك بمهمة على كل فرد أن يحب ما يقوم به، وعندما يحبه سوف يبدع فيه ويبعد عن النمطية التي لا تثمر عن تقدم ولا تحقق نهضة، والأمم التي تطمح دائماً إلى تبوؤ المراكز الأولى.

لا يصلح معها من ينظر إلى العمل باعتباره مصدراً للتكسب فحسب، بل عليه أن يدرك أن كل يوم يمثل تحدياً كبيراً له في إخراج أفضل ما لديه، بذلك تتقدم الأمم وتعز الأوطان ويبرهن كل فرد بحق على حبه لكل حبة رمل من رمال هذا الوطن المعطاء.

كما أعتقد أن صاحب السمو بذلك قد حدد الأطر التي يجب أن تعمل مؤسسات الدولة من خلالها لتبوؤ المركز الأول، أولها أن العمل الحكومي ليس باباً للرزق فحسب، ثم إن التقليدية والفكر النمطي لا يدفع وطناً أو يبني أمة، ثم الدافعية والمبادرة، والتي لن تأتي إلا بحب ما نقوم به.

وفي إطار ذلك لم ينس سموه دور المرأة الإماراتية في تحمل مسؤوليتها

الوطنية مع الرجل كتفاً بكتف وذراعاً بذراع، فكانت نعم الأم وكانت مواطنة صالحة استطاعت أن تثبت كفاءة فيما أنيط بها من مهام، حتى أصبحت وزيرة وعضواً بالمجلس الوطني، ومازالت مسيرة الخير مستمرة.

إن هذه الرسالة الاستثنائية يجب أن تتفحصها كل المؤسسات بالدولة، لأنها تحدد أطراً للعمل ينبغي أن تعتمدها وتعظم مردودها وبخاصة أجهزة الإعلام، والتي لها دور كبير ومؤثر في نشر ثقافة الجودة والطاقة الإيجابية من خلال إعطاء الأمل للناس، وأنهم قادرون على صنع المعجزات. إنها بالفعل رسالة استثنائية من قائد استثنائي، وقعها باسمه مجرداً من كل الألقاب المستحقة، يكفي أنه محب لشعبه ومخلص لوطنه.

عند الملمات
تكون الإمارات

من سنة الله في كونه، أن الشدائد تأتي معها باللحظات الكاشفة، وأن المعادن الأصيلة وجوهر الرجال يتضح عند الشدائد، كما أنه من الصعوبة بمكان التفريق بين طبائع الناس إلا عند الأزمة، ولذلك قيل، الصديق وقت الضيق، تعلمنا هذا وغيره في القواعد الحاكمة للعلاقات الإنسانية بين البشر، غير أن هذا الحديث ينسحب كذلك على الدول، باعتبار أن الشعب هو المكون الرئيس للدولة، وهو يمثل بدوره جماعات إنسانية تحب وتبغض وتحزن وتفرح وتأمل وتحبط وتعطي وتمنع.

ولأن تاريخ الإمارات يقف شاهداً على أنها كانت دائماً حيث يجب أن تكون، عند النداء تلبي «حي على العطاء»، بل إنها تكون قبل النداء لتبادر بالخير من منطلق الواجب الإنساني الذي أخذته على عاتقها خلفاً عن سلف، حتى صارت عاصمة الخير والعطاء، ونالت محبة الشعوب قبل الحكومات في أنحاء المعمورة، كيف لا وأنت حيثما تولي وجهك تجد آثار الخير وعلامات المحبة وشواهد البناء، يقف من ورائها تاريخ حافل يصعب حصر مفرداته، التي جاء تقرير وزارة الخارجية لعام 2014 ليعبر عن غيض من فيضه.

ليؤكد أن دولة الإمارات قدمت خلال السنوات الست الماضية مساعدات إنسانية للاجئين في 71 دولة حول العالم، بلغت قيمتها ما يقرب من أربعة مليارات درهم، كما أسهمت خلال السنوات الثلاث الماضية في دعم الجهود الدولية، بما يقرب من تسعة مليارات درهم للقضاء على الفقر، بخلاف المبادرات الإنسانية المتعددة، حتى أصبحت نجدة الملهوف سمة من سمات أبناء الإمارات، ومحدداً أساسياً من محددات سياستها الخارجية.

وآية ذلك، تلكم الاستجابة الكبيرة لنداء صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد عبر حسابه على الإنستغرام إلى المسارعة في المساهمة بحملة «تراحموا»، التي وجه بها صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، لإغاثة اللاجئين من موجة البرد، التي تضرب شرق البحر المتوسط، بعد أن توفيت أول طفلة من اللاجئين السوريين بسبب ذلك البرد القاتل.

ومن يتأمل هذا المشهد، وكيف كانت سرعة الاستجابة، والتي سجلت بها كافة قطاعات الدولة سابقة كبيرة بتنفيذ الحملة خلال عدة ساعات، للحد الذي جعل المساعدات تصل إلى أهل الشام قبل العاصفة، لهو دليل على ذلك التناغم الكبير والرباط الوثيق بين القيادة والشعب، الذي توجه له صاحب السمو بالنداء قبل غيره، فكان عند النداء إيماناً منهم بحق أهلنا في أرض الشام في الوقوف بجانبهم وتخفيف آلامهم وتفريج كربهم.

إن القيادة التي نادت والشعب الذي لبى النداء، يؤكد على نهج الإمارات الدائم في ألا تهب منها غير رياح الخير والنماء دون منّ أو انتظار ثناء، كما أنها تعلن عن جاهزية شعب تربى أبناؤه على حب العطاء ومساعدة الإنسان دون الوقوف على لون أو جنس أو عرق أو دين، حتى ضرب القدوة والنموذج للشعوب من حولنا «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون».

والشاهد أن وسم حملة «تراحموا» لاقى من اللحظة الأولى لانطلاقه ترحيباً واسعاً وتجاوباً كبيراً، ليس على مستوى الإمارات، بل على النطاق العربي، وأصبح وسم الحملة على شبكات التواصل الاجتماعي ضمن قائمة الأكثر تداولاً.

وهو ما يشير إلى الاستخدام البناء والإيجابي لشبكات التواصل الاجتماعي فيما ينفع الناس، وهو نهج يجب تعظيمه والدق عليه بشكل منتظم، لأنه يبث في أبنائنا القيم عبر السلوك والفعل والقدوة والنموذج «ومن شب على شيء شاب عليه».

وفي تقديري أن تلك الاستجابة الكبيرة والسريعة والمعتادة، تؤكد أن الوطن بقيادته وشعبه ومؤسساته على قلب رجل واحد، بل إنه جسد واحد، ورغم اليقين القطعي بذلك، إلا أن تلك المبادرات الخيرة لها دور كبير في إيقاظ ذلك الشعور وتنبيهه، كالجنود الذين يقومون ببيانات عسكرية وتدريبات من حين إلى آخر، والصلة وثيقة بين الأمرين لا شك، ألم تأتِ التضحية بالمال بعد النفس في كتاب الله الكريم؟

كما أن تلكم الحملة الخيرة، والتي اتخذت وسم «تراحموا»، لهي دعوة لنشر السلام والمحبة بين الناس، وأننا أخوة في الإنسانية قبل العرق أو الدم «كلكم لآدم وآدم من تراب»، وهي دعوة للتسامح والانفتاح على العالم، وأن يعتاد أبناؤنا أن يشاركوا غيرهم في أتراحهم وآلامهم، وفي هذا تنمية للحس الإنساني الذي لا يجب أن يألف رؤية الغير في أزمة دون أن يحرك ساكناً.

ومن اعتاد أن يشارك من هم خارج الوطن مصابهم، فهو لوطنه أوفى ولأبنائه أرحم، وفي هذا تكريس الانتماء للوطن، فصدق المواطنة يعني أن تتسع رؤيتي وتعلو اهتماماتي فوق مصالحي الضيقة لمشاركة الغير في هم عام، فما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط.

كما أن التفاعل المؤسسي يؤكد على البعد الاجتماعي، والدور الذي يجب أن تقوم بها المؤسسات، باعتبار دورها في المحيط الذي تعمل فيه، سواء الوطني أو العربي، وهو ما يجعل الآخرين ينظرون إليها بإيجابية، وإلى عملها بالتقدير، ويجعل من تلك المؤسسات كائناً حياً قادراً على الحركة، ومواطناً صالحاً يقدم الخير للناس، وهو ما يجعل جمهورها يقف بجانبها حين تتعرض لهزات أو كبوات، باعتبار ما رسخته من صنائع الخير من قبل، وهو ما ينعكس على مستوى أدائها ونجاحاتها في ميدان الأعمال بسياج من الأخلاق والمسؤولية الاجتماعية.

إنها ملحمة العطاء ومضمار الخير الذي يتنافس فيه أصحاب الأهداف النبيلة، ومعركة البناء والنماء وخير الإنسان تتعدد فيها المساهمات لنجدة الملهوف وإغاثة المكروب، غير أن المساعدة بالمال لا تنسينا كتائب الخير من أبناء الوطن الذين يشاركون المكروبين بالنفس، حاملين لهم رسائل المحبة من أبناء الإمارات، هؤلاء الذين يبذلون الجهد والنفس عبر التطوع والعمل الميداني من خلال المؤسسات الخيرية والإنسانية، هم جنود غير مجهولين، ينشرون الدفء في قلوب المكروبين قبل بيوتهم.

نستدعي ونصنع

نستدعي الماضي، لكن نملك الحاضر ونصنع المستقبل، تلك هي الحالة التي يعيشها أبناء الإمارات، ولا تحدث عند أيام الوطن الخالدة وأعياده فحسب، لكنها مزاج عام يعيشه أبناؤه، والمقيمون على أرضه يشاركونهم الأفراح وأوقات الشدائد، والشاهد ما تراه في أرجاء الوطن، احتفال بعيد الاتحاد واحتفاء بالشهداء الأبرار، وهذه حالة صادقة من التآزر والتماسك في وطن، غلفه التسامح وحماه من كل راغب في إثارة الفتن والقلاقل.

والمعادلة المعجزة التي حققها أبناء الإمارات، في أن حاضرهم امتداد لماضيهم الشاخص دائماً في قلوبهم وعقولهم، وهو الأساس الذي يتم البناء عليه والانطلاق من ثوابته، وتلك حالة فريدة، تستحق التوقف قليلاً في تعامل الشعوب مع الماضي، ذلك أن كثيراً من الأمم يحال بينها وبين ماضيها لكيلا ترى إلا الحاضر، وكأنها منقطعة الصلة بما تم، وأن البناء يبدأ من المربع الأول، باعتبار أن ما كان يمثل صفحة طويت لا يجب تذكرها أو التعويل عليها.

فيجد الفرد نفسه مقطوع الصلة بما قضاه من عمره، وكأن ما عاشه كان ضرباً

من العبث، ضاعت فيه سنوات عمره هباء منثوراً، وأن القناعات التي عاش عليها باتت كدخان تطاير في الهواء وتلاشى، وأن عليه أن يهيل الرماد على ما مضى ليبدأ من جديد، فيفقد الثقة في الماضي، ويتوجس من الحاضر ولا شأن له بالمستقبل.

غير أن الحالة الإماراتية متصالحة مع رحلة البناء، تعتز بالتاريخ وسيرة من قام به، وتجعلهم تيجاناً على الرؤوس، وفي ذلك دروس في الوفاء والانتماء يتعلمها الأجيال، والتأسيس لمنهج النابهين، والطريق إلى النجاح الذي يبدأ من حيث انتهى إليه الآخرون، كما أن استدعاء أبناء الإمارات للماضي ليس من باب التحسر عليه، لكن للرغبة في استلهام الدروس وأخذ العبر منه والاستقواء والاعتزاز به.

وذلك ملمح آخر، ذلك أن الشعوب عندما تفقد الحاضر لا تجد غير استدعاء الماضي كنوع من التعويض، وعندما تفقد السيطرة على واقعها، تتذكر كيف كانت في عقود خلت، وهو نوع من عدم القدرة على الفعل في المشهد الحاضر والانسحاب الحضاري والعيش على ذكريات ماضٍ لم تستفد منه أو تقدر على الاستمرار بنفس زخمه.

غير أن الحالة الإماراتية في الاعتزاز بالماضي تواترت مع امتلاك الحاضر وترسيخ المكان والمكانة، وهو في تقديري ما انتقل بزخم الاتحاد، الذي أخذها من وجود المؤسس وإخوانه الذين صنعوا تلك المعجزة الخالدة في الوقت الذي كانت تنهار فيه الاتحادات في عالمنا العربي وتنفك أواصرها، كانت الإرادة الاتحادية، بقوة الفكرة، وليس بفكر القوة، تشق الطريق إلى نقطة الوصول، وهي المرحلة الأولى من الاتحاد، والتي يمكن أن نطلق عليها مرحلة التأسيس والبناء.

غير أن المرحلة التالية من تأسيس الاتحاد بعدما تسلم الراية قادة تربوا على أعين المؤسسين، هي مرحلة الانطلاق بسفينة الاتحاد إلى المنافسة والريادة

وتحقيق إنجازات معجزة شعر بها المواطن والمقيم، وتعجب منها العالم وقدرها، هنا زخم آخر يأتي من امتلاك أدوات العصر والحركة المحسوبة والمتنامية والمتجذرة، وما زال الماضي في ذلك منهلاً عذباً نستقي منه الدروس والعبر، ونستمد منه قوة التأسيس.

غير أن ما تحقق من إعجاز بشري على أرض الإمارات، لم يجعل قيادتها وشعبها يتوقفون أمامه طويلاً، لكيلا تأخذهم زهوة الفرح ونشوة السعادة من التيقظ للمستقبل والتحوط له، والمساهمة في وضع قواعد التعامل معه، والنظر إلى فضاءات واسعة، يجب أن نعمل من أجل أن نصل إليها، وأن مهارات يجب أن نكتسبها، ومجالات علينا أن ننميها، واستثماراً في البشر واجب تعاظمه، باعتبار أن قوة الإنسان تأتي بما يملكه من فكر في عالم لم تعد قوته بالكم، بقدر ما هي بالكيف والجاهزية.

إن المعادلة العبقرية، التي أوصلت قافلة الظفر الإماراتية، عندما اعتزت بماضيها واستدعته، ولم يكن ذلك تحسراً بقدر ما كان اعتزازاً وفخراً، ولم يشغلها ذلك عن بناء واقع صلب، لم تشغلها نشوة نجاحاته عن النظر إلى المستقبل والمشاركة في صنعه، حتى وإن كان المشهد معقداً، لكن الإمارات قيادة وشعباً، تعرف طريقها، وماذا تريد أن تحققه، وهو من أهم عوامل نجاح حركة الشعوب.

فضلاً عن أن منهجها في ذلك ناتج عن فكر وطني خالص، نأى بنفسه عن الشعارات والأيديولوجيات، وسعى بشكل واضح إلى إسعاد شعبه عبر آليات ملموسة، يجدها في تجويد حياته يوماً بعد يوم، يتماهى مع ذلك دور إنساني لم تتخلَ عنه الإمارات يوماً ما، ودور إيجابي في محيطها الإقليمي والدولي، نابع من مسؤولية حضارية، فتفانى أبناؤها في الذود عنها وفدائها بالدم والروح، ونالت احترام وتقدير العالم الذي سعى إليها وقصد دارها.

عيشي بلادي

عيشـي بـلادي. ترنيمـة حـب لا خيـار فيهـا ولا بديـل عنهـا، وهـل لمـن جُبِـل على الحب اختيار، وهـل لنا خيار حيـن نحب، وهـل نحب حيـن نختار. ودعاء خاشـع فـي محـراب وطـن احتضننـا، كمـا تحتضـن الأم الـرؤوم أبناءهـا، ونـداء عاشـق خـرج مـن الحـب إلـى الولـه الـذي لا يـرى للحيـاة قيمـة دونـه، وإن جـاب الأرض شـرقاً وغربـاً، تظـل رمـال وطنـه حبـات مـن ذهـب، ونسيمه سـر الحيـاة يدخـل فـي الجسـد فيطببـه.

ويمتـزج مـع الـروح فتحيـا، وكأنهـا مصـدر الحـب المتجـدد الـذي يشـحذه بيـن الحيـن والآخـر، ورسـالة ارتبـاط سـرمدي لا تعـرف كنههـا، لكنـك تشـعر بهـا، ولا تراهـا، لكنهـا قـوة لا يمكـن لـك أن تكـون مـن دونهـا، ولا تملـك إلا أن ترتبـط بهـا، لأن فـي الارتبـاط بهـا حيـاة، وفـي الانقطـاع عنهـا المـوت حتمـاً ولـو كنـت بيـن الأحيـاء.

وهـل للجنيـن فـي بطـن أمـه طاقـة الانقطـاع أو خيـار لذلـك، إنهـا طاقـة نـور، تبعـث فـي النفـس القـدرة وقـوة إرادة علـى أن تظـل شـجرة الاتحـاد راسـخة رسـوخ الجبـال، مترامية بأغصانهـا علـى امتـداد أفـق يطـول بطـول محبـة أبنائهـا لـه.

عيشي بلادي، دعاء عابد لوطن، هو له حصن وحامٍ وسياج أن يحفظه من كل حاقد أو حاسد أو معتدٍ، وأن يظل درة تاج، ومنارة علم، وأرض تسامح، وعاصمة للعطاء الإنساني، وطن لا تنبت أرضه إلا النبت الصالح الخير، ولا تعرف سماؤه إلا نسائم الخير والحياة، ولا تدار مصانعه إلا لتنتج ما يعين الإنسان وينفعه.

عيشي بلادي، نداء فخر وعزة لوطن احترم الإنسان، دون أن ينظر إلى عرقه وجنسه وعقيدته، فأتاه البشر من كل حدب وصوب، وعاشوا على أرضه دون تمييز أو انتقاص، فكان له المكانة في كل أرض تطؤها الأقدام، وكانت المحبة والتقدير قرينة لأبنائه أينما ذهبوا وحلوا.

عيشي بلادي، بيان شعب للقريب والبعيد، أننا نور على من يصادقنا، ونار على من يعادينا، ماء بارد على محبي الخير والسلام، وحمم بركان على من يعتدي على شعبه وينتقص من أرضه.

عيشي بلادي، أغنية طفل يرددها كل صباح قبل أن يبدأ يومه، وكأن يومه من دونها منقوص، ولا فلاح ولا نجاح له من دونها. وهل يقوى الفرد دون وطنه، وهل يستمد قوته وعافيته إلا من صحة وطنه وعزته. طاقة قوة يبدأ بها يومه، ليحصل الخير والنفع.

عيشي بلادي، إصرار لا وهن فيه، وإرادة لا لين فيها، وتصميم لا تردد معه، أن يظل الاتحاد قوياً قادراً، فهو الطريق الذي عرفناه، وصمم الحكماء من المؤسسين إقامته، ومن تربي في كنفه من الخلف الذين حملوا الراية فعمقوه في نفوس أبناء الوطن من عاصره ومن ترعرع في نوره، بعد أن وجدوا الخير كل الخير فيه، إن اتحاداً يؤسس للرضا، ثم يرتقي إلى مؤسسة السعادة، بجعلها سياسة حكومة، لجدير بالذود عن حياضه، والبذل دونه بالغالي والنفيس.

عيشي بلادي، قسم جندي للتضحية بالروح من أجل وطن صانه ولم يهنه

يوماً، أمده ولم ينتقص منه، حنى عليه ولم يقسُ عليه يوماً، أحاط به ولم يضيعه يوماً، كان هو الهدف والغاية ولم يهمله يوماً، كان له عزاً، ولم يخذله يوماً، مسح على جبينه ولم يكن مصدراً لأوجاعه، شرف بالانتساب إليه، ولم يكن يوماً مطرقة طرد وتغريب، فكان يوم الوفاء وتلبية النداء وبذل الروح هينة لينة دونه، وكأن لسان حاله نموت ويحيا، ففي حياته حيوات، والخزي والعار لكل معتدٍ أو متربص.

عيشي بلادي، وقفة صمود ونبل أمهات الشهداء وزوجاتهم وذويهم، أذهلت العالم، وخيبت آمال من توقع منهم وهناً وضعفاً وتراخياً، بعدما فقدوا أعز ما يملكون، أبناءهم، لكنهم كانوا أبناء للوطن من قبلهم، وفي حمايته حماية لهم وللأجيال من بعدهم، فامتدت حياتهم في حياة من بذلوا حياتهم من أجله، وخلدهم التاريخ في ذاكرته، والشعب في قلبه، والقادة في كل ملمح من ملامح أرض الوطن مدناً وأحياء وميادين، ليظل ذلك درساً في الوطنية الحقة للبراعم القادمين.

عيشي بلادي، ميثاق الولاء والانتماء، بأن مصلحة الوطن قبل مصالح الأفراد، وقضاياه قبل كل القضايا، وأن الولاء له من الدين، ومن مات دون أرضه فهو شهيد، إنه نور الحق ضد نار الاعتداء، وكلمة الفصل حين تتبدل الكلمات، والطريق الواضح حين تتعدد الطرق، وعين الحقيقة حين تلتبس وتشكل، وهو القول الفصل، حين تختلف الآراء.

عيشي بلادي، تعني الحياة، في وقت تنتشر فيه رائحة الموت، وتعني البناء، في الوقت الذي كثرت فيه صور الهدم، إنها الإعلان عن شعب لن يقبل بغير القمة مكاناً، أنشودة السلام، ورحلة العطاء، شعب نشر النور، وفتح للخير أبواباً، وصد الفتن والنعرات، وستظل أنشودة حب ووئام يتوارثها أبناء الوطن المعطاء.

عيشي بلادي.. عاش اتحاد إماراتنا.

بناء الوعي السياسي لشبـاب الجامعـات

لأن شبابنا هـم أغلـى مـا يملكـه الوطـن، ولأنهـم مـن سيحملون رايـة المسـؤولية فـي مقبـل الأيـام، ولأن حركـة الشـباب متغيـرة، ومتطـورة بطبيعـة المرحلـة السـنية، التـي تتميـز بالقـدرة السـريعة علـى الالتقـاط مـن كل الاتجاهـات، باعتبارهـا فتـرة التكويـن الفكـري وبنـاء المـدارك، وهـي مـن أهـم المراحـل التـي تتشـكل فيهـا الشـخصية الحقيقيـة للفـرد، أضـف إلـى ذلـك أن مرحلـة الجامعـة مـن المراحـل، التـي يبحـث فيهـا الفـرد عـن الإجابـة عـن العديـد مـن التسـاؤلات والقضايـا الغامضـة أو المشـكلة بالنسـبة لـه.

ولأنـه يحتـاج مـن يمـد لـه يـد العيـون بإلقـاء الضـوء كـي يسـتطيع أن يرتـب قناعاتـه، التـي سـتؤثر بـلا شـك فـي الكثيـر مـن قراراتـه، التـي سـيتخذها فـي مراحـل تاليـة، فمـن هنـا جـاءت أهميـة منتـدى بنـاء الوعـي السياسـي لطـلاب الجامعـات، الـذي نظمتـه وزارة الدولـة لشـؤون المجلـس الوطنـي الاتحـادي، بالتعـاون مـع جامعـة الإمـارات العربيـة المتحـدة.

وحضـور العديـد مـن طلبـة الجامعـات فـي الدولـة، فـي إطـار ترسـيخ أسـس المشـاركة السياسـية فـي عمليـة صنـع القـرار الوطنـي، وفـي إطـار جهودهـا فـي تعزيـز التنميـة السياسـية.

والوعـي يعنـي الإدراك والفهـم والحفـظ، ويأتـي منهـا الوعـاء، الـذي يحيـط بمـا يحصنه ويحافظ عليه، كما أن الوعي السياسي يعني الرؤية الشاملة، بما تتضمنه مـن معـارف سياسـية وقيـم واتجاهـات سياسـية، تتيـح للإنسـان أن يـدرك أوضـاع مجتمعه ومشكلاته، ويحللها ويحكم عليها، ويحدد موقفه منها، دون أن يتخبط أو يقـع فريسـة للدعايـات المضـادة أو الحـرب النفسـية أو الرسـائل الإعلاميـة أو الشـائعات، التـي تسـتهدفه أو تنـال منـه أو تصيبـه بحالـة مـن الارتبـاك، وهـو أخطـر مـا يصـاب بـه الشـباب، الـذي هـو عرضـة لهـا، مـن قبـل جهـات ومصـادر لتحقيـق أهـداف غيـر أمينـة.

وإن كانـت تصـوغ ذلـك فـي ثـوب جـاذب كمـن يضـع السـم فـي العسـل، فـي عالـم أصبحـت سـيولة المعلومـة فـوق الطاقـة، ومـن الصعوبـة بمـكان متابعتهـا، والوقـوف علـى فحواهـا الحقيقيـة إلا لـدى أصحـاب القـدرات الثقافيـة وقـادة الفكـر.

وشـباب الجامعـة فـي الإمـارات هـم قـوة الوطـن وثروتـه المسـتدامة، التـي يسـتثمرها الوطـن، لـذا فإنـه مـن الأهميـة بمـكان أن يجـد مـن يسـاعده علـى الوقـوف علـى أرض ثابتـة برؤيـة رائقـة.

كمـا أن الاهتمـام ببنـاء الوعـي السياسـي يأتـي فـي إطـار التنميـة المتوازنـة، التـي تحـرص عليهـا الإمـارات بجناحيهـا الاقتصـادي والبشـري، فـي إطـار مـن الرؤيـة الشـاملة لعوامـل النهضـة وفلسـفتها، والبنـاء علـى مـا أطلقـه صاحـب السـمو الشـيخ خليفـة بـن زايـد آل نهيـان، حفظـه اللـه، مـن برنامـج للتمكيـن عـام 2005، الـذي اعتمـده المجلـس الأعلـى للاتحـاد كونهـا خطـة عمـل وطنيـة، أرسـت القواعـد المنهجيـة لعمليـة تمكيـن، وتعزيـز أدوار كل مكونـات المجتمـع فـي إطـار مـن الخطـوات المتدرجـة، التـي تنبنـي فيهـا كل مرحلـة بنـاء علـى سـابقتها، حتـى تظـل سـفينة الوطـن قويـة مسـتقرة، تعـرف اتجاههـا ومحطـة الوصـول، وقـادرة علـى مواجهـة أعتـى الأمـواج.

فضلاً عن الدفع المستمر للشباب والثقة بقدراتهم من جانب صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، رعاه الله، الذي جعلهم هدفاً غالباً وشريكاً فعلياً للعديد من مبادرات سموه.

وفي تقديري أن بناء الوعي السياسي يأتي من التواصل بين الشباب وبين مختلف المؤسسات المعنية بالدولة، وأن يكونوا، كما تحرص القيادة، مساهمين في صناعة القرارات التي تخصهم، وهو ما ينقلهم إلى مستوى أرفع من الإدراك، الذي يحملهم المسؤولية الاجتماعية، التي تهدف إلى الحفاظ على مكتسبات الوطن، والمشاركة في منظومة العمل والتنمية.

وبناء الوعي يأتي كذلك عبر التوجيه والتوعية، سواء من الجهات الرسمية أو المؤسسات الأهلية، عبر إيجاد آليات للحوار المستمر، الذي يفتح آفاقاً للبيان، وتوحيد الرؤى، وهو الأمر العاصم من كل محاولات التشويش أو الإرباك.

وعلى الرغم من أن التوعية السياسية مهمة لمختلف المؤسسات الوطنية، بدءاً من المدرسة مروراً بالأسرة، التي يتلقى منها الفرد خبراته الأكثر تأثيراً في حياته، وليس انتهاء بالجامعات التي عليها دائماً أن توفر مناخاً من التواصل بين الشباب والمسؤولين، إلا أن وسائل الإعلام ينبغي عليها أن تكون الحاضر الأكبر في هذا الميدان، ليس عبر البرامج السياسية فحسب.

ولكن أن يكون تكوين الوعي في موقع القلب من المواد المقدمة، بدءاً من الوعي بالتاريخ وما بذله القادة المؤسسون، ووعي بالحاضر والتحديات، التي تحيطه، ووعي بالمستقبل، وكيف يكون لهم دور في صناعته، وهو الشغل الشاغل لقيادتنا الرشيدة.

إن منتدى الوعي السياسي، الذي احتضنته جامعة الإمارات، مثّل ورشة عمل

وطنيـة، جمعـت الأكاديميين والمفكريـن والسياسـيين وأصحـاب الفكـر وطـلاب الجامعـات، ومنهـا جامعـة عجمـان، التـي حرصـت أن تكـون بطلابهـا فـي قلـب الحـدث المهـم، الـذي يجـب أن يطـوف بـكل جامعـات الدولـة نحـو مزيـد مـن الوعـي والاسـتنارة لشـباب هـم مسـتقبل هـذا الوطـن.

من الاستثمار في الإنسان
إلى صناعة العلماء

هكذا هي الإمارات قيادة وشعباً لا تقنع بمرحلة في طريق البناء مهما كانت وجاهتها حتى تتطلع إلى مرحلة أخرى، تبدو لمن ينظر إليها ضرباً من الأحلام حتى يجدها أمامه ملموسة نتائجها.

وهل هناك عمل غيّر وجه الأرض لم يسبقه حلم، عمل له أصحاب الهمم العالية، ونظر إليه بترقب حيناً وبإنكار حيناً من ارتضوا الدنية في دنياهم. من هنا كانت المبادرات الاستراتيجية التي اعتمدها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم.

والتي تهدف إلى خلق بيئة تحفّز إلى الابتكار والبحث العلمي، وصناعة جيل من العلماء والباحثين الإماراتيين بما يعزز المسيرة الوطنية نحو بناء اقتصاد قائم على المعرفة، متسق مع طبيعة الحالة التنموية للإمارات، مؤكداً ثقة الدولة بشبابها من العلماء والإيمان بقدراتهم وما يمكن أن يقدموه لبلادهم.

والحق أن ما حدث على أرض الإمارات من تطورات تنموية خالفت قواعد التنظير، بما فيها الفترات الزمنية التي تحدثت عنها أدبيات عملية التنمية، مما

جعل الكثير من المنظرين يعيدون النظر في المراحل التي تمر بها عملية التنمية، هذا من جانب أما الجانب الآخر فيتمثل في أن عملية التنمية في الإمارات امتازت بأنها لم تكن عشوائية لكنها كانت مخططة وهذا الأصعب.

وامتازت بسرعة الحركة وإرادة اتخاذ القرار ووعي شديد من القيادة الرشيدة، وما زال، لما سيحدث في المستقبل القريب كذلك على فترات أطول، ولم تكن الحركة عشوائية أو ردات للفعل بل كانت تمثل الفعل ذاته، وتمت على صعد وفي مجالات مختلفة في وقت واحد بتوازن، كانت محصلته ذلك التقدم المجتمعي الشامل الذي شعر به المواطن فآمن بالتنمية ودفع بها.

أسهم في ذلك أن الآليات التي تعاملت بها للوصول إلى المبتغى كانت على قدر طموح وقوة الهدف، فكان الابتكار هو الطريق، لأنه مع حالة كهذه وبهذه الوتيرة المتسارعة في ظل ظروف شديدة التعقيد، لا يصلح التعامل الرتيب والمعتاد، بل نحتاج دائماً إلى النظر خارج الصندوق للبحث عن حلول وأدوات مبتكرة وغير تقليدية.

فأصبح الابتكار ثقافة مجتمعية تضرب بنورها كل المجالات وعلى كل المستويات، لا خيار لأبناء الوطن في الأخذ به، لأن الأهداف غير التقليدية لا يمكن تحقيقها بآليات تقليدية، لذا تحول الابتكار إلى حتمية مجتمعية وحاجة، والحاجة دائماً عنصر ضاغط يفجر في الفرد طاقات خلاقة لم يكن يتوقعها.

والحق أن قصة اتحاد الإمارات ورحلة البناء التنموية لم تكن يوماً ممهدة لكنها كانت دائماً محاطة بالتحدي الذي قبلته وعملت في ظل ظروفه، وهذه المبادرات تشكل تحدياً جديداً لدولة تفضل دائماً ذلك الطريق، لأنها السبيل إلى الوصول إلى غايات كبرى جديرة ببذل الجهد، لكن السير فيه ليس بدوافع عاطفية أو دفقات حماسية، لكنها محسوبة خطواته، معدة أدواته.

ومخطط لمسيرته عبر تشكيل منهج متكامل لتحقيق التفوق الذي يضمن للإمارات دوماً تميزاً عالمياً للوصول إلى ذروة سنام البحث العلمي وعلاماته وهو الطريق إلى نوبل، وصناعة العلماء تحدٍ آخر يحتاج إلى تضافر عوامل عدة منها الدعم الدائم لثقافة التميز لدى أبنائنا منذ نعومة أظفارهم، والسعي الدؤوب لاكتشاف الموهوبين من المراحل الدراسية المبكرة ورعايتهم والدفع بهم والاستماع إليهم وتعظيم أفكارهم عبر مناهج تعليمية وطرق تدريس لا تعتمد على التلقين بقدر ما تعتمد على التفكير والتحليل والقدرة على الاستنباط وتكوين رؤية نقدية.

ولا شك أن إنشاء جائزة محمد بن راشد للشرف العلمي تؤكد الدعم غير المحدود للباحثين وتأتي تكريماً لأهل العلم من الطلبة والباحثين، كما أن تأكيد صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم على أن العلماء والأكاديميين والباحثين شركاء الحكومة في مواجهة تحدياتها، يؤكد الدور المطلوب من الجامعات ومراكز البحث العلمي في تحمل مسؤوليتها الوطنية في دعم مسيرة العلم والابتكار عبر التحديث الشامل والمستمر في البرامج المطروحة وأساليب التدريس.

وأن يكون ما يدرس يمارس، لتكون قادرة على رفد المجتمع بطاقات شابة قادرة على الإبداع والتجديد، إلى جانب ذلك الاهتمام بالبحث العلمي وتسويقه لكي تكتمل الحلقة بين المجتمع والجامعة باعتبارها بيتاً للخبرة قادراً على المساهمة بكوادره في الترقي العلمي لأبناء الوطن ووضع التحديات المجتمعية على طاولة البحث، هنا يتعاظم دور الجامعة في مسيرة البناء.

في تقديري أن هذه المبادرات بمثابة الدماء التي تسري في العروق فنحيا بها، وروح جديدة تسري في الجسد فيسعد، ومن دونها يذبل وتزهق الروح، إنها تمثل أجندة للعمل الوطني، وبوصلة تحدد لنا ملامح الطريق والغاية مما نقوم به في تناسق وتكامل.

إن وطناً ترى قيادته الرشيدة أن العلماء نخبة المجتمع وتقديرهم تقدير لمستقبل دولتنا لجدير ببذل الروح دونه، إن الإمارات التي استثمرت في الإنسان عبر عقود تتطلع اليوم برؤية واضحة إلى صناعة جيل من العلماء، وكما أدهشت العالم بما حققته ستدهشه فيما ستحققه، وإن غداً لناظره قريب.

مسرعات حكومية
لآفـاق عالـميـة

«لـن ننتظر ولـن نتساهل مـع المعذريـن، نريـد نتائـج سـريعة يلمسـها النـاس»، بهـذه الكلمات التي وجـه بهـا صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد آل مكتـوم، والتي تحمـل في طياتهـا ملامـح خطـة وآليات عمـل الأجنـدة الوطنيـة التي أطلقهـا سـموه في الاجتمـاع الأخير لمجلس الـوزراء، والتي أكـد مـن خلالهـا النهـج الـذي خطـه للعمـل الحكومـي منـذ تولـي سـموه لمقاليـده، وثوابتـه التـي أكدهـا دائمـاً، وهـي «أن المسـتقبل للمبادريـن والجريئيـن الذيـن يوظفـون الإمكانـات ويسـتثمرون بالإنسـان، ليحققـوا الإنجـازات ويصنعـوا الفـرق ويتصـدروا الركـب العالمـي، فـي رحلـة تشـكيل مسـتقبل مسـتدام غنـي بالفـرص للأجيـال القادمـة».

وفـي تقديـري أن مـا أكـده سـموه يمثـل خارطـة طريـق للنجـاح والتميـز والإبـداع ليـس فـي العمـل الحكومـي فقـط، ولكـن لرحلـة الإنسـان علـى الأرض أيـاً كان مكانـه ومهمـا كان مـا يقـوم بـه مـن عمـل، إنهـا وصفـة للخـلاص مـن أغـلال التـردد والخـوف، كمـا أنهـا ضربـات قويـة تقـرع جـرس الإنـذار لغـدٍ ليـس فيـه مكـان لمـن ينتظـرون دائمـاً حتـى يـروا غيرهـم، فـإذا مـا أصابـوا نجاحـاً انتظـروا أيضـاً ليقـدروا حجـم النجـاح.

فإذا ما عرفوا ذلك انتظروا كذلك ليروا هل من أخطار بعد النجاح، ثم يبدأون في السير، هنا يكون ركب الظفر قد مضى وانتقل إلى مربعات أخرى من التفوق والإبداع، مخلفاً المترددين بداعي الدراسة والتأني بعد أن ارتضوا لأنفسهم مكاناً لا يقبل به إلا ضعاف الهمم، هؤلاء هم المعذرون الذي تحدث عنهم سموه.

مؤكداً أهمية تحقيق نتائج سريعة، وهو ما يعني أن وتيرة العمل والحركة لابد أن تكون كذلك سريعة ومتناغمة ومتكاملة، لأن الحركة العشوائية الفردية والعمل بأسلوب الجزر المنعزلة قد يظهر لغير المدققين أن هناك حركة لكنها في الحقيقة غير منتجة، ثم الإشارة إلى أن تكون هناك نتائج يلمسها الناس، هي التأكيد على الهدف الأخير الذي تعمل في إطاره حكومتنا الرشيدة وهو الناس.

فهي من الناس تتكون وبالناس تطرح الأفكار وتعمل، وإلى الناس تسعى لتحقيق النتائج التي تحقق الغاية الكبرى؛ وهي تجويد الحياة، وهو المصطلح الأكاديمي الذي نحتت له قيادتنا تعبيراً أدق وأوضح وهو إسعاد الناس، فلا قيمة لنتائج لا تعود على الناس بفائدة.

ولا قيمة لتقديم شيء لم يقابل حاجة في نفوس الناس، تلك هي التوليفة العبقرية التي استطاعت الحكومة الرشيدة أن تجعلها منهاج عمل، فكانت دائماً في قلب الناس، تعرف حاجاتهم وتلبي طموحاتهم لتجعل من الإمارات الرقم واحد في كل الميادين وعلى الصعد كافة.

مؤكدة أن هذا لن يكون إلا بالاستثمار في الإنسان، باعتباره ثروة الوطن الحقيقية، بل هو منبع الثروات حيث تشح، وهو مبتكر البديل حين يعز، غير أن هذه الحركة الدائبة والمتسارعة لم تكن حركة آنية تنظر إلى تحقيق إنجازات ينعم بها الجيل الحالي فحسب، لكنها حركة أخلاقية، عين لها على الحاضر وأخرى على المستقبل لحفظ حقوق الأجيال القادمة، لذا كانت الاستدامة طابعاً مميزاً وحافظاً لها.

ولا شك أن إنشاء مسرعات حكومية باعتبارها التجربة الأولى عالمياً، وهي معتمدة في القطاع الخاص، يؤكد ثوابت عدة، منها أن العمل الحكومي مهما كان حجمه وثقله وضخامة الجهاز المحرك له إلا أنه قادر على التكيف مع الآليات المساعدة على تطويره والارتقاء بما يقوم به، كذلك هي شكل مهم من الشراكة التي تقود القطاعين الحكومي والخاص إلى مراتب عليا.

كما أن المسرعات في حد ذاتها من أدوات أصحاب الهمم العالية، الذين يرون أن التميز الحقيقي ليس أن تضع أفكاراً عظيمة، ولكن أن تنفذها على درجة عالية من الإتقان، وفي وقت قياسي باستخدام الآليات المعينة على ذلك كافة، إن الوتيرة المتسارعة للعالم من حولنا، في الوقت الذي نريد فيه أن نكون الأول، هي ما يدفعنا دائماً أن نكون سابقين بخطوة بل خطوات.

إن المسرعات الحكومية آليات تحقيق فكر حكومي يأتي في السياق ذاته الذي بدأ بالحكومة الإلكترونية، مروراً بالحكومة الذكية وليس انتهاءً بالمسرعات الحكومية.

ولا شك أن اشتمال مجالات المسرعات الحكومية على كل من المؤشرات الوطنية والسياسات والبرامج والمبادرات والخدمات لتحقيق الأجندة الوطنية عبر تضافر الجهود بين الجهات المحلية والاتحادية، يؤكد أنها إطار وطني جامع، يؤمن بالعمل الجماعي وروح الفريق التي تساعد على تلاقح الأفكار وتكاملها، لجعل طموحات أبناء الوطن واقعاً ملموساً.

إنها حالة من الاستنفار تطلقها قيادتنا الرشيدة، تعلن عن مرحلة جديدة من البناء والتنمية، تؤمن بأهمية الدفع المستمر لطاقة جديدة وقودها عزم الرجال وهدفها الدفع الدائم لخطط التنمية لتحقيق الغاية الكبرى في أن يتحول الحلم إلى واقع.

للتسامح دولة

إن الذي يحض على التسامح بين البشر كمن ينثر عبير الورود بدلاً من رائحة البارود، هو الباحث عن حقيقة الإنسان الذي ولد على فطرة لا تعرف للكره سبيلاً وللتعصب مذهباً وطريقاً، إنه صانع السعادة ومصدر الفرحة يلون دنيا الناس بألوان زاهية مبهجة.

إن التسامح منحة يهبها الله لأصحاب النفوس الطيبة والهمم العالية، الذين يحلقون برؤيتهم ويملكون القدرة على الإلمام بملامح المشهد من كل جوانبه دون أن يغرقوا أنفسهم في تفاصيل صغيرة تشوش فكرهم، إن التسامح منحة وقدرة ومهارة لا يجيدها إلا الواثقون من أنفسهم، العالمون بفقه الحياة وسنن الله في كونه بأننا خلقنا متباينين تبايناً يثري إعمارنا للأرض مختلفين اختلاف تكامل لا اختلاف تناحر وتنابز، إنهم أصحاب النفوس النقية الذين يرون في التعصب والفرقة مصدات تحول دون الانطلاق إلى العلا، إنهم الذين يرون أن التحدي الحقيقي في البناء لا الهدم وأن القوة الحقيقية هي قبول الآخر، وأن الإطار الإنساني هو الجامع لنا «فكلكم لآدم وآدم من تراب»، إن الذين ينشرون

التسامح بين الناس هم القادرون على العفو عمن أساء إليهم، وإعطاء من منع عنهم، وإهداء الآخرين ثمار خير حاولوا هم أن يقتلعوا شجرتها، إنها طاقة فعل كبيرة تدرك حقيقة وجود الإنسان على الأرض وما هو مكلف به من إعمار وبناء.

تدافعت على فكري تلك الخواطر وتملكتني هذه المشاعر حين أعلن صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم عن تأسيس جائزة للتسامح، وتكريم رموزه على مستوى العالم، وإنشاء المعهد الدولي للتسامح، وهي مبادرة نوعية غير مسبوقة شأن كل المبادرات التي يطلقها سموه، هدفها خير الإنسانية أين كانت وكيف كانت، بلا تمييز بين لون أو عرق أو عنوان، الخير كقيمة سامية في ذاته، وعندما ينشر عبير التسامح من الإمارات، فهي بذلك متسقة مع تاريخها، سواء قبل الاتحاد حين كانت الإمارات المتصالحة، وحين أطرها الاتحاد فأصبح «البيت متوحداً»، اتحاد حوله التسامح الذي هو أساسه إلى توحد؛ والتوحد يعني التطابق؛ الذي هو درجة أعلى وأقوى، لذا فإن قيادتنا الرشيدة عند طرحها تعبر عن قناعات سياسية أسست لتجربة فريدة في العالم صار التسامح هو الوجه الآخر لها، وانطلق قطار البناء من أرضها بنوره الذي أبت القيادة إلا أن ينتفع به العالم والإنسانية جمعاء، ومن ينظر إلى كم الجنسيات والأعراق التي تعيش على أرض وطننا الجامع، يجد أن الإمارات هي الوجه الأبرز للتسامح حتى باتت مقصداً للفارين من أتون الكراهية وظلمتها، الراغبين في أن يعامل الإنسان كونه إنساناً، ومقامه يكون بما يقدمه للغير من صنائع الخير والعمل الجاد دون مصدات وعوائق تحول بينه وبين ذلك.

ومن خلال قراءة متأنية لحركة التاريخ ندرك من غير جهد أن التعصب والانغلاق كانا قرينا التخلف والتدهور، وكأن عدم التسامح هو الساتر الذي يحتمي به كل عاجز عن تحقيق الرفاهية لشعبه، فلا يجد بداً من تصدير عجزه لكبش فداء يجد دائماً في الآخر غاية ومقصداً، فيبدأ في نفث سمومه على من

حولـه، كمـا أنـك لا تجـد نمـوذج التسـامح إلا ويصحبـه الرقـي والتقـدم والنمـاء، ذلك أن التسـامح يحتـاج إلى قـوة وثقـة سـواء على المسـتوى الفـردي أو المسـتوى الوطنـي، وهـو شـهادة علـى قـدرة المجتمـع والدولـة علـى الانفتـاح علـى الآخـر علمياً وفكرياً وثقافياً مـن منطلق الوقـوف على أرض ثابتـة وامتلاك رؤيـة واضحـة يعززهـا تاريـخ، وتـراث فكـري واجتماعـي قـادر على التعامـل مـع الآخريـن على مبـدأ المسـاواة ، أخـذاً وعطـاءً، تأثيـراً وتأثـراً، تلـك هـي المعادلـة المعجـزة التـي اسـتطاعت الإمـارات قيـادة وشـعباً صنعهـا، فصـارت المضـرب والمثـل الشـاهد على فعـل التسـامح فـي دنيـا النـاس منـذ المؤسـس الشـيخ زايـد، طيـب اللـه ثـراه، وإخوانـه، مـروراً بمـن تربـوا فـي مدرسـتهم وحملـوا الرايـة مـن بعدهـم.

إن القيـادة الرشـيدة اليـوم وهـي تؤسـس للمعهـد الدولـي للتسـامح تـدل دلالـة قاطعـة على إدراكهـا الكامـل ووعيهـا التـام لجـذور الاضطرابـات التي تقـع في كثير مـن مناطـق العالـم، وأنهـا تمثـل عرضـاً لمـرض التعصـب والكراهيـة والانغـلاق، ومهمـا نجحنـا في إطفـاء سـعارها ولهيبهـا فإنهـا مرشـحة لأن تشـب فـي أي لحظـة مـا دامـت عواملهـا والأسـباب المحفـزة لهـا موجـودة وكامنـة، كذلـك فـإن هـذه الخطـوة الكبيـرة، والتـي تنـم عـن مسـؤولية دوليـة تجـاه الإنسـان فـي أي مـكان، تحـول فكـر التسـامح مـن المرحلـة الأخلاقيـة العاطفيـة التـي يتـم تناولـه مـن حيـن إلـى آخـر حسـب الظـروف الدوليـة، إلـى التأسـيس العلمـي والأكاديمـي الـذي يضمـن الاسـتدامة، والتأصيـل الفكـري الـذي يسـتند إلـى قواعـد ثابتـة، وإطـار جامـع يحفـظ المجتمعـات والأفـراد من الانـزلاق إلـى مسـتنقع التعصـب والكراهيـة التـي تصيـب صاحبهـا بالعمـى عـن رؤيـة جوانـب الاتفـاق التـي تجمعنـا فـي عالـم يسـعنا جميعـاً ولا يـرى غيـر الاختـلاف الـذي يحولـه إلـى خـلاف وبغـض.

إن هـذه المبـادرة الشـجاعة تؤكـد أن الإمـارات ليسـت فقـط دولـة متسـامحة، لكنهـا أسسـت للتسـامح دولـة.

الأجندة الوطنية للشباب

من نافلة القول، أن الشباب هم عماد النهضة والعمود الفقري لها، بأفكارهم تتحقق، وبحركتهم الدائمة المتدفقة تدوم، وبعلمهم يتم المحافظة عليها. ومن نافلة القول كذلك أن الشعوب الفتية اليقظة هي التي تتعاظم فيها شريحة الشباب الفاعل، وأن أخوف ما تخاف الأمم هو أن تتراجع شريحة الشباب في تركيبتها السكانية، وإن كانت متقدمة فذاك مؤشر خطر على مستقبلها القريب.

والحق أن أهمية الشباب تأتي من الأدوار التي يقومون بها، وتلك التي تنتظرهم، فهم القادرون دوماً على تقبل الجديد، ولا مانع من قليل من المجازفات المحسوبة، كما أن فكرهم الغض وحيويتهم تحول بينهم وبين القدرة على عدم التكيف، ثم إنهم أبناء عصرهم، وأفكارهم تنبع غالباً من ضمير نقي لم تلوثه الارتباطات الذاتية بعد، لذا كان التعويل دائماً عليهم، والنظر في عيونهم إلى المستقبل.

والحق كذلك أن شباب الإمارات كانوا دوماً محط أنظار قادتهم، وموضعاً دائماً لثقتهم، ورأسمال اجتماعياً دأبت على الاستثمار فيه عبر التعليم والتدريب، كما أنه الثروة التي لا تنفد بفكرها المتجدد، ولأنها القيمة الحقيقية التي يمكن

التعويل عليها كان الدق المنتظم من القيادة الرشيدة على فتح آفاق رحبة لمشاركتهم في مسيرة الوطن، باعتبارهم حجر الزاوية فيها، ولأن الإمارات عندما تريد أن تكون الرقم واحد فهي تعد العدة لذلك، وأولها تهيئة شبابها والدفع بهم إلى الصفوف الأمامية لتحمل المسؤولية، وهو ما أكد عليه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم بقوله: «إن الشباب هم قوة الأوطان وأملها في بناء غدٍ أفضل، وإن شباب الإمارات هم حاضر دولتنا ومستقبلها المزدهر، فهم مخزون طاقتها، ومصدر ثروتها، وقلبها النابض، بالحيوية والنشاط نحو مزيد من التقدم والرخاء لمجتمعاتنا، وبهمتهم نصنع مستقبلاً مشرقاً، ونحقق أعلى المراتب والمراكز على مستوى العالم».

ومن يتأمل تلك الكلمات يجد أنه رغم ما بها من تشريف غير أنها تنطوي على رؤية تحمل مهام محددة ينتظرها الوطن من شبابه، والأدوار التي يجب أن يقوموا بها، باعتبارهم يمثلون القلب للجسد. وهل للجسد أن يتحرك أو تدب فيه الحيوية دون قلب سليم، وهل له أن ينشط ليضخ دماء الحياة في بقية الأعضاء وهو معتل، تلك هي المكانة وهذه هي المهمة، وأكرم بها حين يكون مركز الحركة بقوته يقوى الوطن، وبحيويته ينشط ويتحرك أبناؤه.

ولقد جاء إطلاق الأجندة الوطنية للشباب معبراً ومتسقاً ومفعلاً لتلك الرؤية، كما أنها في تقديري تأطير للعمل الشبابي بعيداً عن اللغة العاطفية، لكنها إطار عمل واضح يؤكد إرادة سياسية ترى أن للشباب الدور الأساس في مسيرتنا الوطنية، كما أنها تأتي محددة لمراحل الإعداد والتهيئة التي يتطلبها الشباب، والطريق لكي يكون صاحب قوة دفع إيجابية له ولمجتمعه من خلال فتح آفاق رحبة للتعبير عن أنفسهم، وإعطائهم فرصاً متكافئة في صقل مهاراتهم وقدراتهم القيادية.

إن الاهتمام بالشباب يعني التخطيط الحقيقي للمستقبل، وإن الكلام عن المستقبل دون أن يكون الوجه الآخر له قوة الدفع الشبابية هو لا شك غير مكتمل،

لذا فإن نهج حكومتنا الدائم كان الاهتمام بالشباب من خلال إعداد جيل مزود بالعلم، ومكتسب لمهارات عصره، منفتح على العالم، في الوقت الذي يلتزم بثوابته القيمية، ويعتز بتاريخه، يدرك أن سقف الطموح الوطني بلا حدود، وأن له كل الفرص في التعبير عن ذاته من خلال بيئة مهيئة ومحفزة للفكر والإبداع تتيح الفرصة كاملة لتحمل المسؤولية وتساعده على التخطيط لمستقبله.

ولا شك أن نص الأجندة الوطنية للشباب على العديد من المبادرات الحية والفاعلة، مثل تحويل السياسات المؤثرة في الشباب إلى مجلس الإمارات للشباب لإبداء الرأي، ومعرفة انطباعات الشباب عن السياسة عبر مجالس الشباب في كل إمارة، هو شكل مهم وفاعل للمشاركة السياسية من المعنيين، فمن الأهمية بمكان أن يكون الشباب طرفاً فيما يخصهم من سياسات، كما أن ذلك بيان عملي لتحمل مسؤوليتهم الوطنية لكي يكونوا فاعلين ومخططين لمستقبلهم، فضلاً عن ذلك أن هذه المجالس ستكون حلقة الوصل الناقلة لصوت الشباب إلى مجالس الإدارات وصناع القرار في المؤسسات المختلفة، وهو ما يصنع حالة من السيولة ويحول دون الانسداد الفكري بين الشباب ومختلف القطاعات في الدولة، وهو ما من شأنه أن يمثل قوة دافعة لعمل الشباب حين يشعر بأن صوته مسموع ورأيه يعتد به، وهو الأمر الذي اشتملت عليه الأجندة الوطنية من خلال إنشاء مركز وطني للبيانات الشبابية يعنى بجمع البيانات المعنية بالشباب، ويكون داعماً لعملية صناعة القرار من خلال تضمين رأي الشباب في كل الاستطلاعات، فضلاً عن المنصة التفاعلية بين الحكومة والشباب.

إن الأجندة الوطنية للشباب في تقديري تمثل إطاراً جامعاً وخارطة عمل وطني جعلت من الشباب محورها، بدءاً من الإطار الوطني وصولاً إلى برنامج المندوبين الشباب الإماراتيين لدى الأمم المتحدة، أي محلياً وعالمياً، وتلك هي الريادة بحق.

تطوير المدرسة الإماراتية ضــرورة حتميــة

عندما تؤكد القيادة السياسية أن طريق الإمارات إلى أن تكون من أهم خمس دول عالمياً، وعندما تؤكد غير مرة أن السعي لبلوغ القمة أمر لا رجعة فيه، فلا شك أن ذلك الطريق الشاق والوعر يحتاج إلى مؤهلات ومتطلبات، بدايتها لن تكون إلا من الصغر عبر التربية الواعية المحفزة والقادرة على استيعاب واقعها وامتلاك أدوات عصرها، وأولى هذه الأدوات هو تعليمي بالتأكيد. لا أقول يتجاوب مع تحديات العصر لكنه قادر على استشراف المستقبل، وما هي الصورة التي نود أن نرى عليها أبناءنا ووطننا في المستقبل والربط بينهما، يؤكد ذلك أن ما يتعلمه أبناؤنا اليوم هو ما سيطبقونه في الغد، وعلى قدر الغرس يكون الحصاد، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

من هنا كان تأكيد صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، على أننا مهما شيدنا من بناء فإن بناء الإنسان سيظل هو الأبقى، ومهما تعاظمت الاستثمارات سيظل الاستثمار في التعليم هو الأهم باعتباره الأفضل والأجدى، كونه يلامس حاجات الشباب في التعليم وبناء المستقبل القائم على العلم والمعرفة والابتكار

في مجالات عدة، ما ينعكس على مجتمعاتنا ودولنا بالخير والتقدم الاقتصادي والثقافي والعلمي، وغيرها من القطاعات ذات الصلة، لذا كان تأكيد سموه الدائم على أن تطوير التعليم أمر لا خيار لنا فيه، وهو أمر تحتمه طموحاتنا والمكان والمكانة التي نود أن نكون فيها، وأن مدارسنا هي التي تحدد مستقبلنا.

ولقد جاءت ملامح تطوير المدرسة الإماراتية لتعبر عن رؤية للمستقبل الذي نريده ونتمناه، فمن غير المعقول أن نتحدث عن مستقبل دون أن نملك أدواته، أو عن أهداف عظيمة دون أن نعرف الطريق الموصلة إليها، والتعليم هو الطريق، والمتعلم بحق هو أهم صناع ذلك المستقبل، والحق أن تحولاً كبيراً لم يحدث لشعب من الشعوب إلا وكان النظام التعليمي، وإن شئت الدقة المدرسة، في القلب من ذلك التحول أو المهيأة له والحافز الأكبر لإحداثه.

وسوف أذهب أبعد من ذلك عندما أقول إن تطوير التعليم الجامعي يبدأ من تطوير المدرسة الابتدائية وقد يكون قبل ذلك، فالتعليم «عملية»؛ بمعنى أنها متراكمة متراكبة، فاعلة متفاعلة، مؤثرة ومتأثرة، عملية أخذ وعطاء، لا يمكن أن تغرد كل حلقة بمعزل عما قبلها وأن تهيئ لما بعدها، كما أن التطوير في المراحل المتقدمة منها مهما كانت وتيرته لا تكون محصلته كما هي في المراحل الأولى، باعتبار أن البدايات هي المؤسسة لما بعدها، كما أنها تكون الأكثر تأثيراً.

لذا جاءت النظرة إلى المدرسة الإماراتية في المستقبل معبرة عن ذلك كله عبر تشابك بين كل عناصر العملية التعليمية، ولأن التطوير لا يعني الهدم، فقد استفادت الخطة التطويرية بما تم إرساؤه وقامت بالبناء عليه بما يلائم العصر ويحقق الطموح، وبخاصة أن التطوير في التعليم شأنه شأن كل المجالات والميادين التي يجب أن تتم مراجعة مخرجاتها بين الحين والآخر، بل إن الخطورة تأتي من غض الطرف عنه على الرغم من أنه العنصر الفاعل لنجاح كل أشكال التنمية والتطور.

إن التركيز على مهارات الطالب هو الأكثر ديمومة باعتبار أن ما يدرس يمارس، وهو ما يُرسّخ لديه قيمة المعلومة التي يتم تحصيلها ويدفعه إلى البحث عن مصادر المعرفة التي توسع مداركه وتنمي مهاراته، كما أن دراسة الحالة تجعل للتعليم قيمة وظيفية قادرة على حل المشكلات.

وهو ما ينمي لدى الدارس القدرة على التحليل والنقد وطرح الأفكار ليكون دائماً مشاركاً في تشكيل المعلومة دون أن يقوم بدور المتلقي فقط، وهو ما من شأنه أن يخلق جيلاً من المبتكرين والمبدعين، وهو أحد أهم أدوات الوصول إلى الغاية الكبرى وهي دفع قاطرة الوطن إلى القمة دائماً.

لذا كان التركيز على ترسيخ مهارة العمل الجماعي لدى الطالب ركناً أصيلاً من أركان الخطة الجديدة، ذلك أنه الأساس لنهضة الأمم، وأنه لا يمكن لجهد فرد أن يكون الأساس لنجاح كبير، ولا يمكن لهذا النجاح أن يحدث دون التركيز على الفكر النقدي الذي يعمل العقل ويشحذ الذهن وينتج الفكرة ولا ينتظر من يقدمها له، وأن يتم ذلك من خلال استخدام تكنولوجيا الاتصال والمعلومات باعتبارها أقنية عصرية للفكر وأدوات البحث عن المعلومة وتصنيفها وتخزينها واستدعائها.

كما أن تضمين خطة التطوير منهجاً للإرشاد يهدف إلى تطوير الفكر التربوي في مجال الإرشاد المهني والتعليمي والإلكتروني للطلاب، والربط بين عالم المدرسة وعالم الأعمال، ومساعدة الطلاب على اكتشاف قدراتهم ومهاراتهم وإمكاناتهم وميولهم العلمية والمهنية، من شأنه أن يساعد على بناء شخصية الطالب القادر على اكتشاف ذاته والتميز في اختيار القرار وليس تلقينه المعلومة فحسب، وهذا هو بيت القصيد.

مدارسنا تصنع مستقبلنا

إذا أردت أن تعرف حاضر شعب، عليك أن تنظر إلى قدرة أبنائه على الإبداع والابتكار، وإذا أردت أن تستشرف مستقبله، عليك أن تنظر إلى ما يتعلمه أطفاله، بدءاً من الروضة، مروراً بمراحل التعليم الأولى ثم المتوسطة، ذلك أن ما يتلقاه الفرد في سنواته الأولى، هي الأبقى والأدوم والأكثر تأثيراً، وإذا شئت، فإن لها دوراً مؤثراً في تحديد خياراته المستقبلية، التي لا تستطيع الجامعة وحدها القيام بالدور الأعظم فيها.

ومع بداية كل عام، نتطلع دائماً، آباء ومعنيين ومهتمين وممارسين لمهنة التعليم، إلى تحقيق نجاحات جديدة، مستفيدين من ذلك الدعم غير المحدود من قيادة تدرك أهمية التعليم، وتملك إرادة الفعل، باعتباره الاستثمار الأدوم والثروة الأبقى، والقيمة المضافة لوطننا المعطاء، وباعتباره سفينة النجاة من كافة العواصف والخطوب، وهو ما يدفعنا دائماً إلى أن ندق دقاً منتظماً على ذات الأوتار.

ذلك أن التعليم سيظل هو المشروع الأكبر لنهضة الشعوب، وبخاصة، أنك لو تأملت قليلاً حالة الشعوب التي استطاعت أن تخطو خطوات تنموية كبيرة،

لـن تجـد لهـا ميزة إنتاجيـة فـي سـلعة محـددة، بقـدر تميزهـا بعقـول أبنائهـا وقدراتهـم العلميـة والتعليميـة.

ولأن الأمـر علـى هـذا النحـو، فـإن إطـلاق مصطلـح العمليـة علـى التعليـم، يعنـي أنهـا تمثـل شـكلاً مـن أشـكال التفاعـل بيـن أكثـر مـن عنصـر، أخـذاً وعطـاء، بمـا يعنـي أن تراجـع أحدهـا يؤثـر فـي الآخـر، بـدءاً مـن الطالـب، وليـس انتهـاء بالمعلـم.

إن المعلـم يقـع فـي القلـب مـن العمليـة التعليميـة، لأنـه مقـدم المـادة والموجـه، وهـو القـادر علـى أن يسـتنفر مـن المتعلـم أهـم مـا لديـه، وهـو المكتشـف لمواهبـه والمحفـز لقدراتـه، وهـو حلقـة الوصـل بيـن المضمـون وبيـن المتعلـم، مـن هنـا، كانـت كفـاءة المعلـم حجـر أسـاس فـي إنجـاح باقـي العناصـر، وبخاصـة أن دوره فـي المراحـل الأولـى يتعاظـم عنـه فـي غيرهـا، وإذا افتقـد كفـاءة علميـة ومهـارة اتصاليـة، فإنـه لـن يكـون تطويـر المنهـاج وتحديـث المعامـل والمختبـرات واسـتخدام أحـدث تكنولوجيـات التعليـم ذا جـدوى أو نفـع، بـل إن كفـاءة المعلـم ذاتهـا، قـد تجبـر أي خلـل، أو تعـوض نقصـاً مـا فـي باقـي العناصـر.

مـن ناحيـة أخـرى، إن ثقافـة المعلـم الموسـوعية وإلمامـه بمفـردات عصـره، سـتمكنه مـن المزاوجـة بيـن مـا يقدمـه مـن معلومـة، وبيـن شـواهد بيئيـة داعمـة لهـا، قـادرة علـى الاسـتفادة الوظيفيـة مـن المـادة المقدمـة.

وهـو مـا يُرسّـخ لـدى المتعلـم، القـدرة علـى الرصـد والتحليـل والنقـد، وهـو مـا يجعلـه فـي حالـة اسـتنفار فكـري مسـتمر، ويحـول الوجبـة الدراسـية مـن تلقـي المعلومـة إلـى الاسـتمتاع والاسـتفادة بهـا فـي فهـم الظواهـر مـن حولـه، وهـو مـا ينمـي لـدى الـدارس ملكـة التأمـل.

إن مـن أهـم وظائـف العمليـة التعليميـة، هـو بنـاء جيـل مـن المبتكريـن، وهـو ليـس بالأمـر المسـتحيل، وبخاصـة أن التفكيـر الابتـكاري يجـب أن يبـدأ مـن المراحـل المبكـرة،

وهي قدرات يمكن للفرد أن يتعلمها من خلال التركيز على دراسات الحالة وحل المشكلات وتنمية ملكة البحث عن المعلومات دون تلقيها بشكل مباشر.

وهو ما يرسخ لديه ملكة المثابرة والإصرار، وهي أداة رئيسة من أدوات التعلم والتميز، وهو ما يجعلنا نذهب إلى أهمية ترسيخ القراءة، واعتبارها منشطاً أساساً، والعودة إليها ليس باعتبارها زاداً ثقافياً فحسب، ولكن باعتبارها جزءاً مكملاً لما يتم تدريسه.

بحيث لا يكون الكتاب المدرسي جامعاً مانعاً لمحاولة السعي لمزيد من المعلومات، ولا شك أن رعاية الدولة للكتاب، والدفع المستمر للتشجيع على القراءة، يجب أن تكون مؤسساتنا التعليمية والمدارس في مقدمها حاضنة له، حتى تكون نمط تعلم ثابتاً ودائماً، فضلاً عن أهمية ربط المكتبات المدرسية إلكترونياً بالمكتبات العامة والمكتبات العالمية.

كذلك من الأهمية بمكان، أن يتيح النظام التعليمي لكل دارس، أن يكتشف مهاراته، وأن يعبر عن نفسه، وهذا لن يتأتى إلا من خلال المناشط غير الصفية، أو جعل النشاط الصفي منصباً بصورة أكبر على إكساب المهارة، وهنا، يقوم المعلم بدور المدرب. إن اكتساب المهارة، هو الطريق إلى الاستفادة من المعلومة، وهو السبيل إلى أن يعرف المعلم قدرات وإمكانات الدراسين، وهناك الكثير من الأساليب التي يمكن اتباعها بعيداً عن القاعات الدراسية المغلقة.

ولا شك أن ذلك كله لا بد أن يدور في إطار من القيم الإيجابية، التي يعرف معها الدارس أهمية الدور الذي يقوم به، وكيف يمكن توظيف المعلومة والمهارة، في عصر تعددت فيه مصادر التعلم وباتت بغثها وسمينها متاحة، وتشابكت العملية التعليمية مع تكنولوجيا الاتصال، يجب أن يتم تنمية مهارة الانتقاء والتمييز لدى الدارس، وأن تكون قيمه هي القاعدة التي يستند إليها في

الاختيار، فلا فائدة أو قيمة لعلم يدور بعيداً عن الإطار الأخلاقي، وإلا قد يفضي بنا إلى نوع من العبث.

إن أهمية التعليم في مراحله الأولى، ترجع إلى أن البدايات الطيبة هي التي تحقق النهايات السعيدة، ولأن الأجيال الغضة هي التي ستتحمل المسؤولية فيما بعد، لذا، فإن مدارسنا تصنع مستقبلنا.

الابتكـار فـي العمـل الحكومي مساق يدرس

«إن المسـتقبل سـيكون لأصحـاب الأفـكار»، بهـذه الكلمـات وضـع صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد الملامـح الأساسـية لمسـتقبل الشـعوب التـي تـود أن يكـون لهـا مـكان ومكانـة فـي عالـم لـن يفتـح أبوابـه إلا بكلمـة سـر وهـي الابتـكار، فضـلاً عـن بصمـة فكريـة غيـر مسـبوقة ليدخـل عالمـاً مـن المنافسـة لـن يكـون فيـه لأصحـاب الأفـكار التقليديـة مـكان.

ذلـك أن العالـم الـذي نحيـاه أصبـح لـه قواعـده الخاصـة التـي تتطلـب منـا أن نسـهم فيهـا ونوجههـا لتحقيـق أهدافنـا وإلا كنـا خـارج العصـر، ومـن يقنـع بمـا حققـه مـن نجاحـات فـإن فجـوة المعرفـة والفكـر وسـبر غـور العصـر وحقيقـة معرفتـه ستتسـع لا محالـة بينـه وبيـن الشـعوب، فـي ظـل حالـة مـن الغـزارة الفكريـة والتسـارع التكنولوجـي لا يمكـن السـيطرة عليهـا.

مـن هنـا كان الدخـول إلـى حلبـة المنافسـة، لا أقـول ضـرورة، لكنـه خيـار حتمـي لا بديـل سـواه، غيـر أنـه مـن الأهميـة بمـكان أن نعـرف قواعـد المنافسـة وإلا فسـوف تكـون الحركـة فـي المـكان ذاتـه كمـا الحجـل، مـن هنـا كانـت أهميـة مـا حـدده

صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، من أن الفكر الابتكاري هو رأس الحربة وهو مفتاح العصر الذي يسمح لك أن تلجه من أوسع الأبواب.

ولأن الابتكار يلزمه أصحاب همم عالية لا يرتضون ولا يقنعون بما قد يلبي طموح غيرهم، لكنهم يملكون القدرة على أن يروا في المشهد المتاح تفاصيل وفرصاً للنجاح قد لا يراها غيرهم، كما أنهم ينطلقون بفكرهم خارج المألوف وبعيداً عن الأطر المحددة، وحتى يشيع ذلك ويصبح ثقافة عامة وسلوكاً يومياً يمارسه الفرد في شؤونه الخاصة، وفي تعاملاته، ويمارسه العاملون في المؤسسات الحكومية ومن يلتحق بركبهم كان لابد من تأطيره ووضع آليات تحافظ على ديمومته في شكل مؤسسي يخرج به عن الإلهامات الفردية رغم أهميتها فضلاً عن خلق أجيال تتبناه وتمارسه باعتباره نشاطاً مألوفاً.

من هنا كانت إتاحة مساق الابتكار في العمل الحكومي، والمقدم من قِبل مركز محمد بن راشد للابتكار الحكومي، والذي يوفّر منهجيات عالمية وأدواتٍ عملية لتمكين ولترسيخ ثقافة الابتكار في القطاع الحكومي، وتعزيز آليات تحليل وسن سياسات عامة مبتكرة تلائم تحديات القرن الواحد والعشرين التي تواجه الحكومات..

كما يعرض منهجية الابتكار في العمل الحكومي التي تم اعتمادها في دولة الإمارات العربية المتحدة، فضلاً عن دراسات حالة من حكومات رائدة حول العالم من بينها سنغافورة والمملكة المتحدة والولايات المتحدة وكندا والإمارات العربية المتحدة.

ذلك أن القدرة على الابتكار، رغم ما تحتاج إليه من استعداد ومؤهلات خاصة، غير أنه وفقاً للدراسات العلمية، هي في معظمها جهد يبذل في بيئة مواتية وإرادة سياسية دافعة له وراغبة في التأسيس له باعتباره أسلوب حياة،

قيادة ترى أن ثروة الأمم في أبنائها، وقدراتهم تأتي مما يقدمونه من فكر وإبداع وهو السبيل الأوحد إلى بناء الحضارات وصناعة الإنجازات..

وإذا كان العلم يأتي بالتعلم فلا شك أن الابتكار وثقافته تأتي هي كذلك بالمداومة عليه، والعكوف على معرفة أساليب وأدواتٍ مُبتكرة من شأنها إلهام المتعلمين بالأفكار الثاقبة وإيجاد الحلول للتحديات التي تواجهها الجهات الحكومية والدوائر الرسمية والخاصة، وهو ما حرص عليه المركز حين أتاح الالتحاق بدراسة هذا المساق للناس كافة من مختلف القطاعات والدول، ذلك أن الإمارات كانت دوماً تحمل رسالة بناء وسلام في منطقتها والعالم من حولها.

إن الهدير التكنولوجي، الذي نعيشه بما أتاحه للفرد من اطلاع آني وسريع على ما يحيط به ووعيه بالعالم من حوله، يمثل حالة من الضغط على متخذ القرار في المؤسسات الحكومية، تتطلب منه الخروج برؤى جديدة قد تبعد عن الخيارات المتاحة للتعامل مع المستجدات، ووضع الخطط لاستيعاب الأحداث المتوقعة بعيداً عن سياسة رد الفعل أو إطفاء الحرائق.

وإذا كان المركز قد جعل للابتكار الحكومي مساقاً يدرس فإن هذه التجربة يجب يتم استنساخها في كل الميادين، ولا تقتصر على النشاط الحكومي أو المؤسسات الرسمية، وبخاصة في الجامعات والمراكز البحثية باعتبارها بيوتاً للخبرة قادرة على المساهمة بفاعلية لتخريج أجيال من المبتكرين في مختلف التخصصات، وآية ذلك أن جامعة عجمان قد أخذت خطوة مهمة في الاتجاه ذاته حين أنشأت هذا العام مركز جامعة عجمان للابتكار، يهدف إلى بناء أُسس ثابتة تدعم مناهج التفكير الابتكاري، وتعزيز المقاربات الإبداعية التي تتبناها الدولة في سبيل تحسين مستوى ونمط حياة سكانها إلى أقصى مدى ممكن.

كما أن تلك الخطوة تأتي لترسيخ ثقافة الابتكار في بيئة العمل المؤسسي، ورفع مستويات الوعي لثقافة الابتكار للطلبة وتسويق مشاريعهم باعتبار الابتكار مفتاح التفوق، والمستقبل لن يكون لمن يملك المقدرات والثروات المادية فحسب، بل لمن يملك قدرات وثروات فكرية مبدعة قادرة على الحفاظ على مقدراتها وتنميتها، باعتبار أن الفكرة ثروة لا تنفد بل هي مصدر الثروات.

رهين الصدمتين

لن أدعي أنني تابعت ما عرض على الشاشات في رمضان، فذاك أمر فوق الطاقة، في ظل هذا الهدير الشديد من المسلسلات والبرامج التي يزاحم بعضها بعضاً، وتضع المشاهد في حيرة، يلجأ معها إلى استخدام ما أمدتنا به التكنولوجيا الحديثة للمشاهدة، وما يطلق عليه الإعلام الجديد، الذي يتيح لك قدراً من المتابعة بين حين وآخر، وحتماً ستتوقف عند بعضها، إما مبهوراً وإما مصدوماً، وهو ما حدث معي خلال متابعة نوعين من البرامج، أولهما أصابني بصدمة بمعناها الحقيقي، ذلك البرنامج الذي يلعب صاحبه بالنار، واختار له الاسم «رامز يلعب بالنار»، تلك النار التي تطاير لهيبها حتى أصاب بيوت المشاهدين، حين يطل عليهم كل مساء، ورغم أن البرنامج يدخل ضمن البرامج الترفيهية التي تهدف إلى تسلية المشاهد والتسرية عنه، باعتباره «كاميرا خفية»، إلا أنه في تقديري، يعتبر من أكثرها فجاجة وسطحية، ولم تثر الضحك أو الاستغراب، بقدر ما أثارت الاستهجان والتساؤلات حول الهدف من هذه النوعية من البرامج التي جعلت من ضيف البرنامج مادة لسخرية مقدمه، من وزنه أو ملبسه أو طريقة مشيته أو تسريحة شعره أو أسلوبه في الحديث، أو حتى جلسته للحوار،

رغم أن ذلك لا يمكن أن يسعد المشاهد، لأن كل فرد من الجمهور يضع نفسه دائماً مكان الضيف.

إنني أفهم أن برامج الكاميرا الخفية التي نشاهدها في العالم كله، هدفها رسم الابتسامة على الشفاه، دون تعريض المشتركين وحياتهم للخطر، وهو ما يحدث في البرنامج، كذلك، فإن تكرار نفس الفكرة على مدار شهر بنفس الأسلوب، وبنفس الشتائم التي يصبها المقدم على ضيوفه، فإنها تصيب المشاهد بالملل، بعد حلقة أو اثنتين، هذا رغم الإنتاج السخي، والذي كان يمكن استثماره في نوعية أرقى وألطف من تلك التي كانت تصيبنا بنوبات من الضحك الجميل الراقي، البعيد عن الإسفاف والابتذال والخوف من انتقال عدوى السلوك إلى أبنائنا عند محاولة تقليد البرنامج، وهو ما حدث بالفعل، حين حاول طفلان تقليد البرنامج، فكانت النتيجة أن أصيبا بحروق أودعتهما المستشفى.

ذلك لأن البرامج لا تقدم مضامين فحسب، لكنها تصدر سلوكاً، إما أن يكون مثل الذي يلعب بالنار، فتصيب من يشاهدها بشررها، أو تكون من نوع آخر، مثل الذي قدمه برنامج «الصدمة»، وهو كذلك من برامج الكاميرا الخفية، لكنه كشف المستور عن كل من يرى أن الكاميرا الخفية لا بد أن تعتمد على إرهاب الضيف وبث الرعب في نفسه، وأن تقديم قيمة برامجية يقبل عليها المشاهد وأسرته، ليست قرينة للقوالب الجامدة والمواقف المملة.

والحق أن برنامج «الصدمة»، والتي كانت الإمارات واحدة من ثلاث دول أو أربع دول صور فيها، أكد مجموعة من القيم الموجودة في مجتمعاتنا، مثل بر الوالدين ورعايتهما عند الكبر، الرحمة بالأطفال وعدم استغلالهم، احترام المرأة، المعاملة الحسنة للخدم، عدم استغلال حاجة الغير أو السخرية منه، التربية السوية للأطفال، حسن الخلق مع من يقدم إلينا خدمة، وغير ذلك،

الكثير من القيم التي يسعد كل منا أن يشاهد مادة برامجية تدعو إلى ترسيخها والحفاظ عليها، ويسعد أكثر، حين قدمت بشكل جاذب يشد انتباه أبنائنا ويدفعهم لمشاهدتها.

والذي يستحق الكثير من التوقف أمام برنامج «الصدمة»، أنه كشف أن القيم الأصيلة، من تراحم وتعاون على الخير والنفور من العنف وحب الخير ومعاونة الغير، متجذرة في ضمير شعوبنا العربية، مهما اختلفت الأوطان، وأن شبابنا الذين ادعى البعض أن العصرية والعولمة والحداثة وما بعد الحداثة، قد جعلت بينهم وبين قيمنا الأصيلة حاجزاً وحاجباً، في عصر موغل في المادية والبحث عن النفع الذاتي، كل هذه الادعاءات، تساقطت، حين يكون اتخاذ الموقف والتدخل من شباب في غالبهم، فضلاً عن أنهم ليسوا أصحاب شأن بما يحدث، غير أنهم رأوا خطأ ولم يقدروا على السكوت عنه، ومن لم يتدخل بشكل مباشر عبر عن رفضه بالانسحاب، ورغم أن البرنامج تم تصويره في أربع دول هي الإمارات، والسعودية، والعراق، ومصر، إلا أن ردود الأفعال كانت واحدة في رفض الخطأ، وهو ما يؤكد أن قيم أمتنا العربية ما زالت سياجاً حافظاً لشبابنا، يحتاج دائماً إلى من يكشف عن ذخره وقيمته.

لذلك، فإن الصدمة الأولى من برامج ما زالت تستخف بعقل المشاهد، وتجعله يتأفف تبرماً وضيقاً من حالها، قد خفف من وطأتها، الصدمة الأخرى من برنامج «الصدمة»، الذي أعتقد أنه أحرج الكثير من منتجي البرامج، وأعلن إفلاسهم وضحالة أفكارهم، والفرق كبير بين صدمة وصدمة، وبينهما جمهور.

معاً في البناء والانتماء

عندما يكون وطنك مقصداً لكل طامح إلى أن يحقق حلمه سواء في حياة كريمة، أو أن يعيش في بيئة مواتية للإبداع قادرة على استثارته، بعيداً عن كد العيش وقسوة الحاجة، فتلك نعمة كبرى، وعندما يكون أبناء وطنك جبلوا على التسامح حين اتخذت القيادة منه مقصداً ومنهاج حياة لا يشعر معه المقيم على أرضه بتمييز قائم على الجنس أو العرق أو الدين، فتلك دلالة على صحة الجسد الاجتماعي وسلامته التي تفتقدها أكبر الأمم وأكثرها حضارة ورفاهاً، وعندما يكون وطنك عاصمة للعطاء الإنساني فتلك قيمة إنسانية كبرى عزّت في كثير من بقاع الأرض، وعندما تكون آمناً على حياتك ومن حولك، فهذه لعمري قبل وبعد كل النعم وهل بعد نعمة الأمن نعمة.

تلك حال الإمارات البهية الندية، حلم الحالمين ومقصد الآملين، وتلك حال من على أرضها من مواطنيها أو ممن أقاموا بينهم سعياً لطلب العيش وتلك سنة من سنن الله أمر بها عباده، غير أن المعادلة العبقرية التي حدثت، هو أنهم وقعوا أسرى هوى الإمارات، فتحول الحال من الرغبة في كسب المال

إلى الرغبة في الحياة، فالإنسان بفطرته أسير المعروف، وما يجده المقيم على أرض الإمارات جعلنا نتوقف أمام مخزون من المحبة والعرفان والتقدير والود وكل معاني الأسرة في هذا الوطن المعطاء، فكان الشعور بأنه الجامع لأبنائه والمقيمين، فكانت المحبة الحقيقية التي لا يمكن أن نحول بينهم وبينها، ولم يشذ عن ذلك إلا من فسدت فطرته.

لذا كانت المبادرة الوطنية التي أطلقها الفريق سمو الشيخ سيف بن زايد آل نهيان، نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الداخلية، بتنظيم من برنامج خليفة لتمكين الطلاب «أقدر»، تحت عنوان «عبّر عن حبك للإمارات»، والتي تهدف إلى إبراز المحبة والتقدير لدولة الإمارات العربية المتحدة قيادةً وشعباً، لتكون ملتقى لمشاعر حب المواطنين والمقيمين ووفائهم لأرض العطاء.

هذه المبادرة النبيلة التي تشكل فرصة للجميع للتعبير عن حبهم وولائهم للإمارات وقيادتها وشعبها، هي بلا شك حالة قائمة لا يمكن أن نصادرها أو نحرم أصحابها من التعبير عنها، هي حالة شاخصة يعبر عنها الفعل قبل القول حين نتنقل بين بلدان العالم شرقه وغربه، وما إن يذكر اسم الإمارات إلا وتثار الشجون المعبرة عن حب حقيقي ووفاء كبير وانتماء لا يقل عن انتماء أصحابه للوطن الأم، ولن أذهب أبعد من ذلك، فالوطن لا يعني مكان الميلاد فحسب، لكن الوطن يعني أنك آمن على نفسك ومن حولك، وأن هناك من يهمه شأنك ويستمع لحاجتك دون حاجز أو حاجب، الوطن كما الأم الرؤوم التي ترعى أولادها بحب وحنان، الوطن يعني أن لك حقوقك غير مغتصبة وأن الناس أمام ميزان العدل سواء لا تمييز على أساس اللون أو الدين أو العرق، هنا تتحقق المواطنة في معانيها الحقيقية ولا تحتاج إلى أوراق ثبوتية لتأكيدها.

وفي تقديري أن هذه المبادرة الإنسانية الكريمة هي في ذاتها من أبواب

الإنصاف والتسامح على أرض الإمارات، والتي تتيح فيها القيادة للمقيم التعبير عن محبته للإمارات كما المواطن، وهو جانب نفسي مهم فلا ينبغي أن نصادر مشاعر وحالة قائمة، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، هاتفني صديق وهو الأستاذ الذي يعمل بجامعة مرموقة يعد الالتحاق بها أمنية للكثيرين في بلد لها حظ من الرفاه الاقتصادي راغباً في العودة للعمل بالإمارات، فقلت له: لكن ما أنت فيه وضع متميز، قال: نعم، لكن أولادي وأسرتي منذ أن غادروا الإمارات، وكأن أرواحهم قد تبدلت وكأن جزءاً منهم قد اقتطع، واسترسل قائلاً: أنت تعلم أني ولله الحمد قد أنعم الله علي بفضله ولا أسعى لمزيد من المال، لكنها أسرتي وأولادي.

هذا غيض من فيض ما يمر بنا كل يوم، وهذه الحال يجب أن تستوقفنا، كيف أسرت الإمارات من على أرضها حتى أصبحت الإقامة على أرضها هوى في النفس، وأمنية العودة لمن غادرها تظل شاخصة رغم وفرة العيش ورغده. إنها عبقرية المكان المتسامح التي يود الكثيرون أن يعبروا عنها دون أن يشكك أحد في صدق مشاعرهم. وفي تقديري أنها الفرصة المواتية لكل منا أن يغزل ثوب المحبة للإمارات، تلك المحبة التي سنكتشف في ثنايا الخطوط والتفاصيل قصصاً ومواقف تؤكد كم أنت عظيم يا وطني، بعد أن ألقيت بشباك عطائك في دنيا الناس، فأسرت العقول والقلوب التي لا يجب أن نحول بينها وبين الإفصاح عن مكنونها الزاخر بحبك، فكما كنا دوماً معاً في البناء فنحن كذلك في الانتماء.

نفحات رمضانية

أقبل علينا رمضان وأقبلنا عليه، تغمرنا لهفة وفرحة، لهفة العطشى إلى نبع الماء يروي الظمأى ويعيد إلى نفوسهم الحياة، وهل تموت النفس؟ نعم وإن كان الجسد يحمل علامات الحياة، بل إن أقسى أشكال الحياة وأتعسها عندما تموت النفس ويحيا البدن.

جاء رمضان تشدنا إليه لهفة الذي أحرقه لهيب القيظ في يوم صائف يبحث عن ظل يحتمي به، بعد أن أتعبه السير وأرهقه طول السفر وقلة الزاد، ولـمَ لا، وهل تصفد الشياطين وينادي المنادي يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أدبر إلا في رمضان.

جاء رمضان مجيء الحبيب، الذي يأتي على شوق إلى لقياه، فتدب في النفس الحياة وفي الجسد الهمة، وتتملكنا قدرات نفسية لم تكن قبل رمضان، فنسموا فوق كل ما من شأنه أن يحجبنا عن لحظة الصفاء التي أودعها الله في هذا الشهر الكريم. ألم يفضله الله على باقي شهور العام وخصه بنزول القرآن على الصادق الأمين، كما كانت فيه أول ضربات لأصحاب الحق في غزوة

بدر، التي كانت إعلاناً عن مرحلة جديدة في تاريخ البشرية، فرق الله فيها بين الحق والباطل.

أقبل رمضان ونحن إليه في حاجة من تعثرت به راحلته في طريق موحش حتى أيقن أنه هالك لا محالة، فإذا بيد حانية تأخذ به وتشد من أزره وتقيم أوده وتمده بالقوة والزاد والعتاد ليكمل الرحلة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فلا أوحش الله منك يا شهر الصيام! تلك العبادة التي خصها الله بأن نسبها إلى نفسه حين قال على لسان رسوله: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به».

عجيب أمر هذا الشهر حين ترق فيه النفس بمجرد أن تتنسم أريجه فتعلو فوق كل الأحقاد وتصفو من كل ما يكدرها أو يحول بينها وبين التعرض لنفحاته، التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، فتعرضوا لها لعل أحدكم أن يصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبداً»، فتصفح عمن ظلمها وتسامح من أساء إليها وتعطي من حرمها وتترفع عن النقائص وتبذل بذل من لا يخشى الفقر بطيب خاطر دون مَنٍّ أو انتظار جزاء إلا من رب السموات والأرض، مصداقاً لقوله سبحانه في سورة الإنسان «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً».

إنه شهر الخير الذي يضاعف الله فيه الأجر، وفي كل ليلة له فيها عتائق من النار حتى تجيء الليلة الموعودة التي من حرم خيرها فقد حرم، إنها ليلة القدر التي تفوق في خيرها ألف شهر من القيام والعبادة. إنه رمضان ذلك الشهر الذي يعاد فيه تشكيل النفس وتتزود بزاد العام ليظل إيمانها يقظاً نشطاً قادراً على مواصلة السير في دروب الحياة دون نقصان، أوَلم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الإيمان يزيد وينقص»، فحال الإنسان دائم التقلب، ورحاه

تدور بين علو الهمة والركون إلى الحياة التي هي دنيا، فيأتي رمضان ببركاته ونفحاته ليمسح بيده الحانية على القلوب فترق لمن حولها وتحنو عليهم، وتتسع دائرة النظر بعيداً عن الذات لتشمل آخرين وكأنهم لم يكونوا حولنا قبل رمضان، وتخف الخطى إلى المساجد وتبسط اليد لفعل الخيرات وتبحث عن دروبه ساعية إليه وهي التي كانت شحيحة مقبوضة وكأن روح رمضان دبت في النفس فتبدلت من نفس أمارة بالسوء إلى نفس تحث صاحبها على الخير وتدفع به إلى دروبه.

لنأخذ من فيض نور رمضان هدى يضيء الدرب، ولنستلهم من وحي رمضان أخلاقاً تهذب نفوسنا، ليكن حالنا في رمضان هو حالنا في غيره، وليجدد فيه كل منا العهد أن يكون فيه الإخلاص للوطن والدفاع عن حياضه غاية والحرص على مصالحه أسبق من الحرص على النفس والمال، ما أحوجنا أن يستلهم المعلم من رمضان رسالة نشر النور والخير والتسامح في نفوس طلابه، وأن يعلم أنه ببناء طلابه على العلم والخلق القويم فإنه يحدد مستقبل وطن بأكمله.

وأن تستلهم الأسرة منه لم الشمل حين تحين ساعة الإفطار، فتجتمع في وقت واحد على مائدة واحدة يتفقد فيها الحاضر الغائب فيعم الدفء بين أبناء الأسرة بعد أن عز بين مشاغل الحياة. ما أحوج أصحاب الكلمة في إعلامنا العربي إلى أن يستلهموا من رمضان روحاً تنعكس فيما يسطرونه فتكون كلماتهم بلسماً شافياً من كل داء، لا سماً زعافاً ينشر الحقد والكراهية. ما أحوجنا جميعاً إلى أن نستلهم من رمضان روحاً تجعلنا نعلم جميعاً أننا أبناء أب واحد وأم واحدة فكلنا لآدم وآدم من تراب. ما أحوجنا إلى أن نتعرض لنفحات رمضان مرددين حبيب جاء على فاقة.

بالعلم نرتقي

العلم هو حجر الأساس لكل نهضة، ومن دونه تكون حركة الشعوب عشوائية لا ضابط ينظمها، ولا بوصلة صحيحة تحدد حركتها، ولا أساس قوياً ترتكن إليه، كما أنه من الصعوبة بمكان تقييم ما يتم وتوجيهه، ذلك أن المقابل للعلم الجهل والتخبط والعشوائية والارتجال، وكلها حالات لا تقيم حضارة بل تهدمها، ولا تصنع تقدماً لكنها تهدر الوقت والجهد والمقدرات، كمن يتحرك في ذات المكان إن لم يكن إلى الخلف.

من هنا، كانت أهمية العلم في حياتنا باعتباره قيمة كبرى لا تنضب ولا يخشى عليها من النفاد، كما أنها طاقة متجددة مع كل فكرة جديدة تشع نوراً وهداية لصاحبها، وأجيال من بعده تستفيد من فيضها، وقد يبني عليها آخرون فكراً جديداً فتحيا الفكرة في قلب فكرة جديدة، ألم يقم اختراع التصوير السينمائي على خيال الظل والتصوير الضوئي؟

وفي عصرنا لم تعد قوة الشعوب تقاس بعدد سكانها بقدر قدراتهم وخصائصهم النوعية، وقدرتهم على إنتاج الفكر المبدع والابتكار العلمي،

وهنا كما قال الحكماء: «من بين الناس رجل بألف»، ذلك الذي استطاع أن يقدم فكرة مبتكرة غيرت وجه الحياة للناس من حوله فخلد ذكره وبقيت آثاره لأجيال وأجيال من بعده، تلك هي القيم الحقيقية لحياة الإنسان.

وتلك هي القوة الدائمة للشعوب والضمانة الحقيقية لبقائها والداعم لقوتها، حتى وإن كانت لا تنعم بمقدرات طبيعية، غير أن القوة الفكرية لأبنائها قادرة على الحفاظ على المكانة والمكان، والتجربة اليابانية والكورية ليست عنا ببعيدة.

ولأن قيادتنا الرشيدة جعلت من الاستثمار في الإنسان أولوية قصوى، ورفاهية الفرد وإسعاده غاية، فإنها أدركت منذ وقت مبكر أن العلم هو الخيار الحقيقي والأوحد للتقدم والحفاظ على مكتسبات الوطن، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، ومنها ما أكده صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، خلال تكريم سموه للعلماء الإماراتيين من الشباب المتميزين، في الحفل الذي أقامته مؤسسة الإمارات لمسابقة «بالعلوم نفكر»، حين قال: «إن مسؤوليتنا هي إعداد أجيالنا لزمان غير زماننا، وطموحاتنا بأن يكون لدينا علماء يسهمون في تقدم البشرية».

ولا شك أن الدعم الدائم من القيادة الرشيدة لأفكار الشباب والدفع بها لتخرج إلى النور وتصبح واقعاً، هي من أهم عوامل استنفار ما لديهم من طاقات، حتى إن بدت أفكاراً في البدايات، غير أن تطويرها والبناء عليها أمر مهم، وهل تعدى البث الإذاعي في بدايته أكثر من مائة ياردة، ثم اليوم تدور الكلمة المسموعة الكرة الأرضية في ثوان معدودات تصحبها الصورة.

إن الدفع بالشباب إلى الصفوف المتقدمة وتحميلهم المسؤولية هو الضمانة لتتابع الأجيال عبر إعداد الصف الثاني والثالث من القيادات، لذا كان خطاب صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد إلى العلماء الشباب، باعتبارهم قادة المستقبل الذين سيقودون دولة الإمارات العربية المتحدة إلى التقدم، لكي

تصبح واحدة من أكثر دول العالم ابتكاراً، هو إعلان وتكليف للشباب، بأنه حان الوقت للقيام بدورهم في تحمل مسؤوليتهم في خدمة وطنهم.

إن برنامج «بالعلوم نفكر» يفتح آفاقاً جديدة للشباب لتعزيز قدراتهم البحثية والابتكارية، والتي لا شك تعبر عن أفكار تعبر عن جيل الشباب ذاته، وبالتالي بأيديهم تتحقق أفكارهم، وهو الدافع الأكبر ليحافظوا عليها ويستفيدوا منها.

ولاشك أن هؤلاء الشباب يمثلون قدوة لغيرهم ولنظرائهم، لأن جانباً كبيراً من السلوكيات تتم بالعدوى، فإن وجودهم سيمثل طاقة من التميز تضم إليها كل يوم أعضاء جدداً لتعم ثقافة الابتكار عبر حلقات متصلة وتتواصل الأجيال مع بعضها بعضاً.

ولاشك أن فتح أبواب ومجالات للأفكار البناءة يغلق عشرات الأبواب من الأفكار الهدامة، كما أن إتاحة فرص العمل الخير المثابر النافع يقطع الطريق على كل عمل شر وفتنة، هنا تتعاظم الطاقات وتعم الفائدة التي لن يقتصر خيرها على الإمارات فحسب، بل هي كما أكد صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد في حديثة إلى الشباب، للعالم أجمع، لتظل الإمارات كما هي دائماً عاصمة للعطاء الإنساني والابتكار.

إن القيادة التي وفرت الحياة الكريمة لأبنائها أتاحت لهم بذلك الفرصة للفكر والإبداع، ومن الأهمية بمكان إشاعة ثقافة الابتكار بين أبناء الوطن عبر مختلف وسائل الإعلام، وتكون برامج المخترع الصغير ضمن البرامج المقدمة للأطفال، كما يجب إلقاء الضوء على أفكارهم.

ويجب على مؤسسات القطاع الخاص أن تتبنى أفكارهم وتدعمها باعتبارهم طرفاً مستفيداً منها. ولا يجب أن تنسى الأسرة دورها في تنمية ورعاية واكتشاف أصحاب الأفكار المبدعة من أبنائها والدفع بهم ورعايتهم، لأننا كما بالعمل نفكر فإننا بالعمل نرتقي ونتقدم.

هويتنا في ذاكرة تاريخنا وتراثنا

إن تقدم أمة من الأمم، يأتي عبر معرفة ماهيتها، وكيف تود أن تكون، أو ما يمكن أن نطلق عليه مشروعها الثقافي، وهو المعبر عن رؤيتها، وعلى قدر وضوح الرؤية، على قدر سرعة الإنجاز..

وستظل الهوية هي الإطار الجامع والحصن الحامي من كل الزلات، والدفاع عنها هو دفاع عن الوجود ذاته، وبخاصة في عصر تذوب فيه الثقافات، حتى صار الكل في واحد، نفس الملبس، نفس الطعام، نفس الأذواق، نفس الفنون، كل ذلك بفعل العولمة التي انعدمت معها الحدود، وأزيلت الحواجز بفعل الثقافة الأكثر حضوراً، والوسيلة الأكثر وصولاً إلى الناس، والأعلى صوتاً والأكثر نفيراً.

من هنا، جاءت أهمية المؤتمر الذي أقامته الجامعة القاسمية بعنوان «هويتنا في ذاكرة تاريخنا وتراثنا»، وأهميته تعود إلى أنه يعد من قضايا الأمن الفكري، وبخاصة لدى الأجيال الجديدة، أصحاب الهويات متعددة الثقافات، أو متعدية الثقافات..

والتـي قـد تأتـي عليهـم اللحظـة التـي تخفـت أمامهـم وتتلاشـى هويتهـم الحقيقـة، في ظل هـذا الارتبـاك والضجيج والتلاحـم، وإن شئت، الصراع بين الثقافـات، عندئـذ، يبـدأ الفـرد رحلـة البحـث عـن الـذات مـن جديـد. والحديـث عـن الهويـة يقترن دائماً بالإحسـاس بالخطـر عليهـا، وأنهـا بالفعـل تتعرض إلى التهديـدات والنيـل.

وفي تقديـري أن مـن أهـم أداوت الدفـاع عـن الهويـة، هـو ارتيـاد مجالات الحياة بقـوة مـن إنتـاج فكـري، وبحـث علمـي وتطـور تكنولوجـي، أن نكـون منتجيـن للمعرفـة، لا مسـتهلكين فحسـب، أن يـرى العالـم مـا لدينـا، ونحـن قـادرون علـى ذلـك، أن ينشـأ الجيـل الجديـد وهـو يعـرف أن لغتـه العربيـة لـن تكـون حائـلاً بينـه وبيـن ارتيـاد أرفـع المسـؤوليات، بـل مـن دون إتقانهـا تكـون المشـكلة أكبـر.

وهنـا، أتذكـر مـا قصـه علـيّ أحـد الأصدقـاء فـي رحلتـه إلـى إحـدى المـدن الإسـبانية، وتكلـم مـع شـرطي بالفرنسـية فلـم يجبـه، وهـو يعلـم أنـه يجيدهـا، فلمـا كـرر عليـه القـول، قـال لـه رجـل الشـرطة: نحـن أقـرب إليكـم مـن فرنسـا، فلمـاذا تتحدثـون الفرنسية لا الإسـبانية؟ فقـال: لأننـا نحتـاج إلـى تعلمهـا، أمـا الإسـبانية فـلا.

هـذه الإجابـة فـي تقديـري، تلخـص الحالـة التـي ينبغـي أن نتعامـل معهـا، إن العاطفـة وحدهـا لـن تحمـي هويتنـا، وبخاصـة أن خـط الدفـاع الأول عنهـا، ليـس أبناءنـا فحسـب، ولكـن السـاعين إلـى معرفتهـا والبحـث فيهـا وفهمهـا، لأن لدينـا حاجـة يسـعى إليهـا، هنـا سـيكون أبناؤنـا إضافـة، وليـس خصمـاً مـن رصيدنـا الحضـاري والمعرفـي.

إن الهويـة الواحـدة، هـي الضمـان لكـي نسـتطيع القـول بوجـود أمـة أو شـعب مـن الشـعوب، أن يكـون هنـاك سـياج فكـري جامـع لهـم، موجـه لحركتهـم، وهـو مـا يمكـن أن نطلـق عليـه متانـة النسـيج الاجتماعـي، التي تتأبـى علـى كافـة عمليات

التفتيت، وتتعدى ذلك إلى أن يصبح لديها قوة جذب شديدة، يدور معها من يتلمسها. و«ابن خلدون» يخبرنا في مقدمته، أن الغالب دائماً يجد من يريد الالتحاق بركبه.

وقد يتقمصه. وكما تقول الباحثة «فاطمة الدراجيني»، نقلاً عن «إريك فروم»: «إن الإنسان بحاجة إلى الشعور بالامتياز والتمايز عن الغير، فإن فشل في تلبية هذا الشعور عن طريق نبوغه، يسعى لتحقيق هذا المأرب عن طريق التماثل مع غيره من الناس، وهكذا تتبلور شخصية كل إنسان على أساس الفرص والإمكانات التي يوفرها له المجتمع والثقافة».

من هنا، فإن الأمم تحرص على التمايز بما لديها، والتراث أحد أهم أشكال التمايز، ولا شك أن التراث لا يعني ما زهد فيه، ولكن يعني الامتدادات للشخصية الحالية، والمرجعية، والدافع، والأساس المكون والمؤثر في قسماتها، لذا، فإن الحفاظ عليه أمر حتمي لا هوادة فيه، وبخاصة في هذه الآونة، وفي ظل التحديات الثقافية والهجمة على الثقافات الوطنية، ما يتطلب دعماً إضافياً لها ومساندة مستمرة..

ولن يتم ذلك إلا بوجود حافز للاهتمام بهذا الإرث الحضاري والثقافي، وخاصة بين الشباب، فعند الشدائد يستدعى المشترك، وهو دائماً تاريخنا وتراثنا المعزز لهويتنا، لكي ندرك حقيقة وجودنا، والغاية من رحلة البناء والصعود.

حدثنا ذات يوم، صديق من المغرب العربي، يعيش في فرنسا منذ سنوات طويلة، أن شبح هتلر واقف أمام برج إيفل، يسعى لنقله إلى ألمانيا، وهو ما سعى إليه بالفعل خلال الحرب العالمية الثانية، ما زالت صورته شاخصة أمام أعين ونفوس الفرنسيين..

وبرج إيفل مكوِّن أساس من التراث الفرنسي، الذي جعل رئيس الوزراء

يرفض أن يتم افتتاح أي من العلامات التجارية العالمية بجواره، أو النيل من مكانته، على الرغم من الإغراءات المالية الكبيرة التي قدمت له.

كما أنه من الأهمية بمكان، أن ندرك أن الحفاظ على الهوية لا يعني انغلاقاً على الذات، ولكن كما أكد «د. سلامة البلوي»، أن العرب انفتحوا على مدرسة الإسكندرية في القرن الأول الهجري، وترجموا العلوم الطبيعية، ولم يترجموا المؤلفات المتعلقة بالعقائد المصرية الوثنية..

وكذلك فعلوا حين انفتحوا على التراث الروماني في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين أخذوا نظام الدواوين، دون أن يأخذوا القانون الروماني، وأخذوا عن الفرس التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا عقائد المجوس وفلسفتها، كما أخذوا من الحضارة الهندية علم الفلك والرياضيات دون الديانات، وأخذوا من الإغريق العلوم الطبيعية والتجريبية، دون أن يأخذوا وثنية الإغريق.

إنه الأخذ الواعي والهضم المدروس وإعادة الإخراج بعد التشذيب والتهذيب والعرض على الثوابت، حتى لا تدخل الأمم في طور محو الهوية والإفلاس الحضاري.

الإمارات هي الأكثر

الإمارات ملحمة البطولة وقصة البناء شاهد على قدرة الإنسان العربي حين يريد أن يكون، الإمارات الملهمة لأبناء منطقتها والساعين إلى النهوض من شتى بقاع الأرض، حلم الحالمين، ومصدر إلهام الطامحين، الإمارات سير الأبطال وملاحم القادة، أرض الأحلام التي باتت واقعاً على وقع صيحات قادتها الذين نادوا أن حي على البناء فلبى الشعب النداء، ليست هي الأكثر إنتاجاً للنفط في منطقتها، وليست هي الأغنى بين دول العالم بما تحويه خزائنها من أموال، لكنها الأكثر إصراراً بقيادتها الرشيدة على أن تتصدر الرقم واحد..

وهنا ينتهي الحديث وتجف الأقلام لتخبرنا الصفحات عن الأحوال، فمن يريد أن يرى المشهد كاملاً عليه أن يستعرض بعضاً من جوانبه، هذا المشهد الذي يؤكد أن الإمارات تحتل الرقم واحد في كافة الصعد وعلى مختلف الجبهات، وهو ما أوضحه ابتداء مؤشر فرص عمل الشرق الأوسط من أن سوق العمل في الإمارات تعد الأكثر جاذبية بين مختلف الدول العربية.

وقد يرى البعض أن ذلك يرتبط باحتياجات مادية لا غنى للفرد عنها سواء

أحب أو كره، غير أنها جاءت الأكثر جذباً للمواهب وفي الترتيب الأول عربياً وفقاً للمؤشر العالمي «لتنافسية المواهب الدولية» 2015 ـ 2016، في دراسة مسحية شملت 100 دولة...

وشارك في إعدادها كلية إدارة الأعمال الدولية «إنسياد» و«معهد قيادة الموارد البشرية» بسنغافورة، والذي يقيس مدى قدرة الدول على جذب واستبقاء المواهب العالمية. وما يجب التوقف عنده أن المسألة لا تتعلق بجذب المواهب العالمية وهو أمر مهم، لكنه يتعداها إلى استبقائها، وهو الأهم باعتبار أنها تجد البيئة المواتية للإبداع.

وعلى الصعيد الاقتصادي، حلت الإمارات في المركز الأول على مؤشر الأقل مخاطر في الاستثمار والتجارة، الذي أصدرته مجلة «بيزنس مونيتور إنترناشيونال» للعام الجاري، ويضم 18 دولة في المنطقة، ما يعني أنها أقل دول المنطقة تعرضاً لأخطار تهدد الاستثمار والتجارة.

كما أوضح أن الإمارات من أكثر دول منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا جذباً للاستثمارات والتجارة، بفضل امتلاكها مناخاً قانونياً وتشريعياً جيداً لتعزيز الاستثمارات وحماية الملكية الفكرية، لذا كانت الأولى إقليمياً و19 عالمياً في ريادة الأعمال، في التقرير السنوي الذي يصدره «المعهد العالمي للريادة والتنمية» ومقره في العاصمة الأميركية واشنطن.

ولأن عوامل الجذب والتصدر للمشهد لم تكن لتأتي لولا رؤية حكومة تستشرف المستقبل في التحولات الاقتصادية والفرص المتاحة من خلالها، والشاهد أنها تصدرت المرتبة الأولى عربياً في «مؤشر الأداء الإلكتروني العربي للعام 2015» بمعدل 35 ـ 67 ٪، بحسب تقرير «اقتصاد المعرفة العربي 2015 ـ 2016 النوعي»، الذي أطلقته وحدة «أورينت بلانيت للأبحاث»، الذي يركز في

المقام الأول على دراسة ما يُعرف «بالمدن الرقمية»، مع تسليط الضوء بشكل خاص على تجربة دبي، التي أثبتت مكانة مرموقة لها ضمن قائمة أفضل 10 مدن في العالم من حيث الحكومة الرقمية، التي جاءت كأفضل مدن العالم سمعة لعام 2015 وفقاً للتقرير الصادر من «معهد ريبوتيشن الأميركي» الذي يضم قائمة أفضل المدن سمعة، متفوقة على عدة مدن عالمية كبرى، منها هونغ كونغ، وواشنطن، وهيوستن، وأثينا، وسيول. كما احتلت الدولة المركز الأول عالمياً في مؤشر الثقة بالحكومة، حيث بلغت نسبة الثقة 90٪ متقدمة نقطتين عن العام السابق..

كما احتلت المركز الأول عالمياً بمؤشر الثقة في متانة الاقتصاد بنسبة 85٪، وحصلت أيضاً الدولة للمرة الأولى على المعدل الأول عالمياً في قدرة الحكومة على تحفيز الابتكار في قطاع الاقتصاد، وذلك حسب المؤشر السنوي الذي تصدره مؤسسة «إدلمان» ومقرها نيويورك.

الإمارات وهي تبني الحاضر لم تغفل عن المستقبل، لذا حسب تصنيف «كي بي إم جي» تعتبر الإمارات دولة رائدة على مؤشر متغيرات النمو المستدام، الذي قامت بتطويره لتقييم الأداء الاقتصادي للدول على المدى الطويل، وتصدرت الإمارات قائمة منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وتفوقت على عدد من الدول المتقدمة اقتصادياً مثل فرنسا، كما تصدرت سوق انتشار تكنولوجيا الألياف الضوئية، حسب ما نشره مجلس توصيل الألياف الضوئية للمنازل في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بنسبة 75٪ لسنة 2015.

ولأن الإمارات رسالتها التنموية ذات بعد أخلاقي مستمد من قيمها العربية والإسلامية تحترم المرأة وتعرف لها قدرها، لذا تبوأت المركز الأول عالمياً في مؤشر احترام المرأة من خلال التقرير الذي أصدره «مجلس الأجندة العالمي» التابع للمنتدى الاقتصادي العالمي، كما احتلت المرتبة الأولى عالمياً كأكبر مانح للمساعدات الإنمائية الرسمية.

لذلك كان من المنطقي أن يكون شعبها الأكثر سعادة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وفقاً «لمؤشر السعادة العالمي 2016»، ومتفوقة في ترتيبها العالمي على فرنسا، وتايلاند، وإسبانيا، واليابان، في المؤشر الذي يتكون من عناصر عدة تتضمن نصيب الفرد من الدخل القومي، والدعم الاجتماعي، ومتوسط الأعمار، والحرية الاجتماعية، ومعدلات السخاء الاجتماعي..

وأن تأتي في المركز الأول عربياً على مؤشر الرفاهية العالمي الخاص بعام 2015، الصادر عن «معهد ليغاتوم البريطاني»، وأن يعرب الشباب العربي عن رغبتهم في العيش في دولة الإمارات التي اختاروها، لتحل بذلك في صدارة قائمة ضمت 16 دولة تأتي بعدها الولايات المتحدة في المرتبة الثانية بنسبة 13٪، وفقاً لما أظهره «استطلاع أصداء بيرسون ـ مارستيلر» السنوي السابع.

هذا غيض من فيض مؤشرات ودراسات من يقرؤها يدرك أنها صدرت من مؤسسات ومراكز عالمية، كما أنها من مصادر متعددة المشارب والرؤى، غير أنها اتفقت على أن الإمارات هي الأكثر.

بصمات خالدة

ذلك هو العنوان الذي وضعه الدكتور جمال سند السويدي لكتابه، والذي لا يقل في جودة طباعته وأناقة مظهره عن متانة المضمون الذي يجمع بين جزالة اللفظ وجمال الأسلوب، في الوقت الذي اعتمد فيه نهجاً علمياً توثيقياً بالرجوع إلى المصادر، بالشكل الذي يطمئنك فيه على دقة المعلومة المقدمة.

أما موضوع الكتاب والذي يلخصه في التفصيل بعد الإجمال في العنوان، فيدور حول «شخصيات صنعت التاريخ وأخرى غيرت مستقبل أوطانها»، وهي تلك الشخصيات التي تركت لها بصمات يقف أمامها التاريخ يتأملها طويلاً ليرصدها بحروف تحمل رائحة الحب للوطن والبذل دونه، في الوقت الذي أكده الحاضر شاهد عيان على نوايا صدقت، وإرادة تجذرت، وفكر سبق عصره، ورؤية صفت، وحكمة كانت عطاء ربانياً خالصاً، وعملاً استمر دون كلل أو ملل، وخاصة عندما يتحدث عن رموز الإمارات التي صنعت المعجزات وحولت منطقة تعيش على هامش التاريخ إلى قلبه ويشار إليها بالبنان.

والكاتب في هذا يتفق مع ما قاله الكاتب والمؤرخ الأسكتلندي توماس

كارليل: «إن تاريخ العالم ليس إلا سيرة الرجال العظماء»، فلا يمكن أن يجادل أحد في أن للعظماء والمبدعين دوراً أساسياً ومحورياً في تحولات التاريخ في كل المجالات، كما أن هناك أمثلة كثيرة لقادة استطاعوا صنع المعجزات في بلادهم، وفي مقدمتهم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه.

وفي تقديري أن تلك حقيقة دامغة، فعربات القطار لا تحوي كل واحدة منها محركات دفع، لكن هناك قاطرة واحدة هي التي تقوم بهذا الدور، غير أنه يجب أن تكون العربات الأخرى مترابطة ومجهزة للاستجابة وألا تكون مصدر إعاقة؛ لأنه في الأخير سيصل القطار في نهاية الرحلة إلى غاية ومقصد، وإن كان غايات الشعوب في مسيرتها لا تنتهي ومحطاتها، كما قال صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد: لا يجب أن تتوقف عندها طويلاً وإلا تخلفت، لأن رحلة التفوق لا نهاية لها ولا محطة أخيرة تحدها.

الشاهد أن التحولات الكبرى في تاريخ الأمم والشعوب قادها أفراد خصهم الله بقدرات تفوق أقرانهم ونظراءهم - ولله في خلقه شؤون - من رؤية فرص النجاح واقتناصها ثم الاستمرارية والدأب على إنجاحها من خلال قوة الفكرة وليس فكرة القوة، وهو ما قام به الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه، الذي بدأ به الكاتب ليروي لنا مسيرة الرجال، وحمل راية العزة والفخر من بعده صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، حفظه الله، الذي انتقل بالإمارات من مرحلة التأسيس والبناء إلى مرحلة التمكين، مع أخيه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، رعاه الله، الذي ضرب لنا النموذج الفذ في أنه ليس هناك دولة غنية وأخرى فقيرة، بل هناك قيادة غنية مبصرة تفهم لغة عصرها وتستشرف مستقبل أمتها ولا تعرف كلمة مستحيل، وقيادة فقيرة لا تنظر إلا تحت قدميها ولا تعرف غير التردد والتخبط، فسقطت بأوطانها وشعوبها في هوة سحيقة من التخلف والجهل، فالإمارات ليست أغنى البلاد

بالنفط لكنها أغناهم بأبنائها الذين هم ثروتها الحقيقة، فالأمم الفقيرة ليست تلك التي لا تملك الأموال وإنما هي التي لا تملك القيادة الحقة والإدارة الرشيدة والزعماء القادرين على إحداث التحولات الإيجابية لمصلحة الشعوب.

إن هذه الشخصيات العظيمة الذي يدور حولها موضوع الكتاب وفي مقدمتهم قيادات الإمارات وأبناؤها البررة الذين أسسوا لنظرية قيادة الشعب بالحب فبادلهم شعبهم حباً بحب وعطاء بعطاء، هذه الشخصيات العظيمة يظل تأثيرها باقياً، ويتجاوز عصرها إلى العصور اللاحقة، وتظل دائماً مثل النجوم الساطعة التي تهتدي بنورها البشرية في كل الأزمنة وتجد في مواقفها وفي أفكارها ما يساعد على مواجهة التحديات والمشكلات، ويعبد الطريق نحو المستقبل، ويزرع الأمل والثقة بالنفس، خاصة في أوقات المحن والأزمات والاختبارات الكبرى.

والدكتور جمال السويدي يجمع بين دفتي كتابه بين شخصيات إماراتية وخليجية وعربية وعالمية، جاءت من أزمنة متعددة وفترات متباعدة وفي ظروف متباينة، كما واجهت تحديات ومشكلات مختلفة، لكنها كلها انتظمت في عنقود العبقرية والعظمة وتمثل أعمالها الخالدة أركاناً أساسية في بنيان الحضارة البشرية، وأضافت كل من تلك الشخصيات إلى تاريخ بلدها والإنسانية ما يستحق الدراسة والتأمل وفق سياقاتها الزمنية والمكانية والثقافية التي عاشت أو تعيش فيها.

ولقد أجاب الكاتب بوضوح وجلاء عن سؤال بدر لي وهو ما المعيار الذي اعتمد عليه في اختيار الشخصيات التي تجاوز عددها العشرين شخصية من مختلف العالم والأزمنة، مؤكداً أنه آثر أن يتناول الشخصيات التي تأثر بها شخصياً، ومثل بعضها مصدر إلهام أساسياً له، ولايزال تراثها قادراً على التأثير في حياتنا وحياة الشعوب الأخرى.

وأختم بما أورده الكاتب عن والتر إيزاكسون: «إن هناك خمس سمات تميز العباقرة؛ هي البساطة، والشغف بالكمال، والتحدي، وتقدير التنوع، ودفع الآخرين إلى القيام بما لا يتوقعون أنهم قادرون على القيام به». لذا فإنني أدعو القارئ الكريم لتجوال ممتع على صفحات هذا الكتاب الذي جمع بين جمال البيان والعرض ودقة المعلومة وتمامها.

الإمارات صانعة السعادة

نعم تلك هي الحقيقة الخالدة بخلود ما قدمته الإمارات لأبنائها والمقيمين على أرضها من نموذج فريد في الاهتمام بالإنسان، كونه إنساناً، دون تمييز على أساس من اللون أو العرق أو الدين، كما أنها الحقيقة الخالدة بخلود ما قدمته الإمارات لمحيطها الإقليمي والعالمي، وغدت نسمات الريح التي تهب من أرضها لا تحمل إلا الخير والبشر للإنسان من أدنى الأرض إلى أقصاها، حتى صارت عاصمة للعطاء الإنساني.

لذلك لم يكن جديداً أن تتصدر الإمارات المركز الأول في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والمرتبة 28 عالمياً كأسعد الشعوب في «مؤشر السعادة العالمي 2016»، الذي تصدره شبكة المبادرة الدولية لحلول التنمية المستدامة، ومعهد الأرض التابع لجامعة كولومبيا، كما أظهر التقرير أن الإماراتيين في المرتبة الـ 15 عالمياً في السعادة، والمقيمين في المرتبة الحادية والثلاثين.

إن صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد عندما أكد أن وظيفة الحكومة هي إسعاد الشعب، لم يكن ذلك أمنيات قائد لشعبه، لكنها رؤية تأسست على

برنامج عمل حولها إلى واقع معاش على الأرض يلمسه المواطن والمقيم.

ولا شك أن البرنامج الوطني للسعادة والإيجابية في دولة الإمارات هو الإطار الجامع لهذه الرؤية، من خلال منظومة عمل مستمرة ذات أطر محددة مفادها أن يكون تحقيق السعادة غاية كبرى تسعى إلى تحقيقها كافة الجهات الحكومية.

سواء كان ذلك في البرامج التي تضعها وما يتفرع عنها من خدمات تقدم للفرد بجودة تسعى فيها كل إدارة إلى أن تحصل من خلالها على النجوم الخمس، فضلاً عن بيئة عمل مواتية قادرة على استنفار الطاقات وإخراج أفضل ما لدى العاملين، في الوقت الذي تعتمد فيه الابتكار أسلوب عمل، والغاية مزيد من السعادة للإنسان.

وهل هناك أعظم من أن تسخر العقول الإنسانية والإمكانات المادية في تقديم الخير للناس، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «خير الناس أنفعهم للناس»، وهو أكبر دافع للتأكيد على القيم الإيجابية وترسيخها في المجتمع في بيئة كهذه يتسابق أبناؤها في مضمار الخير والبناء والسعادة، يشعر الفرد بقيمة ما يقوم به من عمل وتشمله حالة من الرضا عندما يجد أثر ما يقوم به على الآخرين.

إن البرنامج الوطني للسعادة وهو ما يفوق الرضا، هو حالة عبقرية بدءاً من المسمى، فلقد تعودنا أن لغة الحكومات جافة، بها من الأرقام والنسب والمؤشرات ومعدلات الصعود والهبوط ما يعجز عن فهمه وسبر غوره المواطن، الذي لا تعنيه كثيراً هذه الأرقام إلا بمقدار ما ينعكس منها على حياته اليومية.

وتلك هي اللغة العبقرية التي اعتمدتها حكومتنا الرشيدة لغة المنافع الواضحة، والتي تبعد عن إشكاليات النسب والمؤشرات التي لا يجيدها غير

المتخصصين والمحللين، وهو ما جعل المواطن جزءاً من هذا البرنامج فاعلاً ومتفاعلاً مبادراً ومستفيداً في وقت معاً.

وتلك هي المعادلة التي استطاع صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد أن يحققها باقتدار، حين جعل من المواطن مصدراً للمبادرات الابتكارية وصانعاً للعمل الإيجابي، وهو ما نتج عنه تجذر الانتماء للوطن والولاء لقيادته، ساعد على ذلك التواصل المستمر بين القيادة والشعب في مختلف القضايا التي تطرحها عبر مختلف أدوات التواصل المباشرة وغير المباشرة.

إن مؤسسة السعادة واعتمادها على نماذج واضحة، عبر برامج لتطوير الأداء، تجعل من التقييم أمراً ممكناً وتصنيف مستوى الخدمات المقدمة طبقاً لذلك من خلال مؤشرات واضحة، كما تجعل من المراكز الحكومية صانعة للسعادة، وأن تكون تلك مهمة الموظفين، كما أنه الأمر ذاته الذي سبقت به الإمارات الكثيرين، حين جعلت للسعادة وزيرة مهمتها مواءمة كافة خطط الدولة وبرامجها وسياساتها لتحقيق سعادة المجتمع.

والأمر البديع هنا هو أن السعادة تحولت من قيم مجردة، يسعى الفرد إلى أن يبلغها، إلى حقيقة واقعية لها آليات تتحقق من خلالها، كما أنها أصبحت تكليفاً رسمياً يتطلب التحقيق، وهي في ذلك متسقة مع سياستها، حيث إن دبي أطلقت في أكتوبر 2014 خدمة مؤشر السعادة رسمياً في 14 جهة حكومية، لوضع مقاييس محددة لقياس السعادة بمعدل متقارب وليس عبر تقارير سنوية.

وما ينبغي التوقف عنده أن شجرة السعادة، التي تزرع في الإمارات وتتجذر، ينتفع بثمارها أبناء الإمارات والمقيمون على أرضها، ولا تضن به على من حولها، وهو ما جعل منها التجربة الملهمة للشباب العربي وحلمهم الذي يتحقق، ما ولد لديهم الأمل في القدرة على تجاوز الصعاب.

كيف لا، وهناك تجربة ماثلة أمامهم جعلت من سوق العمل الإماراتية الأكثر جذباً عربياً وفقاً لمؤشر فرص عمل الشرق الأوسط، والأكثر جذباً للمواهب الدولية وفقاً للمؤشر العالمي لتنافسية المواهب الدولية، والأكثر أماناً في الاستثمار والتجارة حسب مؤشر الأقل مخاطر في الاستثمار والتجارة الذي أصدرته مجلة «بيزنس مونيتور إنترناشيونال» للعام الجاري، بل تعدى الأمر العمل والاستثمار إلى أنها أصبحت الأكثر جذباً لكبار السن؛ أو ما يسمى بالاقتصاد الفضي، والنماذج أكثر من أن تحصى.

ألا يحق لنا بعد ذلك القول إن السعادة صناعة تتقنها الإمارات حتى صارت صانعة السعادة.

الإعـلام الجديـد ودوره في التعليم والبحث العلمي

صاحب ظهور كل شكل جديد من أشكال الاتصال وأدواته هواجس تتعلق بماهيته وحدود تأثيره وأوجه استخداماته، وهذه الهواجس تكون مشروعة حين يلف الغموض مدى تأثير هذه الوسائل والنتائج المترتبة على التعامل معها.

لكن هنالك نقاط أساسية يؤكدها تاريخ ظهور كل المستحدثات الاتصالية، أولها، أن هذا الوافد الجديد يمثل إضافة نوعية مؤثرة لكل الوسائل التي سبقته، فالراديو أضاف قطاعاً كبيراً من الجمهور لم تكن الصحيفة تصل إليه، كما أن الصوت أدخلنا عوالم جديدة لها تجلياتها، والتلفزيون أضاف للراديو سحر الصورة الذي مثل لنا مع الصوت عالماً نراه ونلمسه.

ثانياً، على الرغم من التوجس من آثار دخول هذه الوسائل الجديدة والسلبيات التي يمكن أن تحدثها في بداية التعامل معها، فإنه لا يمكن الارتداد عنها أو معاداتها باعتبارها مرحلة جديدة من مراحل التطور الاتصالي، فهي سنة كونية ويقيناً أنها ما دامت قد ظهرت إلى الوجود وأصبح لها جمهور قل أو كثر، فإن هناك احتياجاً إنسانياً لمثل هذا النوع جعل البعض يفكر في الطريق إلى تلبيته وإشباع حاجة الناس إليه.

وفي تقديري أن ظهورها لا يؤدي إلى القضاء على غيرها مما سبقها من وسائل الاتصال، بقدر ما يؤدي إلى تطويرها لذاتها والبحث عن جوانب جديدة تحفظ لها البقاء وتضمن لها الاستمرار، ولا بأس من الاستفادة من الرافد الاتصالي الجديد في ذلك وهو ما يؤكده المشهد الاتصالي الراهن، فقد باتت المواقع الإلكترونية لكل الوسائل التقليدية حاضرة وبقوة للتغلب على الجوانب السلبية المتعلقة بالآنية أو مشاركة الجمهور في المضامين المقدمة.

ما أود التطرق إليه هو أن كل وسائل الاتصال جاءت بجوانبها الإيجابية، وكذلك تلك الأوجه التي تقلق وتزعج نتيجة عدم الوعي أو حداثة التجربة والرغبة في استكشاف كل جوانبها بدافع الفضول الإنساني، غير أنه من الثابت أيضاً، بعد مرور فترة وجيزة من الزمن، يرشد الجمهور سبل استخدام هذه الوسائل، ويبدأ في البحث عن تعظيم جوانبها الإيجابية، ووضع آليات للحد من جوانبها السلبية، كما أن هذه الوسائل تقوم بما يمكن أن نطلق عليه صقل نفسها بنفسها حين يهجر الجمهور بعض ممارساتها فتذبل وتموت ويركز على ما يحقق له الفائدة.

وإذا كان الإعلام الجديد، أحدث حالة اتصالية متداخلة زاد غبارها أحياناً فحدث التشويش والارتباك، إلا أنه في أحيان أخرى فتح الباب لعرض الجانب الآخر من الصورة، حين تكون الرؤية الإيجابية للتعامل مع تلك الوسائل غائبة أو مترددة أو تظهر على استحياء، تملأ الفراغ الاستخدامات السلبية وتكون هي الحاضرة.

ولا شك أن قيادتنا الراشدة ضربت بنفسها المثل في كيفية الطرح الإيجابي في التعامل مع تلك الوسائل ورصدت الجوائز للاستخدام الأمثل لها بما يحقق الفائدة للفرد والخير للمجتمع، وهنا يجب أن تكون المؤسسات والدوائر الرسمية حاضرة في هذا المشهد، ولا شك أن آفاق الانطلاق عبر الإعلام الجديد في رحاب التعليم والبحث العلمي رحبة وثرية.

وبخاصة أن تقرير «نظرة على الإعلام الاجتماعي في العالم العربي» لعام 2014، والصادر عن كلية محمد بن راشد للإدارة الحكومية، أشار إلى أنه يتغلغل استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في المجتمع الإماراتي بنسبة تصل إلى 54٪، ما يجعل الإمارات في المركز الأول عربياً من حيث مدى انتشار استخدام الموقع بها.

لذلك، يمكن الاستعانة بتلك المواقع لتدريب الطلبة في وقت مبكر على سبل استخدام والاستفادة من مصادر المعلومات الرقمية مثل المدونات التعليمية الرقمية والشبكات العلمية، فضلاً عن الموسوعات الحرة والمتخصصة والتي يعجز معها الفرد عن ملاحقتها، وإذا كانت العلاقة بين الأستاذ والطالب لها تأثيرها الكبير في تجويد العملية التعليمية، فإنه يمكن تعزيزها عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ما يرسخ حالة من التوجيه المستمر ويساعد المعلم ذاته على اكتشاف ما لدى طلابه في مختلف المجالات مما يعيد أدواراً للمعلم غابت لفترات طويلة من تعليم فحسب إلى تربية وتوجيه وبناء الإنسان.

كما أن استخدام الشبكات العلمية المتخصصة يصنع حالة من التواصل بين الباحثين على أرض المعمورة يمكن من خلالها تبادل المعلومات والخبرات، مختصرين المسافات الجغرافية والجهد البدني وتكثيف الفترة الزمنية، وهو ما يجعل مناقشة كل جديد بين الكيانات العلمية أمراً متاحاً بشكل يومي، وهو ما من شأنه تقليل فجوة المعرفة بين الشعوب.

من ناحية أخرى، فإنه يمكن تطوير مهارات الباحثين ليس في الإمارات فحسب بل في المنطقة العربية، على نشر إنتاجاتهم وأوراقهم العلمية من خلال تطبيقات الإعلام الجديد، وهو شكل من أشكال التمكين للعربية، في الوقت الذي يمكن فيه الاستفادة من نموذج الجامعات الافتراضية التي من شأنها الارتقاء بالمستوى الثقافي والتعلم الذاتي للأفراد.

ومن الأهمية بمكان تشجيع إنشاء المكتبات الرقمية والتوسع فيها وبخاصة الشخصية منها، بما يمكن كل باحث من نشر إنتاجه العلمي وتبادل الخبرات مع غيره من الباحثين، وهي من أهم أشكال نشر الثقافة العلمية في المجتمع. إن من يتخوف من آثار الإعلام الجديد عليه أن يفتح أفقاً لفكرة جديدة تعظم من قيمة ذلك، إن إضاءة شمعة أفضل بكثير من لعن الظلام.

تحية لرجال الدفاع المدني في يومهم

إن أمن الوطن يعني الدفاع عن حدوده الخارجية من خلال درع الوطن رجال القوات المسلحة البواسل، وحماية الجبهة الداخلية للمجتمع من كافة أشكال الجرائم أو الاعتداءات من خلال العيون الساهرة لرجال الشرطة الأكفاء، لكي يأمن الفرد على نفسه وماله ومن يعول، غير أنه من الأجنحة المهمة لاستكمال الدائرة الأمنية شعور الفرد بأن هناك من يستمع لندائه حين يتعرض لمكروه أو يصاب بأذى في بيته أو مصنعه، وأن هناك من هو على أهبة الاستعداد ليحرك رتلاً من الرجال الذين نذروا أنفسهم لمساعدة غيرهم للحد الذي يقدمون فيه أغلى ما يملكون - أرواحهم - لكي ينقذوا أرواح غيرهم..

هؤلاء هم رجال الدفاع المدني حماة الديار وسند الجبهة الداخلية للمجتمع، وهم الذين تتسع مسؤولياتهم باتساع مساحات التعمير في الدولة، وهو الخط الموازي للعمران، فمن غير الممكن أن يكون هناك حالة من اتساع التنمية بعيداً عن كيفية الحفاظ عليها أو التأكد من سلامتها وإلا مثلت خطراً على أبناء المجتمع..

لذا كان الدفاع المدني الوجه الآخر لعملية العمران المجتمعي يسير معه

ويتعاطى مع كل مراحله، إن جهاز الدفاع المدني في تقديري هو جهاز إنساني بالدرجة الأولى، هدفه حماية الإنسان كونه إنساناً دون السؤال أو التوقف عند لونه أو جنسه أو عرقه أو دينه أو غيرها، فمهمته من أنبل المهام، وهل هناك أغلى من الحفاظ على الروح.

ولاشك أن الدور الذي يقوم به جهاز الدفاع المدني في دولتنا الحبيبة من الأدوار المشهود لها، والتي تعمل باحترافيه وجاهزية، وهو ما يتابعه المواطن والمقيم على أرض الدولة عبر مختلف الأحداث، وهي القريبة منا والملموسة عن كثب سواء عبر سرعة التلبية وبخاصة عندما تكون الثواني الفارقة قد تعني الحياة أو الموت أو حدوث كارثة ومنعها وهو ما يجعل من هؤلاء الرجال الأشداء الأمناء في حالة استنفار دائم أو تأهب مستمر..

وهي مهنة تتطلب ممن يعملون بها مواصفات نفسية وعصبية وجسمانية خاصة، قادرة على تحمل العمل لساعات لا تعلم لها حدوداً، فقد تطول العمليات التي يقومون بها أو تقصر، كما أنها تتطلب أن يكون لهم قدرة على ردة الفعل والحركة السريعة التي لا تترك لهم رفاهية الرجوع إلى الرتبة الأعلى لاتخاذ القرار في بعض الأحيان..

كما أن أجندة العمل اليومية أو طبيعة المهام تأتي بغتة في معظم الأحيان، وهو ما يتطلب ذهناً حاضراً قادراً على التفاعل مع الحدث مع وجود ثبات انفعالي يتمتع به رجال الدفاع المدني وإلا حدث نوع من الهلع الذي يعجز معه الفرد عن التفكير السليم، خاصة وأنه عندما يتعامل مع الحادث لديه مهمتان الأولى هي إنقاذ الروح البشرية في المقام الأول، ثانياً أن يتم التعامل مع مسرح الأحداث من منطلق الحفاظ عليه أو التقليل من الخسائر المادية قدر الإمكان..

وهنا تكون إنسانية المهمة واحترافية الأداء التي تتطلب التدريب المستمر

على تكنولوجيا العصر ومواكبة أحدث الاتجاهات العالمية، فهو عمل مبني على العلم والمعرفة والمهارة في وقت معاً، وهنا أجد لزاماً عليّ الإشادة بتعاون أجهزة الدفاع المدني مع مختلف المؤسسات التعليمية والجامعات في إجراء عمليات إخلاء وإنقاذ وهمية في إطار الجاهزية الدائمة.

واستكمالاً للدائرة الإنسانية فإن المهمة لا تتوقف عند حد الإنقاذ، غير أن الدائرة تكتمل بطواقمهم المدربة على الإسعافات الأولية حتى يتم إيداع المصاب أحد المستشفيات والاطمئنان على أنه في المكان المناسب، فجزء كبير من المهمة يتم بعد عملية الإنقاذ ذاتها ولا يقل في أهميته عن المرحلة الأولى.

إن الحفاظ على الأرواح والممتلكات قيمة عليا، بها تحافظ الدولة على أهم الأدوار المنوطة بها بمعناها الحقيقي، وفي غياب ذلك تحدث الفوضى المجتمعية، خاصة مع الزيادة السكانية وما يتبعها من توسع في مختلف الأنشطة.

إن الأول من مارس هو اليوم الذي اختارته الجمعية العامة للأمم المتحدة للاحتفال والاحتفاء برجال الدفاع المدني، وإلقاء الضوء على المجهودات التي يبذلونها في زمن السلم والحرب، والإمارات تحتفل اليوم برجالها الأشداء المخلصين من أبناء الدفاع المدني، الذين كانوا دائماً أذناً تصغي لصوت المستغيث، ويداً تمتد له أملاً في استبقاء الحياة، ونسمة من السعادة لمن حوله من آباء وأبناء تنفطر قلوبهم لمصابهم ويهتز وجدانهم فرحاً لمن كان عالقاً بين اليأس والرجاء.

إن رجال الدفاع المدني في وطننا الحبيب كانوا دائماً صمام أمن وأمان ومصدراً للفرح وصنع السعادة بين أبنائه والمقيمين على أرضه، فلهم منا في يومهم كل التحية والتقدير، ومن فقد حياته منهم أداء لشرف المهمة فإن حياته امتدت في حياة كل من مد إليهم طوق النجاة، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ صدق الله العظيم.

المستقبل في فكر محمـد بـن راشـد

إن توجيه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، القمة العالمية للحكومات بالبدء ببناء شراكات دولية، وإطلاق مبادرات معرفية حكومية بالتعاون مع الحكومات حول العالم، بهدف استشراف الجيل القادم من حكومات المستقبل، وتعزيز جاهزية الحكومات للتغيرات والتحديات المستقبلية في كل القطاعات، ليؤكد أن صناعة المستقبل وانطلاقها من أرض الإمارات هي العنوان الأمثل الذي يمكن أن يطلقه المتابع على ما يحدث، لأن التخطيط للمستقبل هو القضية التي تضعها القيادة الرشيدة في مقدمة أولوياتها.

ذلك أن القيادة الحقة، التي تجعل من المستقبل شغلها الشاغل، والتي لا تنظر فقط إلى ما حققته من نجاحات شخصت إليها أنظار العالم أجمع واكتسبت بها محبة شعبها وتقدير العالم من شرقه وغربه، لكنها تتطلع إلى الأجيال القادمة، فكما هيأت للأجيال المعاصرة الحياة الكريمة فهي حريصة كذلك على الأجيال الجديدة باعتبارهم امتداداً للجيل الحالي، لذا لا تكاد تراها تتحدث إلا والمستقبل هو الكلمة الغالبة، ومن يحلل مفردات خطاب صاحب

السمو الشيخ محمد بن راشد، يجد أن المستقبل والحديث عنه هو القضية الأهم، باعتبار أن نجاحات الحاضر يجب ألا تنسينا تحديات المستقبل.

وفي تقديري أنها الرسالة الأبرز، التي يجب أن نتوقف عندها طويلاً كأبناء هذا الوطن الكريم، بأنه لا ينبغي أن ننظر إلى ما بين أيدينا من مقدرات، نحمد الله تعالى أن هيأها لنا وهيأ لنا قادة جعلوا لسعادة شعبهم وزارة، دون أن ننظر إلى مستقبل يحمل لنا التحديات الكثيرة والتي يجب أن نعد العدة لمواجهتها، كما أنه يحمل في الوقت نفسه الفرص المتعددة التي يجب أن نقتنصها ونكون بها فاعلين، وكما قال الشاعر:

«وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا».

إن مروراً يأخذ غيضاً من فيض فكر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد ورؤيته للمستقبل، يضيء لنا ملامح كثيرة، هذه الرؤية المنطلقة من استيعاب الواقع ومعرفة علله، والشاهد ما يقوله سموه: إن المرحلة الحالية تتسم بحساسية بالغة.

وقد تكون من أكثر مراحل التاريخ تعقيداً وأهمية، ونتائجها ستحدد مستقبل العالم، والمستقبل لن تشكله الحروب بقدر ما سيشكله التسامح واحترام الفكر، ونصرة الحق والعدالة والسلام، وهزيمة عوامل التراجع، والتفكك والتدمير»، ليؤكد أن التسامح هو الأساس الذي يجب أن نتفق عليه، فمن دونه ستظل البشرية في حالة من الصراع لا التكامل.

والهدم لا البناء، والتنابز لا التعاون، والفرقة لا التوحد، وكلها عوامل لا تبني أمماً ولا تقيم حضارات، وقيادتنا الرشيدة في ذلك متسقة مع حركتها على أرض الواقع، لذا كان تعيين وزير التسامح ليؤكد أن ما تعتقده القيادة يصبح ماثلاً على الأرض، يلمس الناس آثاره.

وكما أكد سموه، فإن مسيرتنا طويلة وصعبة، لأنها مسيرة اشتباك بين قوى التقدم وقوى التخلف، وبين عوامل البناء وعوامل الهدم، وثقة سموه بحتمية الانتصار مستنداً إلى منطق التاريخ في التطور، ومن يدرك هذا المنطق فقد امتلك أهم الأسلحة التي أنتجتها المراحل التاريخية المتعاقبة، ألا وهي المعرفة والعلوم والانحياز دوماً إلى مصلحة الشعوب.

وسموه في هذا لم يكتف بالتشخيص الدقيق للحالة وفقط غير أنه أبان علامات على الطريق نحو المستقبل بالعلم والمعرفة، مؤكداً أن الحفاظ على الريادة وإدامة النمو والازدهار يتطلبان الانتقال إلى عصر اقتصاد المعرفة وبأسرع ما يمكن.

كما أن المستقبل، الذي تعنيه القيادة الرشيدة، لا يخص أبناء الإمارات وحدهم، لكنها نظرة أوسع وأرحب يحتمي بظلالها محيطها العربي، وهنا يؤكد سموه على العرب أن يعملوا معاً أو يخسروا جميعاً، عليهم أن يبادروا، فالمبادرة سحر وعبقرية وقوة، لا الآلة ولا المال، بل الإنسان هو الذي يصنع النجاح والمستقبل.

ثم يضع أمام كل مريد للوصول إلى الغايات الكبرى سبل الوصول قائلاً: «لقد نجحنا لأننا اعتبرنا دائماً أن الغد يوم جديد، وأن ما تحقق في الأمس قد تحقق، وأن التاريخ الذي نكتبه هو ما ننجزه في المستقبل وليس ما أنجزناه في الماضي».

وفي تقديري أن ذلك الذي يبقي على جذوة الدافعية متقدة، لأن آفة أصحاب الإنجاز هي الركون إلى ما قدموه قانعين به يجترونه يوماً بعد يوم، غير أن سموه يبرأ لأبناء شعبه من هذه الآفة قائلاً: «التوقف معناه التراجع، فلا بد أن تبدع باستمرار، فإن لم تستطع عليك أن تترك المكان لغيرك».

وهـذا يعنـي أن التقييـم فـي القـرن الحـادي والعشـرين سـيكون علـى أسـاس المعلومات، مجتمعات تعرف وأخرى لا تعرف، وإن اتساع الهوة المعرفية يحرم معظم الدول النامية من المشاركة الحقيقية في الاقتصاد العالمي الجديد، ما قد يعرضها لمخاطر كثيرة تبدأ بالاقتصاد وتتسع لتشمل الاستقرار والأمن. وعندي أن المقولة الأكثر دلالة على المستقبل في فكر سموه: «نحن لا ننتظر الأحداث بل نصنعها».

فطوبى لمن همّ ونهض، وطوبى لمن نظر وبصر، وطوبى لمن تدبر وانطلق، وطوبى لمن انطلق فأبهر وشيد، وطوبى لمن شيد محبته في قلوب شعبه، وطوبى لمن أحب رمال هذا الوطن.

شباب اليوم قادة اليوم

إن الأمم التي تحرص على أن تكون دوماً متجددة تدب في أوصالها أسباب الحياة السليمة، لا يمكن أن يتحقق لها ما تريد دون أن يكون شبابها حاضراً بقوة الفكر والعمل، والدافعية المنطلقة من أنهم قادرون على التحدي والتغلب على الصعاب، وأن لديهم ما يقدمونه لخدمة أوطانهم، إلا أن هذه القدرة لا تكتمل، والأفكار لا تنضج، والثقة لا تتعاظم، دون أن تتاح لها آفاق رحبة تعبر فيها عن نفسها ولا تبقى حبيسة العقل والنفس لا يسمع أحد نداءها ولا يرى آثارها، فتموت سريرياً ويصاب العقل بالتكلس الذي يمنعه من مجرد المحاولة.

ولأن قيادتنا الرشيد آمنت دوماً بالشباب، وأنهم أمل هذا الوطن وحملة راية المستقبل، كان الاستثمار في البشر يحتل صدارة خططنا عبر التعليم والتدريب المستمر والدفع بهم وتمكينهم في شتى المجالات، ولم يكن ذلك ليتم لولا أن قادتنا كانوا القدوة في ذلك، والشواهد كثيرة، فقد تولوا في صدر شبابهم أعباء ثقالاً، غير أنهم تحملوها في سبيل هذا الوطن وحققوا إنجازات أذهلت العالم ولا تزال، فصاحب السمو الشيخ محمد بن راشد عندما تولى وزارة الدفاع في دولة الاتحاد كان الأصغر سناً بين أقرانه على مستوى العالم، غير أنه اتخذ قرارات تاريخية لنصرة من ظلم ومن احتلت أرضه.

لـذا كانـت دعـوة سـموه للشـباب، مـن هـم فـي سـن الخامسـة والعشـرين لكـي يتولـوا حقيبـة وزاريـة، قائمـة علـى إيمانـه بقدراتهـم وثقـة منـه فـي أن الشـباب هـم أفضـل مـن يعبـر عـن نفسـه دون وكالـة مـن أحـد، آيـة ذلـك مـا أكـده سـموه: «إن دولتنا دولـة شـابة قامـت علـى الشـباب، ووصلـت إلـى المراكز الأولـى عالميـاً بسـببهم، وإن الشـباب هـم سـر قوتهـا وسـرعتها، وهـم الكنـز الـذي ندخـره للأيـام المقبلـة».

ولا شـك أن هـذا النـداء الوطنـي الـذي أطلقـه سـموه يأتـي متسـقاً مـع نهـج القيـادة منـذ مرحلـة بنـاء دولـة الاتحـاد وخـلال مسـيرتها، والشـاهد مـا أكـده الشـيخ زايـد بـن سـلطان آل نهيـان، طيـب اللـه ثـراه، حيـن قـال: «أدعـو أبنائـي الشـباب إلـى ضـرورة تحمـل مسـؤولية الأمانـة بـروح جـادة، وأن يـؤدوا واجباتهـم تجـاه الوطـن الـذي يحتـاج إلـى بـذل كل الجهـد مـن أبنائـه الشـباب، وأن يتذكـروا دائمـاً ماضـي الآبـاء والأجـداد وكيـف عانـوا مـن مصاعـب الحيـاة، وأن يقتـدوا بهـم حيـث كانـوا رمـزاً للإخـلاص، فمهـدوا لنـا الطريـق لنصـل إلـى مـا نحـن فيـه مـن نعمـة وخيـر يسـتحق الحمـد والثنـاء للخالـق عـز وجـل».

إنـه نهـج القيـادة فـي أن الشـباب هـم عمـاد هـذا الوطـن وبـه يرتقـي، غيـر أن مـا يجـب التوقـف عنـده بالتأمـل، أن دعـوة الشـباب لتحمـل حقيبـة وزاريـة لـم تكـن بقـرار فوقـي، بـل جـاءت بأسـلوب متفـرد كمـا هـو شـأن صاحـب السـمو الشـيخ محمـد بـن راشـد فيمـا يطرحـه شـكلاً ومضمونـاً. لقـد جـاء التكليـف عبـر اسـتفتاء شـعبي يخـرج مـن المؤسسـات التعليميـة، وكأنـه يدشـن مرحلـة مـن السـباق الوطنـي الكبيـر تشـمل أنحـاء الدولـة، لينشـط الشـباب ويتقـد الذهـن وتقـوى العزائـم وتعلـو الأصـوات هـا أنـذا، وفـي خدمـة الوطـن فليتنافـس المتنافسـون.

كمـا أن دعـوة الجامعـات للترشـيح مـن بيـن طلابهـا أو خريجيهـا لهـي شـهادة كبيـرة لهـذه المؤسسـات بـأن مخرجاتهـا قـادرة علـى التحـدي، وأن القيـادة تثـق أنهـا

قادرة على ضخ دماء شابة في عروق الوطن الفتي، وأن عليها أن تتهيأ لهذا الدور الوطني، كما أن على شباب الوطن أن يتسلحوا بالعلم، مصداقاً لقول سموه: «على الشباب أن يتزودوا بالعلم والمعرفة لأنهما السلاح الوحيد والدائم والقوي في هذه الحياة».

كما أن تأكيد سموه أن للشباب آمالاً وطموحات وقضايا وتحديات وبهم تنهض المجتمعات أو تنهار وعلى أيديهم تتحقق الإنجازات أو الإخفاقات، ذلك أن الشباب هم بالفعل العنصر الغالب على تكوين المجتمع العربي بصفة عامة، وهم الأقرب والأنجع في التعبير عن قضاياهم، كما أنهم أقدر على مخاطبة نظرائهم.

ولا شك أن دعوة الشباب لتحمل مسؤوليته الوطنية في مستوياتها العليا تفتح آفاقاً رحبة للإبداع والابتكار بلا حدود، وأنه لا شيء يحول دون طموحك في خدمة الوطن ما دمت مسلحاً بالعلم قادراً على العطاء، وهو يرسخ الانتماء لهذا الوطن والبذل دونه ويعلو بسقف اهتماماتهم. إن أمة يتحمل أبناؤها المسؤولية الوطنية في شبابهم هي أمة شابة متجددة، تدرك طبيعة عصرها بحركته المتسارعة، وتعد العدة لمستقبلها، وإذا كانت الحكمة التي توارثناها منذ طفولتنا أن شباب اليوم هو قادة الغد، فإن قيادتنا الرشيدة تعلنها أن شباب اليوم قادة اليوم، فليس لدينا رفاهية الانتظار إلى الغد.

بناء الثقة قبل بنـاء الأوطـان

إن بنـاء الثقـة هـو ذروة سـنام النجـاح الـذي تحققـه الحكومـات، ذلـك أن هـذه الثقـة لا تقتصـر علـى المؤشـرات الاقتصاديـة فقـط، مثـل معـدل النمـو وغيـره، بـل إن هـذه الثقـة هـي العامـل الأكبـر فـي تأكيـد الصـورة التي تنعكـس تأثيراتهـا علـى التقدير الدولـي الـذي تحظـى بـه الإمـارات، المتمثـل في التطلـع دائمـاً إلـى التجربـة الإماراتيـة بكثيـر مـن الاحتـرام والتقديـر، فضـلاً عـن استنسـاخها، وهـو مـا يمثـل شـكلاً مهمـاً للقـوة الناعمـة للدولـة.

ولـم يكـن لهـذه الثقـة أن تنطلـق إلـى العالميـة لـولا أنهـا كانـت امتـداداً لثقـة المواطـن فـي حكومتـه، التـي جـاءت عبـر جهـد ملمـوس ومسـتمر فـي أداء الأجهـزة الحكوميـة، ولـم يتوقـف هـذا الجهـد عنـد أرقـام ومعـدلات لا تعنـي الشـعوب كثيـراً، بـل إن مـا يميـز منظومـة العمـل الحكومـي فـي الإمـارات أن أعمالهـا يجدهـا المواطـن أمامـه، ويشـعر بهـا فـي حياتـه، ويلمـس آثارهـا منعكسـة عليـه يومـاً بعـد يـوم.

ولا شـك أن حـرص حكومـة الإمـارات علـى إسـعاد الشـعب وتجويـد حياتـه هـي الغايـة الحقيقيـة مـن عملهـا، وهـو سـر هـذا التلاحـم بيـن القيـادة والشـعب، كيـف لا

وقد جعلت القيادة من المواطن مصدراً للفكر والتطوير، واستمعت إليه أينما كان، ومهما كان منصبه في السلم الإداري، وأزالت كل المعوقات بينها وبين التواصل معه، وأعطته الثقة فيما يملكه من مهارات قادرة على تحقيق المستحيل..

فما كان منه إلا أن أولاها ثقته فيما تخططه للمستقبل، وما تقوم به من ممارسات؛ تلك هي الرابطة والمعادلة الصعبة التي استطاعت أن تحققها القيادة الرشيدة، وهي الثقة المتبادلة بين القيادة والشعب، فصار الكل في واحد يداً بيد وكتفاً بكتف.

فكانت تطلعات الشعب دوماً هي اختيارات القيادة، وتوجهات القيادة هي ما يريده الشعب، فتحقق الإنجاز على المستوى التنموي، باعتبار أن المواطن هو صانع التنمية والهدف منها والضامن لاستمرارها عبر شعوره بأنه صاحبها، وأيضاً على المستوى السياسي.

وهنا تؤكد الدراسات المعنية بسيكولوجية الشعوب أنه عندما تثق الشعوب في قيادتها فإنها تكون دوماً مستعدة للاستجابة لكل ما تقوم به من إجراءات وتتخذه من سياسات، وبخاصة في أوقات الأزمات؛ ولقد تحقق ذلك جلياً على أرضنا الطيبة حين اصطف الجميع ولايزالون، قيادة وشعباً في خندق واحد وعبر التلاحم الأسطوري بين القيادة والشعب في موقف الشدة، والذي كان لحظة حاسمة كشفت عن متانة الرباط بين القيادة والشعب، وتلك ثقة تتجاوز في روعتها كل المؤشرات والتقارير الدولية؛ لأنها صادرة من المعنيين بالأمر وأصحابه، وهم أبناء هذا الوطن الكريم.

هذه هي الحكمة المستخلصة التي تؤكد أن بناء الثقة بين القيادة والشعب هو أساس بناء الأوطان، وعلى قدر صلابة هذا البناء تكون قدرة الدول على مغالبة الصعاب، وتحقيق النماء، والصبر على الشدائد، والبذل في السراء والضراء.

وأخطر آفة تصيب الشعوب حين تنفك العروة بين القيادة وشعبها، فينفرط العقد

وينحدر الوطن إلى مستنقع يصعب الخروج منه، حتى وإن كانت مكونات الدولة بمفهومها الاصطلاحي قائمة من أرض وشعب وقيادة، غير أنه لم يعد لها وجود بالمفهوم السياسي، والشواهد من حولنا أكثر من أن تحصى شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً..

ولا شك أن ذلك يرجع في الجانب الأكبر منه إلى انعدام الثقة واتساع الفجوة بين الشعب وقيادته، والتي تلقي بظلالها على العلاقة بين أبناء الوطن الواحد، فيصبح التوجس هو سيد الموقف، وهو ما ينعكس على علاقة تلك الدول بمحيطها الإقليمي والعالمي، ففاقد الشيء لا يعطيه، ويبدأ السقوط المدوي إلى الهاوية.

ولا شك أن قصة الاتحاد ومسيرته تحكي أنه في البدء قام على الثقة في قادة أرادوا الخير لشعوبهم، وآمنوا أن اتحادهم فيه الخير لهم ولشعبهم، فكانت دولة الاتحاد التي أسسها قادة ثقات قدموا صنيع الخير لشعوبهم، فكان أن وثقت بهم شعوبهم لتبدأ رحلة البناء والنماء محفوظة بسياج من المحبة بين قيادة أخلصت فبادلها شعبها حباً بحب وعطاء بعطاء.

وهو ما أكده صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد؛ من أن حصول دولة الإمارات على المركز الأول عالمياً في ثقة الشعب في الحكومة والثقة في الاقتصاد، والمركز الأول عالمياً أيضاً في قدرة الحكومة على تحفيز الابتكار، إنما يأتي نتيجة مسيرة عمرها 43 عاماً بدأها زايد وراشد ويكملها اليوم صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، حفظه الله، وإخوانه أصحاب السمو حكام الإمارات، وترسخها الحكومة يوماً بعد يوم منهجَ عمل يحرص على تحقيق الحياة الكريمة للجميع، وهو ما يؤكد أن بناء الثقة هو السبيل إلى بناء الدول، بل قل ـ إن شئت الدقة ـ إن بناء الثقة قبل بناء الدول.

فطوبى لمن أسس وبنى، وطوبى لمن حافظ ونمّى، وطوبى لمن أحب رمال هذا الوطن.

خلوة الإبداع
وصناعة المستقبل

في ازدحام الأحداث وتتابعها، وضجيج الحياة ومشاغلها، وتبعة المسؤولية وثقلها، وأحوال الناس وتقلباتها، تخفت فينا ومضات من فكر، كانت تستحق التوقف عندها وتأملها، وتغيب الرؤى وتختلط الأمور، وقد تضعف الهمم وتسأم النفس وتفتر العزائم، بفعل رتابة ما نقوم به ونمارسه بشكل يومي، أو بشكل تقليدي، فالألفة عدو التجديد.

والإنسان ابن ما يألفه، للدرجة التي يصبح معه الخروج على المعتاد من الأمور، يحتاج إلى مشقة كبيرة ذهنية ونفسية، ولذلك قال الحكماء: «خير عادة، ألا يكون للمرء عادة».

كما أن أداء أدوارنا بشكل نمطي، يفقدنا لذة الاستمتاع بها، فأستاذ الجامعة الذي يقدم ذات المادة العلمية بذات النمط في الأداء، دون إضافة أو تحديث أو تغيير في طريقة العرض، يفقد بعد فترة زمنية استمتاعه بما يقوم به، ويؤثر ذلك بالتبعية في طلابه الذي يحتاجون إلى من يحفزهم لاستقبال المعلومة، وفاقد الشيء لا يعطيه، كذلك الطبيب الذي يمارس مهنته بأسلوب رتيب، دون

أن تستفزه حالة مرضية جديدة، تحتاج منه إلى البحث والدراسة، يفقد الكثير من وهجه العلمي.

الشاهد أن طبيعتنا البشرية في تعاطيها مع ما تقوم به، تمر بها أحوال زيادة ونقصان، وهذا الذي جبل الله سبحانه وتعالى عليه الخلق في الدنيا والدين، فإذا كان إيمان الفرد يزيد وينقص، كما أخبرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا شك أن همّة الفرد في حياته تزيد وتنقص، ونداء الحق لنا بالتدبر من حولنا والتفكر في آياته، والنظر في حكمته، والتأمل فيما حولنا، هو نهج قويم؛ حتى تستقيم النفس وتتجدد الحياة وتشحذ الهمم.

تواردت على خاطري تلك الأفكار، وأنا أتابع حضور صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد «خلوة المئة»، التي تضم أهم مئة شخصية وطنية معنية بعام القراءة، وذلك لوضع إطار عام، ومناقشة مبادرات وطنية دائمة تعمل على ترسيخ القراءة عادة مجتمعية دائمة في دولة الإمارات العربية المتحدة وفي الأجيال القادمة، والتي تم تقسيمها لستة مسارات أساسية، هي التعليم، والقطاع الحكومي، والقطاع الخاص، والنشر والمحتوى، والإعلام، والقراءة لغير الناطقين. وناقشت أكثر من 100 فكرة ومبادرة في هذه القطاعات، والتي ستكون هي الأساس لبناء استراتيجية طويلة المدى، ليتم تطبيقها عبر كافة القطاعات المعنية.

والحقيقة أن هذا النهج من التعامل مع القضايا الوطنية، يستحق التوقف أمامه طويلاً، شكلاً ومضموناً، من بداية إطلاق الاسم هو «الخلوة»، التي تعني الانقطاع والانفراد بالنفس للتفكير والتأمل بعيداً عما سوى ما نقوم به، كما أن الخلوة في تقديري، تعني التفكير بعمق فيما نحن مقدمون عليه، ونتخلى عما سواه من أمور حياتنا في الزمان والمكان المحدد لذلك..

وهو أمر يحتاج إلى صفاء الذهن، وهدوء النفس وسكينتها، لكي تكون

النتائج ناجعة، ولا شك أننا نحتاج إلى تلك الخلوة بين حين وآخر كأفراد، وكفرق عمل ومؤسسات، نحتاج إليها في حياتنا الاجتماعية، حين يأتي الإنسان ليخلو بنفسه دقائق معدودة، ليرى كيف كان يومه، وما هي المواقف التي أصاب وأخطأ فيها، ليرتب فكره ويحدد أولوياته في اليوم التالي، إننا قد لا نرى الصورة بدقة حين نكون جزءاً من الحدث، غير أن الخلوة والنظر من خارج الدائرة، يجعلنا نرى أشياء لم نكن لنراها، ونفعل أشياء كدنا أن نتجاهلها.

إن الخلوة تعين الإنسان على التأمل، وهو أول أبواب الإبداع الفكري، والباحثون عن الحق التواقون إلى الحقيقة، كانت الخلوة من دأبهم، كيف لا، وهل اكتشف نيوتن قانون الجاذبية وسط حشود من الناس؟

الشاهد أن خلوة الفرد بنفسه تمنحه فرصة للرؤية العميقة، غير أن وجود آخرين معه، يصنع حالة من التلاقح الفكري، الذي ينتج عنه بزوغ أفكار تتنافس مع بعضها بعضاً، وقد تصل إلى مرحلة الاحتدام، الذي يعقبه مباشرة قبول الفكرة الأقوى والأوسط والقابلة للتنفيذ، تلك الفكرة التي حملت في طياتها عوامل قبولها، لتأخذ بعد ذلك زخم حملها والدعوة إليها عبر إقناع الآخرين بها، ثم تحويلها إلى حقيقة ملموسة على أرض الواقع.

إن الفكر المبدع، والذي هو نشاط عقلي للبحث عن حلول أو التوصل إلى نتائج، لم تكن مطروقة، من الصعوبة أن يتم دون أن يكون هناك شكل ما من أشكال الجلوس مع النفس، كما أن قيمة هذه الأفكار، لم تكن لتتضح في غير وجود آخرين، غير أن الدافع الأكبر للوصول إلى تلك الأفكار، هو الإيمان بأن هناك إرادة سياسية فاعلة لتبني الصالح منها والدفع به، تلك هي القيمة الكبرى لتلك الخلوات التي نود أن تنتشر وتصبح أسلوب حياة على المستوى الفردي والمؤسسي، وسوف تكون النتيجة كما الأسلوب، فريدة وناجعة، لتصبح الخلوات صانعة للمستقبل، بإذن الله.

القمة الحكومية وتكريس المؤسساتية

حرصت الإمارات دوماً، وما زالت، على أن تكون منارة للخير، ساعية إلى بذله، وحددت معركتها الأساس في البناء لا الهدم، كما حرصت دوماً، وما زالت، أن تكون مسيرتها في البناء والتنمية شاملة، بحيث لا تغلق أبواب النفع والنماء دون محيطها الإقليمي أو العالمي، كيف لا، وهي عاصمة البذل الإنساني، ومتكاملة، بمعنى أن تكون خططها ذات نسق منسجم عبر فرق العمل، فضلاً عن أهمية العمل المنظم البعيد عن العشوائية، التي قد تسير بنا في خطوط متداخلة، والبعيد عن الموسمية التي تنطلق على فترات زمنية متباعدة، ثم تخبو، وتبحث عن المحصلة، فتجدها قليلة، أو لا تكاد تذكر.

آية ذلك والشاهد عليه، هو توجيه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، رعاه الله، بتحويل القمة الحكومية من حدث عالمي إلى مؤسسة عالمية، تعمل على مدار العام، وهو ما يعكس، بوضوح، جوهر الهدف من هذه القمة.

إن هذا التوجيه يمثل تكريساً للعمل الجماعي، بعيداً عن الفردية التي قد

تمثل أفكارها وميضاً لامعاً أحياناً، غير أنه لا يلبي طموحات أصحاب الهمم العالية والمشاريع الكبرى، التي تؤثر في حياة شعبهم والشعوب من حولهم.

وعالمية القمة في دلالتها، التأكيد بالأعمال لا بالأقوال، أن نقاط التلاقي والتعاون بين حكومات العالم وشعوبها كثيرة، وأن ثمارها سيستفيد منها الجميع، وأن دائرة التقارب أوسع من جبهات التناحر، وأن التسابق في البناء أهم وأجدى وأوفر من التسابق في التسلح، وأن العمل لإسعاد الشعوب هو غاية سامية، الحرص عليها يتطلب أن تتوافر بيئة للإبداع تتسابق فيها فرق العمل المبدعة، التي ترى أفكارها تطبق وتلمس آثارها.

إن الحضارات الإنسانية قامت على التباين في الفكر وفي سبل العيش، غير أن هذا التباين، يكون مصدراً للرفاه الإنساني حين تتلاقح الأفكار وتتكاتف الجهود لغايات سامية..

ولا شك أن تحويل القمة الحكومية إلى مؤسسة عالمية، يمثل أهم عمليات التلاقح الفكري بين البشر، بما يعم بالخير على البشرية، خاصة أن الإنسان في مسيرته لا بد أن يهتدي بتجارب الآخرين، ولا يمكن أن نكون خبراتنا عبر تجارب ذاتية، وإلا سيحتاج الفرد إلى مئات السنين، وهو ما يجعل من نقل تجارب بعضنا بعضاً، وفرة في الجهد والمال والوقت، في عصر تتسارع وتيرة أحداثه.

إننا في عالم تقاربت حدوده، ليست الجغرافية فحسب، بل الثقافية والاقتصادية، للدرجة التي لم يعد ممكناً أن يعيش البعض منعزلاً عن الآخرين، والحالة الصينية خير دليل، لأن تداعيات ما يحدث في أقصى المعمورة، يتأثر به من يعيش في أدناها..

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فلم لا نكون شركاء في الارتقاء بحياة شعوبنا والتخطيط لمستقبلنا وتناقل خبراتنا لنعيش في عالم رحب أكثر سعادة، إنها

دعوة للتكاتف العالمي، لتحمل المسؤولية تجاه التحديات التي تواجه شعوبنا في طريقها للتنمية، كما أنها الفرصة الأمثل للتواصل البنّاء الذي تنتفي معه كل أسباب الفرقة والتعصب والتناحر والتصارع.

تلك هي، في تقديري، فلسفة قيادتنا الرشيدة في تثبيت دعائم تلك القمة، التي كانت فريدة حين تم إطلاقها، وفريدة حين تحولت إلى مناسبة سنوية، وفريدة حين لم تستثنِ شباب العاملين في المؤسسات الحكومية، وفريدة حين فتحت أبوابها لكافة الحكومات من العالم شرقه وغربه، وفريدة حين تحولت من قمة سنوية إلى مؤسسة عالمية لها أهداف واضحة وآليات لتحقيق تلك الأهداف.

إن تحويل القمة الحكومية إلى مؤسسة عالمية، تمثل إرادة حقيقية للخروج بها من فعالية سنوية، تحتشد فيها أكبر الخبرات وأرفع المهارات لتبادل الخبرات وتلاقح الأفكار لعدة أيام، رغم أهمية ذلك، ثم تنفض، لتكون بيتاً للخبرة الدولية، ومركزاً دائماً للبحث العلمي، واستشراف آفاق التقدم والارتقاء بالإنسان..

ولا يقل ذلك عن بناء عشرات المصانع، إن لم يفقه، وقد غدت البوتقة التي سينطلق منها الفكر، ليتحول إلى واقع يستفيد منه الناس، وهو ما أكد عليه خبراء التنمية، حين قالوا: خطِّط عاماً ثم نفذ في أيام، وهو تعظيم للفكرة حين تسبق التنفيذ، كما أن قوة الأعمال تأتي من قوة فكرها وفلسفتها.

وهو تأكيد على أن العمل الحكومي لا يمكن أن يكون ناجعاً، دون الاستناد إلى فكر قوي مبدع، وفرق عمل قادرة على التكامل لا التداخل، والانطلاق بالفكر، حتى وإن تعلق بقضايا وطنية إلى العالمية، وهو ما يؤكد ثقة القيادة في قدرات أبناء الوطن، والاعتزاز بما لدينا من خبرات وإمكانات، جعلت ما تقوم به الإمارات وما تطلقه من مبادرات، محط أنظار وترقب من الكثيرين.

وهي محصلة سنوات من العمل الشاق، متسقة تماماً مع ما تم من دعوات للتميز ثم الإبداع، ثم الانطلاق بالعمل المبدع إلى النطاق العالمي، وإذا كانت القيادة قد أطلقت أن عام 2016، هو عام الابتكار، فإن مؤسسة القمة الحكومية العالمية، ستكون بإذن الله البوابة الرسمية التي ستنطلق منها كافة الأفكار المبدعة لترى النور، ويعم الخير من عاصمة البذل والعطاء.

محمد بن راشد
والقيادة بغرس الأمل

صعبة هي الكتابة حين تكون حول صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، وسوف أكون مباشراً حين أقول إن وجه الصعوبة يأتي من تعدد مناقب سموه وثراء الشخصية وقامتها التي تجعلك في حيرة من أمرك، حول أي من ملامح الشخصية وصفاتها وآثارها في حياة شعبها ستتحدث، ولن أكون مغالياً إذا قلت في شعوب المنطقة، بل والعالم، فآثار صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، وما قام به خلال سنوات عشر، آثار كبيرة.

استطاع أن يحول الرؤى إلى واقع، ومادام المقام مقام قيادة استطاعت عبر سنوات هي في العدد عشر، غير أنها في الأثر والواقع تفوق العقود، وليكن الحديث حول الرؤية العبقرية لمنهج القيادة الذي اتبعه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، وهو المنهج الذي يستوقف كل من تابع السنوات العشر في حكم سموه.

هو منهج «القيادة بالأمل»، وهو في تقديري من أصعب وأعقد أساليب القيادة، ومصدر صعوبته أنه يتطلب أولاً قدرة على الرؤية واستشراف فرص

النجاح بين ذلك الكم الكبير من الضجيج والضبابية التي تحيط بكثير من القضايا، ثم المرحلة الثانية القادرة على اتخاذ قرار باقتناص الفرصة وحساب جوانبها الإيجابية والسلبية بسرعة تتناسب مع حركة العصر وأحداثه..

ثم القدرة على التحفيز لإنجاحها، ثم أن يرى الشعب أثر ذلك في تجويد حياته اليومية والارتقاء بها، وهو ما أكده سموه قائلاً: «الهدف واضح والطريق ممهد والساعة تدق، لا مجال للتردد، كثيرون يتكلمون ونحن ننجز».

منهج القيادة بزراعة الأمل، والذي اختاره سموه ليكون طريقه، نهج يتطلب القدرة على الحلم، وهل تحققت المعجزات في حياة الناس دون أن تكون أحلاماً، لكن تتعاظم قيمتها عندما يملك صاحب الحلم أن يحوله إلى واقع.

لقد استطاع سموه خلال مسيرته، بشهادة المؤسسات الدولية ومراكز البحوث ذات القيمة العلمية، أن يحول ما كان الناس يرونه حلماً إلى واقع، والشواهد أكبر من أن تحصى، وقبل ذلك وبعد ذلك شهادة الواقع المعاش والشعب الذي جعل سموه وظيفة الحكم هي إسعاده، فلخص بهذا الهدف كل النظريات العلمية ونتائج مراكز البحوث السياسية في كيفية تحقيق الرفاه الإنساني، وهو ما أكده غير مرة قائلاً: «الحكومة ليست سلطة على الناس، ولكنها سلطة لخدمة الناس؛ لذلك فإن مقياس نجاح الحكومة هو رضا المتعاملين معها».

غير أن ما يجب التوقف أمامه طويلاً، أن تحويل سموه الحلم إلى حقيقة جاء عبر غرس الأمل في النفوس، والثقة في القدرة على النجاح، ومواجهة التحديات والتغلب عليها، واستثارة الفكر، وتعبئة الطاقات، وشحذ الهمم، ثم العمل عبر منظومة من العمل المتكامل، لتكون النتيجة تحقيق الحلم وإسعاد الناس.

والأهم هو القدرة على الحلم من جديد، حتى أصبح الحلم عادة فكرية لدى أبناء الإمارات، والتميز وسيلة، وبات من يؤدي عمله بالشكل النمطي

كمن يغرد خارج السرب ولا مكان له في موكب العمل والأمل. وآية ذلك قوله: «لا مكان لكلمة مستحيل في قاموس القيادة، ومهما كانت الصعوبات كبيرة، فإن الإيمان والعزيمة والإصرار كفيلة بالتغلب عليها».

لقد استطاع سموه في سنواته العشر أن يحول الحلم إلى واقع، غير أنه في الوقت ذاته استطاع أن يغرس في النفوس أهمية الحلم والقدرة عليه والعمل على تحقيقه. فكان القائد الذي فتح أبواب مدرسة القيادة وجعل من أبناء شعبه قادة، كل في مجاله وعلى قدر مسؤوليته. وأن الوظيفة الحكومية ليست فقط باباً للرزق، إنما هي قبل ذلك باب للإنتاج، ودوائر الحكومة ليست مكاتب للروتين والتواكل والتكاسل، بل ميادين للإبداع.

إن القيادة بالأمل هي القيادة بالعمل المستمر بجهد لا يعرف الكلل، ونفوس لا تعرف الملل، وهمم عالية ترى دائماً مكانها في القمم، ولا ترضى بغير المركز الأول بديلاً، مؤكدة أن التاريخ لا يذكر أصحاب المركز الثاني ولا يعترف بغير الأوائل، فكان السعي الجاد دائماً أن يكون ما يتم على أرض الإمارات محطات فارقة يتوقف عندها العالم، وهذا ما جعل من سموه قدوة يتطلع إليها شباب عالمنا العربي بكثير من التقدير والاحترام، لذلك بات سموه مصدر إلهام لشباب عالمنا العربي المتطلعين إلى المستقبل، وأن هناك أملاً في غد أفضل، لم لا، وأحلامهم يرونها شاخصة أمام عيونهم على أرض الإمارات.

استطاع صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، أن يزرع الأمل في النفوس، ومن يزرع الأمل لا يجني إلا المحبة في قلوب شعبه وشعوب أمته العربية التي لم يغب عنها يوماً.

اصنع فرقاً

تلك هي القيمة الحقيقية لمن يحيا على سطح الأرض وفي دنيا الناس؛ أن يكون رقماً صعباً ليس من السهولة تجاوزه، وأن يكون لوجوده قيمة ولحياته معنى.

ما أصعب أن يحيا الفرد بالمفهوم البيولوجي؛ فيأكل ويشرب ويتكاثر ولم يشعر بوجوده، ثم يغادر الدنيا دون أن يفتقده أحد عند مماته! مع احترام آدميته كإنسان، غير أنه واحد مثل آلاف البشر. ما أصعب تلك الحياة حين لا يكون لوجودك علامة فارقة في محيطك مهما زادت رقعته أو انحسرت، ومع من حولك أياً كان عددهم!

فالعبرة ليست في العدد بقدر ما هي في الأثر، ورب سلوك قويم، أو رأي صائب، أو فكرة ألمعية، أو عمل صالح قمت به زادت قيمته بتبني غيرك له، ثم هكذا دواليك، وهل بدأت الأعمال الخالدة إلا في عقل فرد واحد، ثم لما رأى الناس فيها الخير صارت ديدنهم، فخلّدت أصحاب السبق في القلوب قبل التاريخ.

ولأن للإمارات مع كل عام راية خير ترفعها فيها نفع للإنسان ورشد للإنسانية، والتي تراوحت بين عام الابتكار ثم عام القراءة، يأتي هذا العام لتعلن الإمارات للعالم أن 2017 عام الخير، الذي يحمل شعار «افعل خيراً.. واصنع فرقاً»، ذلك الشعار الذي اعتمده صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، وتم تزويد مختلف الجهات للعمل به عبر محاوره الثلاثة، وهي المسؤولية الاجتماعية، والتطوع، وخدمة الوطن.

إن عام الخير، الذي ينطلق من بلد الخير، الذي لا تنطلق من حدائقه السبع، التي عبرت عنها سعفة النخيل الذهبية بورقاتها إلا نسائم الخير، إنه نداء الفطرة إلى حقيقة الإنسان التي خلقه الله عليها، والتي تؤكد أن الفرق أنت الذي تصنعه، وقيمتك في الحياة أنت الذي تحددها، كما تحمل طاقة بداخلك يجب عليك أن تحدد مساراتها، وأن كل بني البشر لديه قدرات لكن كيف يمكن ومتى وأين توظفها؟

تلك هي المسألة، لذا فإن فتح أبواب الخير ومجالاته يستفز في النفس أجمل ما فيها، كيف لا وهي باب السعادة لصاحبها أولاً ثم لمن حوله، فأكثر الناس انتفاعاً بأفعال الخير هم صانعوها، ويجب علينا أن ننظر في المرآة لنعرف أن من أمامنا هو ذلك الشخص الذي يعوق هذه الطاقة، وأن القيمة الحقيقية بداخلنا علينا أن نكتشفها وأن نطلقها، ذاك هو التحدي.

وتلك هي الفضيلة الحقيقية التي تجعل قيمة الإنسان تتعاظم حين يغالب نفسه فيغلبها، وحين يجد في العناء متعة وفي المشقة سعادة، وحين يكون من يأخذ منه أحب إليه ممن يعطيه، وأن من يحتاج إلى جهده أحب إليه من غيره. ولا شك أن من يجبل على صنيع الخير يذق حلاوته، ومن ذاق عرف، ومن عرف فعل الخير ويصعب عليه أن يجد متعة في غيره أو أن يستقيل عنه.

وفي تقديري أن الإمارات وهي تعلن أن 2017 عام الخير، بعد أن حاصرت جموع شعوبنا العربية مشاهد القتل والدمار، توقظ بذاك النداء حقيقة الضمير

الإنساني وحقيقة الإنسان ذاته، وتضرب المثل والنموذج كما هي النموذج التنموي الذي بهر، ومازال، العالم من أقصاه إلى أقصاه، تؤكد أن قوة الخير الإنساني كانت وستظل هي الرافعة التي وصلت بها إلى تلك المكانة السامية لتقف شامخة متفردة، خاصة أن اتحاد الإمارات قام بالأساس على قوة فعل الخير للإنسان، الذي أراد أن يسعد شعب تلك المنطقة من العالم، في الوقت الذي فتح، ولا يزال، الأبواب لشعوب العالم للدرجة التي أصبحت فيها الإمارات مصنعاً للخير وعاصمة للتسامح.

«اصنع فرقاً» تعني أن عطاءك مهما كان بسيطاً فإن هناك من يسعد به، وأن ابتسامتك تمنح غيرك وتمنحك السعادة. أصنع فرقاً؛ تعني أن ثم مكاناً خالياً ينتظرك وأن هناك من ينتظر لتمد له يد العون لتغير من مساراته ومساراتك.

«اصنع فرقاً» تعني أن حياتك طويلة وممتدة بقدر ما تقدمه للآخرين، وأنك بفعلك ما زلت في دنيا الناس حتى ولو انقضت أيامك، وأن عمرك لا يقاس بعدد الأيام والأعوام بل بآثارك التي شيدتها. «اصنع فرقاً» هو بيان عملي تربوي لتعلم العطاء، وأن الحياة دواليك:

يومٌ يصنعه لك الآخرون، ويومٌ أنت تقدم فيه للآخرين. هكذا تبنى المجتمعات وتقام الحضارات. «اصنع فرقاً» نداء لاستنهاض الهمم وتشمير السواعد للعمل الجماعي كتفاً بكتف وذراعاً بذراع، وأن الفرد مقل بذاته لكنه بغيره ينتج عملاً كبيراً؛ لأن الجبال مهما كانت ضخامتها مبدؤها الحصى، وزخات المطر تشق أطول الأنهار وأعمقها، وفعل الخير يصنع الفرق.

المؤلف

الدكتور خالد الخاجه، الرئيس التنفيذي لمؤسسة «برين للاستشارات والتدريب» في دبي، حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة في اللغويات التطبيقية من جامعة سالفورد بالمملكة المتحدة في عام 1989، ودرجة الماجستير في الآداب في تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية من جامعة جنوب كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1984، ودرجة البكالوريوس في الآداب في اللغة الإنجليزية وآدابها تخصص رئيس ومحاسبة تخصص فرعي من جامعة الإمارات العربية المتحدة عام 1981.

شغل عدة مناصب أكاديمية وإدارية بجامعة عجمان، منها نائب مدير الجامعة للشؤون الأكاديمية والإدارية، مدير الجامعة بالإنابة، عميد كلية المعلومات والإعلام والعلوم الإنسانية، وعميد كلية اللغات الأجنبية والترجمة، وقبل ذلك عمل في جامعة الإمارات العربية المتحدة أستاذاً بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها، وفي الوقت نفسه تم تكليفه وكيل كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتي شغل قبلها تكليفات في الكلية مثل مساعد العميد لشؤون الطلاب ورئيس وحدة.

وهو عضو في اللجنة التنفيذية بجامعة الفجيرة، والمجلس الاستشاري في كل من كلية الآداب والعلوم بالجامعة الأمريكية برأس الخيمة، وكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، ومجلس الأمناء لجائزة راشد بن حميد للثقافة والعلوم.

لدى الدكتور الخاجه اهتمامات بحثية وميدانية واسعة تشمل طرق التدريس والتعلم، القيادة والإدارة، الاختبارات، إعداد البرامج الأكاديمية، تقديم الاستشارات الأكاديمية للمؤسسات التعليمية الحكومية والخاصة، التقييم المؤسسي، فضلاً عن ذلك فإن الدكتور الخاجه كاتب مقال أسبوعي في صحيفة البيان الإماراتية.